

1437 هـ 2015 م

تفريغ

شرح سورة الأنعام

للشيخ:

أبو قتادة عمر بن محمود

التحايا للإعلام الجهادي
قسم التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

شرح سورة الأنعام

لفضيلة الشيخ/

عمر محمود أبي قتادة

مُؤَسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

الفهرس

الدرس الأول

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وسيدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين آمين.

أيها الإخوة الأحبة؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأشكر إخواني القائمين على هذا المسجد والداعين لهذا اللقاء. إن وفق الله -عزَّ وجلَّ- وأتمَّ بالخير والبركات فسيكون لنا لقاء في كل يوم من أيام رمضان بعد صلاة العصر، نقف فيها معكم على أسرار بعض الصور القرآنية التي نقرأها ونرتلها في هذا الشهر الكريم.

مقدمة بين يدي تفسير السورة

اخترت لكم أن نقف على بعض أسرار سورة الأنعام، وسبب اختياري لهذه السورة هو أنها جامعة لقضايا القرآن المكي؛ فهي تتحدث بإسهاب وببلاغ تام وبكلمة كاملة عن القضايا التي أثارها القرآن الكريم في أول نزوله ومخاطبته لقريش.

وهي تقوم على ثلاثة أعمد:

العماد الأول: قضية **التوحيد** بشمولها وعظمتها واتساعها واستغراقها لصفات الله -عز وجل- وجلاله، واستغراقها لحركة الإنسان في هذه الدنيا. فهذه السورة شاملة لما يتحدث عنه القرآن من أصول قضايا التوحيد، بحيث تتكلم عن جمال وعظمة وقدرة ربنا، وكذلك تتحدث عن ألوهيته، وعن وجوب عبادته، وإفراد العبادة له -جل في علاه-. وتتحدث كذلك على قضية أن هذا التوحيد يستغرق كل الإنسان؛ يستغرق حركة بدنه، وحركة لسانه، وحركة قلبه، كما أنه يستغرق ماله وكلامه وجميع تصرفاته. فهذه السورة تتحدث عن هذا بتوسع عظيم وببلاغ تام.

المسألة الثانية التي تتحدث عنها هذه السورة هي قضية **الرسالة**؛ لأن التوحيد يتعلق بأمر غيبي وهو ربنا -سبحانه وتعالى-، مع أن آثاره -كما قال أبو العتاهية-:

وفي كــــلِّ شـــــيءٍ لــــه آيـــة تـــــدلُّ علــــى أنـــه الواحِـــــدُ

إلا أنه غيب بالنسبة إلينا، وهذا الغيب لا يمكن أن يُدرك إلا بالرسالة.

وقضية الرسالة بالنسبة للمناوئين لرسالة محمد ﷺ قضية مهمة؛ فقد تكلموا عن شخصه، وتكلموا عن صفاته، وتكلموا عن وعوده التي حكى عنها وتكلم بها.

وأما المسألة الثالثة فهي قضية **الآخرة**.

فهذه أركان القرآن المكي، ويكون على جوانب هذه القضايا قضايا أخلاقية وقيَميّة هي أساس قيم الوجود، وهي أساس أخلاق الإنسان.

أهم القضايا التي تتطرق لها سورة الأنعام:

فسورة الأنعام تتحدث عن أصول القيم الإنسانية وكيف تربطنا بالتوحيد وبامتثال الرسول وبقصد بلوغ الجنان في الآخرة.

وهذه العمد الثلاث -يصح أن يُقال الثلاثة والثلاث على جهة الصفة وعلى جهة البدلية كما يعلم أهل اللغة- هي عماد الشخصية المسلمة؛ وهي أركان الشخصية المسلمة.

فالركن الأول هو توحيد الله -عزَّ وجلَّ- بأنك عبد، وأنت مفطور على هذه العبودية شئت أم أبيت؛ إما أن تكون عبدًا لله وإما أن تكون عبدًا لغيره. وكما أنك مفطور على حاجتك للطعام فأنت مفطور على حاجتك للرب فقرًا، وهذه ضرورية من ضروريات وجودك، ولذلك قالوا بأن **الإنسان فقير بذاته**.

والفقير بذاته يقابله الغني بذاته؛ فأنت قد تُصاب بالغنى، لكن هذا الغنى عارض من عوارض وجودك، وليس أصليًا فيك، فأنت غني بغيرك، ولولا المال لما كنت غنيًا؛ فأنت حتى في غناك فقير محتاج لغيرك، والله غني بذاته.

ومعنى الغنى الذاتي أنه لم يكتسب ربنا -سبحانه وتعالى- صفة الغنى لما خلق الخلق، فهو غني قبل أن يخلق الخلق، غني قبل أن يخلق العرش -وهو أعظم ما خلق الله-، غني قبل أن يخلق السماوات، غني قبل أن يخلق الأرض، غني قبل أن يوجَد على ظهر السماوات من يسبحه ويحمده ويثني عليه، فغناه ذاتي وأنت فقرك ذاتي؛ وما دمت أنك فقير بذاتك؛ فحاجتك لئن تكون عبدًا أمر فطري: لا غنى لك على أن تكون عبدًا، فيكون توحيدك لله -عزَّ وجلَّ- هو إملاء لهذه الضرورة، وهي ضرورة بمعنى أنك لو فقدتها؛ فقدت وجودك، بخلاف الحاجة التي إذا فقدتها تُصاب بالمشقة والتعب والعنت، ولكن الضرورة لو فقدتها فقدت حياتك، كالهواء، كالروح، كالرأس في بدنك.

فحاجتك للعبودية في نفسك هي ضرورية من ضرورياتك، والعبد المسلم يملأ هذه الضرورية بعبوديته لله؛ فإن ترك المرء أمرًا من عبودية الله ملأها بعبوديته غيره.

والإنسان بحاجة إلى الشرائع، لا يمكن للإنسان أن يعيش بغير شريعة، ولذلك من قديم قالوا أن الإنسان مدني بالطبع، ومعنى أنه مدني أي يحتاج إلى غيره، فما دام أنه يحتاج إلى غيره -كالزوجة والولد والشريك والجار والبائع والمشتري- إذًا هو يحتاج إلى شريعة. وخضوعك لشريعة ما هو امتثال للأمر، وامتثال الأمر فيه نوع عبودية.

فإما أنت تمتثل لشرع الله فتكون عبدًا له وإما لا يمكن أن تخرج إلى الفضاء، هل يمكن أن تخرج من شريعة إلى لا شريعة؟ لا يمكن؛ فإما أن تكون في شريعة نقية سوية، وإما أن تكون في شريعة باطلة غوية، إما أنك تسأل حين تحتاج أن تتوجه بقلبك إلى الله فتسأل هذا العظيم، وإما أن تذهب إلى آخر فتسأل هذا الآخر ما معه من حاجات. فأنت بوجودك محتاج إلى رب يخلق، ورب يرزق، ورب يمد ويعطي ويمنع، ويحي ويميت.

الحاجة الثانية الملائمة لقضايا سورة الأنعام هي قضية **المثال**، الإنسان؛ كما أنه مفطور على العبودية، هو مفطور على الامتثال.

كيف تدرك الفطرة؟ كيف لنا أن نعرف أن أمرا ما من الفطرة أو ليس من منها؟

الفطرة هي أمر جامع للبشرية، ولكن كما قال ﷺ: (فأبواه يهوِّدانه أو يمجسانه أو ينصرانه)[1]، أي أن عوامل المجتمع تعمل في تغيير هذه الفطرة، فلما يقول ﷺ: (خمس من الفطرة)[2]، فهذه قضايا جامعة للبشرية، ولو تُركت على حالها من غير وجود مؤثرات جانبية لسلكها الإنسان وأتاها.

اللحية فطرة، ولكن الناس بعد ذلك يأتيهم الشيطان فيجتاحهم ويجتالهم عن هذه الفطرة، الوضوء من الفطرة، الزواج من الفطرة.

ومن الفطرة التي رُكبتَ عليها أيها الإنسان هو أنه لا بد لك من مثال أمامك تقتدي به، وهذا تعرفه من الصغار. فالولد الصغير فطرته تبدأ بأن يقلد والده، وبعد ذلك ينطلق في مخيلته وواقعه إلى نماذج أخرى تمثل له صورة الامتثال. فتجد المؤمن لتعبئته بصورة النموذج العظيم وهو رسولنا ﷺ؛ يبحث ويتقفر كل سنة: كيف كان يأكل، كيف كان يشرب، كيف كان يمشي، ما الذي يحبه من الأطعمة، كيف كان يتحرك، إلى هذه الدرجة، ولا يسأل كيف كان يصلي؛ لأن هذا من القضايا المفروغ منها.

فلإملاء حقيقة المثال في نفسك أيها الإنسان؛ جاء الرسول، وجاءت الرسالة من أجل أن تبين لك أن التوحيد في صورته الواقعية والعملية، فأنت تحتاج إلى شخص يسير أمامك يبين لك كيفية العبودية، ويملأ هذا الشخص وجدانك ونفسك وعقلك وقلبك بالحب والطاعة.

من هنا كانت قضية الرسالة قضيةً مهمة، فكما أن التوحيد هو صراع بين الإله الحق وبين الآلهة الباطلة؛ كذلك قضية الامتثال هي صراع بين النموذج العظيم الذي هو رسولنا ﷺ وبين النماذج الباطلة التي يصنعها الناس، فيقولون لهم: "ما أريكم إلا ما أرى". والناس الآن كما ترون يصنعون لأبنائهم النماذج، ووسائل الشياطين تصنع نماذج أخرى: ممثلين، لاعبي كرة قدم، مغنيين، إلى غير ذلك. فهذه صور الأمثلة الجاهلية التي يسعى فيها الإنسان ظانًا أنه بها يبلغ المثال ويبلغ بها الكمال.

القضية الثالثة بعد هذه القضايا وهي قضية **المقصد**، وهي قضية {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}.

---

[1] صحيح البخاري: (١٣٥٨).

[2] صحيح البخاري: (٢٨٨٩)، صحيح مسلم: (٢٥٧).

فقضية الدار الآخرة هي مربط حركة المسلم، وهناك أمور لو حاولت أن تفسرها لغير المسلم فلن يقبلها إلا إذا آمن باليوم الآخر.

قضية الربا مثلًا؛ حدثوا ما شئتم عن محاسنها ومنافعها الدنيوية، ولكن حين نقف عند قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ} [البقرة: ٢٨٠]؛ كيف يقبل التاجر في عالم آدم سميث: "دعه يعمل دعه يمر"، عالم الاقتصاد الرأسمالي الطاغي، والذي لا يعترف إلا بالقرش وحركته وكيف ينميه وكيف يكثره، كيف يقبل أن يقول عند العجز عن أداء الدين: "فنظرة إلى ميسرة" فقط؟! ثم يأتي إلى: {وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢٨٠]. وهذه المسألة من مسائل الوجود، والناس يقولون -وقد صدقوا-: "المال عصب الحياة"، والله يقول أعظم من هذه الكلمة عن المال: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ **قِيَامًا**} [النساء: ٥]، كأن المال حقيقته كحالة تلك الشجرة التي لا تقوم بنفسها، وإنما تحتاج بجانبها لمن **يقيمها** -ولذلك الله قيوم، أي قائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد، وقائم على غيره فالكل يحتاج إليه-؛ فالله سمى المال "**قيامًا**"، فأنت لا تستطيع أن تقوم بأمر المال، المال قوام الحياة، عماد الحياة.

فكيف لهذا المال الذي هو عماد الحياة أن يُطلب منك أن تصبر عليه ولا تزيد، وكيف لك إن كنت محسنًا أن تتصدق؟! هل يمكن لأحد أن يقبل هذا العرض وهذا التشريع إلا بأن يكون مؤمنًا بالدار الآخرة؟! لا يمكن.

كيف للرجل أن يغلق مكانه ويذهب إلى الصلاة؟ كيف للرجل أن يتصدق ويتمنى ويفرح أن يجد الفقير من أجل أن يعطيه المال؟

فقوام الشريعة كلها على قضية الدار الآخرة.

سورة الأنعام تتحدث عن هذه الأركان، وتبسطها بسطًا عظيمًا مهمًا لأنها في جُلها تتحدث جمالًا ومدحًا وحمدًا لرب الوجود. وأعظم ما في القرآن هو الحديث عن ربنا. ومن لم يفهم أن القرآن إنما أنزل من أجل أن يَبين متكلمُه عن الله، -ومتكلمه هو الله سبحانه-، ومن أجل أن يبين عن نفسه ومن هو، فما فهم شيئا.

وكل القرآن يعود إلى هذه النقطة وإلى هذه المسألة، وهي الحديث عن نفس ربنا، فعليك أن تذهب إلى القرآن من أجل أن تعرف من هو هذا الإله، وكيف يتحدث عن نفسه، وما هي صفاته، وما هي أفعاله، وما هي كمالاته، وما هو مجده -جل في علاه-. والناس ربما يفرحون لسماع قصيدة يتحدث فيها الشاعر صاحبها عن حبيبته، أو يتحدث

فيها شاعر شجاع عن شجاعته فيطربون لها؛ لكن هذا القرآن يتحدث عن الكمالات التي لا تليق إلا بواحد وهو الله.

إعجاز القرآن:

وقبل أن أخوض في هذه السورة أريد أن أحدثكم فقط عن النقطة التي ركض فيها العلماء، وأتعبوا خيول عقولهم وكتاباتهم وكلامهم من أجل إدراك سرها، وهي كون القرآن **معجزا**. فما معنى هذه كلمة الإعجاز؟

اليوم؛ بسبب انتشار الاكتشافات العلمية، وغلبة هذه الاكتشافات والصناعات على عقل الإنسان، فالناس لا يروق لهم إلا الحديث عما يسمونه بالإعجاز العلمي في القرآن، وسأبيّن خطأ هذه التسمية.

الإعجاز: أساس هذه الكلمة أن الله -عزَّ وجلَّ- لما ألقى هذا القرآن على قلب نبينا محمد ﷺ عن طريق جبريل، قال لهم هذا هو كتاب ربنا وكلام الله، {فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: ٦]، فهذا هو كلام الله، ثم تحداه أن يأتوا بمثله، وهذا التحدي أعجزهم، فسُميت هذه الحالة بالإعجاز إلى يوم القيامة. فهو أعجزهم أن يأتوا بمثله، لا بما أتى فيه من مواضيع، فهو لم يطلب منهم أن يأتوا بأحكام عظيمة، ولم يطلب منهم أن يأتوا بمعان صحيحة، بل تحداهم قائلًا: {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود: ١٣].

فالشاعر يطرب له الناس وهو يصف وصفًا غير حقيقي يبالغ فيه، كما يقول عمرو بن كلثوم:

مــــلأنا البَـــرَّ حـــتى ضـــاق عنـــا ومـــاء البحـــر نملـــؤه ســـفينا

فهذه كلمة جميلة طربنا لها، رجل يفتخر أنه صنع فعلًا عظيمًا، قام وقتل الملك الذي أراد أن يزل أمه في قصة معروفة تعرفونها، ثم افتخر وقال ملأنا البر حتى ضاق عنا؛ هل هذا صحيح؟ لا، هذا شعر مفترى، لكنه جليل وعظيم.

فالقرآن يقول: {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ}، أي: افتروا كما تشاؤون من المعاني، وهم يستطيعون أن يفتروا في هذا الباب وتحلق أذهانهم في صناعة الشعر الذي قال الله –عزَّ وجلَّ-: {فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ} [الشعراء: ٢٢٥]، ومع ذلك تحداهم وقال لهم أريد عشر سور مفتريات تبلغ جمال وجلال وعظمة ما أتى به القرآن.

فإذًا التحدي الذي في القرآن –مما يسمى إعجازا- ليس هو أن تأتي بمعاني صحيحة، فالله يقول "**مفتريات**"، افتروا، ائتوا بما شئتم! ولكنني أريد عشر سور تبلغ كمالًا ما بلغه هذا القرآن من كمال وبلاغة البيان.

نعم، نستطيع أن نستدل بما جاء في القرآن من إعجاز علمي في هذا الزمان ونطحن الملحدين المعاصرين حين يقولون أن هذا القرآن ليس من عند الله، فنذكر كدليل ما حدثنا به القرآن عن الجنين مثلًا في وقت لم يكن يوجد فيه مِسْبَار (مُختَبر)، والقرآن يخبرنا بدقة متناهية عن كيفية خلق الجنين؛ فدلَّ على أن الذي أنزل القرآن هو الذي يخلق الجنين في بطن أمه. نعم، هذا من أدلة أن القرآن من عند الله، ولكن ليس هو الإعجاز.

هل فهمتم الفرق؟ الإعجاز هو الذي تحدى ربُّنا فيه العرب أن يأتوا بمثل هذا الكلام وعظمته وجلاله وبيانه وبلاغته وبديعه، حتى ولو أتوا بالمعاني المفتريات، فهذا الذي هو بهر العقل.

كيف بهرهم؟ لا بد أن ننظر إلى هذا القرآن، ولا بد أن نعيد ذوقنا.

أهمية البيان

وهذا الذي نريد أن نقف عليه مع سورة الأنعام، بعد الحديث عن هذه القضايا العلمية العظيمة، وهو: الذوق؛ هناك ذوق للّسان وهناك ذوق للذهن والعقل. فهذا ذوق للماديات وهذا ذوق لما هو معنوي (للمعنويات).

والأعظم هو الذي اختص به الإنسان، قال الله -عزَّ وجلَّ-: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**} [الرحمن: ١ -٤]؛ فأعظم ذوق عليك أن تحييه وأن تعتني به هو هذا الذوق الذي فرَّق الله به بينك وبين الحيوان، ولذلك الحيوانات يُقال لها عند العرب: "العجماوات"، من العجم. يعني أنه لا يستطيع أن يَبِين.

فلو أراد الخروف أن يأكل؛ لا يتكلم بكلام مبين، لو أرادت دابة أن تشتكي ظلم صاحبها؛ لا تتكلم كلامًا مبينًا.

ولما جاء الفلاسفة من أجل أن يفرقوا نوع الإنسان عن بقية هذه الأنواع المخلوقة في الوجود قالوا: "الإنسان حيوان ناطق"، يعني أن الإنسان له خصيصة واحدة تفرقه عن الحيوان هي أنه يتذوق الكلام، وحين يتكلم؛ يتكلم بكلام مبين، وكلما ارتقت إنسانيته، وكلما ارتقى علمه، وكلما ارتقت بشريته التي تميزه عن بقية الخلق؛ كلما ارتقى بيانه.

من أجل هذا قال شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله-: **"كلما اتسع ذهن المرء اتسعت عبارته"**.

فإذا أردت أن تخوض في غمار العبودية لله؛ لا بد أن تُنمي هذه الذائقة البيانية التي جعلتك إنسانًا (البيان). والله -عزَّ وجلَّ- يقول: {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الفرقان: ٤٤]، وبين البهيمية والإنسانية مفاوز عظيمة، فيمكن للإنسان أن يكون فيه بعض البهيمية وبعض الإنسانية، لكن ليتخلص كل يوم من هذه البهيمية، وليرتقي في درجات الإنسانية في عبوديته لله؛ لا بد أن ترتقي ذائقته البيانية من أجل أن يدرك معاني القرآن وإعجاز القرآن.

ونحن في هذه الأيام ربما يخطر على بالنا خاطر يقول: نحن اكتشفنا من معاني القرآن ما لم يعرفه الصحابة، يعني عندما تأتي: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥]، مَنْ مِنَ العرب يعرف أنه إذا ارتقيت في المرتفع ضاق صدرك لقلة الهواء؟ فقد يقول البعض: نحن نعرف تفسير هذه الآية أكثر من الصحابة. وحين يأتي قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج: ١]، ويتحدث علماؤنا عن البروج بما وصل إليه العلم الآن؛ وجزاهم الله خيرًا، وجهودهم

مشكورة وعظيمة وعلى الرأس والعين، وقد ردت إلحاد الملحدين، وأعادت قوة اليقين إلى قلوب المسلمين، كل هذا جيد.

لكن انتبهوا إلى ما نتكلم عنه: إلى قضية أن **ترتقي ذائقتك البيانية في فهم كتاب الله من أجل أن ترتقي عبوديتك لله**، فكلما علمت نفسك؛ علمت ربك، وكلما علمت ذائقة البيان؛ ازددت نورًا بهذا الكتاب فازددت تعبدًا.

والدليل على هذا هو أنه مع كثرة ما نسمع من أدلة علمية؛ لا تزيدنا عبوديةً لله، فنحن نسمع كل يوم عن اكتشافات علمية قد القرآن جاء بها، فهل زادتنا عبودية لله؟ هل جعلتنا أكثر قربًا في ذكرنا لله؟ هل جعلتنا أكثر قربًا في قراءتنا للقرآن، هل جعلتنا أكثر قربًا في امتثال أوامر الله؟ ألا ترى أن البعض ربما يجلس أمام الناس ويتحدث عما يُسمى بالإعجاز العلمي، ومع ذلك هو لا يقتدي بالنبي لا في سمته ولا في هديه! بل ربما تجد زوجته سافرة، ومع ذلك يتحدث.

فهل هذا العلم زاد رقيَّ العبد في طاعته لله؟ نحن لا نرى هذا، ونراه غير مؤثر البتة. لماذا هذا القرآن أثر في الجيل الأول حتى "صنع جيلا قرآنيا فريدا" كما قال سيد -رحمه الله- في (معالم الطريق)؟ ونحن الآن يصنعنا القرآن على طريقة الاكتشافات العلمية، ولكنها لا تغير في حياتنا شيئًا؛ نحن نسمع ونقول: ما شاء الله، الحمد لله، هذا قرآن عظيم، ولكن لا يدفعنا هذا بأن يزيد وِردنا القرآني في كل يوم، لا يدفعنا بأن تنهض إرادتنا لقيام الليل من أجل أن نقف مع القرآن ونتلوه.

نحن لم نصل إلى درجة هذا الصحابي الذي جعله رسول الله ﷺ حارسًا عليه في غزوة من الغزوات فقام يصلي، فلحق أحد الأعراب المشركين بجيش المسلمين، ورأى سوادًا أمامه في الليل قائم؛ فوضع السهم ورماه وهو يصلي، فنزع السهم ورماه وأتمّ صلاته، فالرجل ظن أن السهم لم يصبه فرماه بسهم ثان ثم ثالث حتى مات، وقبل وفاته استيقظ أصحابه و قالوا له: ما الذي دعاك لهذا وهو يرميك؟ قال: كنت في سورة -قيل الكهف- لوددت أن تُقطع عنقي ولا أقطع قراءتها!!

فهذا الذوق مع القرآن لا يصنعه هذا الذي تجدونه اليوم، ولذلك قاعدة العلم أن "علم السلف أجل وأعظم وأشرف من علم الخلف مهما كان" صحيحة. مهما رأيت العلم كثيرًا ومؤثرًا؛ لا يمكن أن يصنع ما صنع قلب السلف بالتعامل مع القرآن.

فالسؤال: ما الذي صنع هذا الصحابي لئن يكون كثيرًا في عبادته ممتثلًا لأوامر الله، متبعًا لما يقوله القرآن، متلذذا به، يسمعه فيطرب له، بل يسمعه **فيسجد**، وهذه سأبينها:

العرب كانت تسجد للعظماء، وبعض الناس يظن أن أعظم ما كانت تسجد له العرب هي الأصنام، وهذا غير صحيح؛ إن أعظم ما كان يسجد له عظيمٌ عربي هو **البيان**، فيقال: هذا كلام يُسجد له. ومن هنا لما سمعوا كلام الله ورأوا عظمته؛ سجدوا له دون أن يشعروا.

ولذلك هذه الدعوة وهذه الجلسات التي نجلس بها هي محاولة لتقوية هذا الذوق، ولا تظنوا أننا قد فقدناه بالكلية، فما دام أنك مسلم، ولم تعش في بيئة الغرب؛ فما زالت ذائقتك حية. وهناك فرق بين أن تموت فيُقال: "ما لجرح بميت إيلام"، فيكون الكلام مقرورا لا قيمة له، وبين أن أوقن بأن هذا الكلام هو لمادة ضعفت لكنها يمكن أن تقوى. هل الميت يمكن أن يعود؟ لا، لكن هذا الذي فيه دوخة أو سكران يعود إلى صحيانه.

فنحن إلى الآن نعرف قيمة الكلمات ونتذوقها حتى لو لم نقف، فهناك فرق بين الوقوف على الشيء وتذوق الشيء، وأضرب على هذا مثالًا –غربيًا–: هل نيوتن هو الوحيد الذي رأى تفاحة تسقط من الشجرة، أم رآها كثير؟ كلهم يعرفون أن التفاح لو سقط من الأعلى يجب أن ينزل إلى الأسفل؛ ولكن الفرق بين العالم وبين غيره هو أن العالم يوقف الحركة أمامه، ويبدأ بتشخصيها، وغيره ربما تقف عنده لحظة ويمشي، تأخذه الدنيا أو يأتيه شيء آخر ويمشي.

ما الفرق بين رجل يقف أمام لوحة جميلة أمامه ويتأملها، يرى كيف أن الفنان قد رسم الشمس هنا ثم الظلال هنا ثم كذا، والآخر يمر عليها ويقول: "جميلة"، ويمشي ولا يدري؟ ففي قضية الجمال والتذوق لا بد بأن تكون عالما بمعنى التذوق من أجل أن تطبقه.

واحد فنان كان له سمة جميلة وخصلة جيدة، فكان يأتي بعد أن يرسم اللوحة فيضعها على رأس الجسر ويختفي وراءها، حتى يسمع ما يقول الناس فيستفيد منه من أجل إصلاح لوحته، ويعرف قيمته من رؤية الناس. فمرَّ رجل يشتغل في تصليح الأجهزة ووقف على اللوحة، والكندرجي عادة ينظر إلى الأحذية، فهو نظر إلى اللوحة وأول ما وقع بصره على حذاء الصورة، ورأى أن الرباط ملخبط، فقال: هذا فنان جاهل؛ رباط الحذاء يجب أن يكون هكذا، فسجلها الفنان، ولما عاد إلى البيت صلح الحذاء بما قاله صاحب الصنعة. ثاني يوم، وضع اللوحة وتخفى وراءها؛ فمر صانع الأحذية ونظر؛ فإذا الحذاء قد رُبط بالطريقة الصحيحة؛ فتطور لديه الأمر ونظر إلى الرأس، فقال: لكن شعراته ليست مرتبة، فنظر إليه الفنان من وراء اللوحة وقال له: خلي بصرك على الحذاء ولا تزيد، يعني شغل الرأس دعه لأهل تخصصه.

إذن؛ لا يمكن لك أن تقف على علم حتى تفهم قوانينه، وقد كان العرب أصحاب سليقة، يتذوقون ويعرفون. ولما وقف الأعشى وحسان أمام الخنساء في أحد الأسواق، فقال حسان: لنا الجفنات الغر، الخنساء قالت له: قصرت في مدح قومك، هي ليس عندها كلام البلاغة الذي تعرفونه الآن، لكن هي تتذوق، فالجفنات كلمة تقليل، قالت له: أنت لما قلت: "لك الجفنات غر"؛ احتقرت قومك، هلا قلت: "الجفان الغر". فهي تفرق بين الجفان والجفنات، وتفرق بين الرحمن والرحيم، وتعرف أن الرحمن أعظم، والجفان أعظم من الجفنات. فهذا ذوق، يعرفونه منذ الولادة ويتغلل في نفوسهم كما تتغلل رمال الصحراء إلى أنوفهم، فتشكل معالم عقولهم وقلوبهم حتى يصبح عندهم الإحساس العظيم بالبيان، والإحساس العظيم بأعظم ما يميز الإنسان عن غير الإنسان.

ومن هنا أنا أقول لكم اقرؤوا (معالم الطريق)، حيث يتكلم سيد -رحمه الله- عن سبب اختصاص الله العرب بالرسالة، مع أن غيرهم (الروم) مملكة منظمة. هل سمعتم عن واحد يسمى جورج زيدان؟ هذا كاتب قصصي، كل قصصه من أجل يبين أن العرب كانوا من سقط الناس والبشر، وأما النصارى من الغساسنة، فكانوا من أعظم البشر. ويضرب على هذا أمثلة أن العرب لا يعرفون البناء، لا يعرفون ترتيب الطرق، ومعرفة المدن وتخطيطاتها، العرب همج لا يعرفون إلا اللبن والخيل وغيرها. وجهِل أن العربي الذي نزل عليه القرآن هو

الإنسان. إذا خوطب خطابًا إنسانيًا؛ فهم. والدليل ما أقوله لكم، الآن في بلاد الغرب لو قلت لرجل: لا تكذب، أو أنت كذاب، هو يقول لك: ما المشكلة، هو لا يحس بهذه الكلمة الإحساس العظيم، وليس على استعداد أن يموت لهذه الكلمة. يعني لو أنك جلست مع أعظم الناس هناك، مع رئيس وزراء في بريطانيا مثلًا، وقلت له: أنت كذاب؛ لا يتفاعل مع هذه الكلمة ولا أدنى تفاعل، فهو يعتقد أن الكذب هو ضرورة من ضروريات الحياة، لكن لو قلت للعربي أنه كذاب، وكان عربيًا أصيلًا؛ يموت من أجل هذه الكلمة، بخلاف طبعًا الذين لحقوا بالمشركين في أخلاقهم وسلوكهم. فهذه الكلمة لها وقع، والكلام على نفسك أيها العربي له وقع، وما زال العربي يموت من أجل الكلمة.

هم يتعجبون كيف يصعد الإمام على المنبر ويخطب فيهم خطبة وبعد ذلك الناس يتفاعلون ويخرجون ما في جيوبهم، كيف نشأ هذا؟ من تذوقه، لأنه ما زال للكلمة أثرها في داخل نفسه. الآخر لو خطبت عليه، كأنك تضرب على لوحة مفاتيح معطلة، ليس لها اتصال مع عقله ولا مع قلبه.

إذًا لا يمكن أن تنشأ عبودية حقيقية بأخذك بهذا الكتاب متفاعلًا مع أحكامه ومع ما فيه، إلا بأن تدخل من الباب، هذا الباب هو أن تعيد ما أصاب هذا العقل من موت في التذوق، لا يمكن. فيجب إذن أن يكون عند المصلحين همة، وإرادة، وطريقة، من أجل إعادة إحياء تذوق الكلام الذي لو ضرب على كلمة فيه؛ صنعت المعجزات.

عندما يقول: "قال الله تعالى"، هذه كلمة عظيمة، كلمة "الله" اسم الجلالة، واسم جامع لكل خصاله -جل في علاه- الحسنى، هذه كلمة يجب عليك أن تفتح لها الطريق لتتذوقها تذوقًا عظيمًا، حيث أنها إذا وقعت على ذهنك تصنع إرادة تستجيب لما يقوله هذا الإله، هذه نقطة.

ومنطلق هذا هو أن تدرك كيف وما هي الوسائل التي كان بها هذا القرآن معجزًا، لا بد من هذا.

وهذه قضية كما ترون خفية عن الدعاة والوعاظ وغيرهم، هم يطوفون حولها بوسائل أخرى، ويريدون أن يعيدوا الناس إلى الدين، ويخاطبونهم، وتجد بعض المشايخ يرفع صوته، ويريد ما يسمى بالقراءة التفسيرية، والقراءة

الإشارية. يريد أن يرفع صوته ويبكي، ويتصنع البكاء ليؤثر على الآخرين. وكل هذه ما هي إلا هوامش من أجل صناعة التأثير.

أما السبيل القوي لصناعة التأثير في قلب السامع هو أن يكون السامع متذوقًا للكلام وعالما به، عارفًا من الذي يتحدث. عندما يأتي شيخ ويتكلم بالخزعبلات والأساطير ويخرج الناس يقولون: ما شاء الله على الشيخ، فهذا يدل على أنهم لا يعرفون ولا يفرقون بين ما يُقال فيه العلم، وما لا يُقال فيه العلم.

عندما يأتي واحد يقرأ كلام الله ولا يُحْدث فيه أثرًا إلا كما يحدث الحبل الذي فيه بعض الكهرباء، بخلاف ما أن يأتي هذا القرآن فيهز صاحبه ويقول كما قال أبو بكر -رضي الله تعالى عنه-: هذا لا يخرج من إلّ.

ما هو منطلق هذه القضية؟ كيف تلج هذه النقطة التي بين يدينا؟ هي ما سنتحدث عنها في الدرس القادم -إن شاء الله -عزَّ وجلَّ- ونفتتح بها.

وأنا لا أحب المقدمات الطويلة للمواضيع، لأن موضوعنا هو تفسير سورة الأنعام، لكنها قضية مهمة من أجل أن نعرف لماذا نريد قراءة هذه السورة. نحن نريد قراءتها من أجل أن نعيد إحياء ذائقة البيان. يعني أننا نريد أن نحيي إنسانيتك، لأن ذائقة البيان إن اهتممْتَ بها؛ صرت سامعًا ملقيًا لذهنك، وما مللت كتاب الله ولا أعرضت عنه، ولا استمعت له وأنت لاعب أو لاهي، ولا وقع على قلبك آيات مواعظه وهي لا تؤثر فيك! بل يصبح الطريق بينك وبين هذا القرآن سالك مطروق.

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يتقبل مني ومنكم، وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وقائدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين. أما بعد؛

تتمة المقدمة

أيها الإخوة الأحبة، كنا البارحة قد تكلمنا على ضرورة تذوق البيان عن طريق القرآن من أجل إعادة وبناء حقيقة الإنسان المؤمن، الذي يتعامل مع القرآن تعاملًا حقيقيًا صحيحًا. وقلنا البارحة بأن الطريق الوحيد لإعادة تفعيل القرآن في القلوب وفي حياة الأمة هو أن نعيد تذوقه، بشرط أن نتذوقه التذوق الذي عاشه الصحابة أو قريبا منه.

ونحن في هذا الزمان يكفينا في كل الأبواب أن نكون على مقدار عشر الصحابة، سواءً في أبواب العمل، أو وفي أبواب العلم؛ فإننا لو أتينا بعُشر ما أتى به الصحابة من العمل ومن إرادات القلوب ومن العلم فإنه يكفينا وينجينا ويحصل لنا ما حصله الصحابة من النجاة في الآخرة ومن الفوز في الدنيا.

فلن نستطيع أن نعيد الجيل الأول لأنه جيل طبيعي، ونحن حين نتدرب ونتعلم فإنما هي صناعة، والفطرة ولا شك حين تكون علمًا؛ تكون أجلَّ وأعظم من الصناعة. والإنسان صناعة كما قال الله -عزَّ وجلَّ- عن موسى -عليه السلام-: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}؛ فالإنسان صناعة، فأبواه يهودانه: يصنعانه، يغيرانه، ولذلك لا بد أولًا من وجود الفطرة ونحن قد فقدناها، فهذه الفطرة طُمست وغُيرت وبُدلت.

ونحن ندعو إلى إعادة إحياء أعمال الإيمان من خلال القرآن؛ لأن القرآن ليس كما يقول البعض -حتى بعض الملتحين والمشايخ أو من يُسمون بالمفكرين- بأنه كتاب عمومات، هذا من أضلِّ الأقوال التي سرت في هذه الأمة حتى زهدتهم في

الاستنباط والنظر في القرآن. فقالوا: "هذا كتاب عمومات، ولك بعد ذلك أن تملأها؛ إما أن تملأها بالسنة، أو أن تملأها بالفكر وتملأها بالتجارب". وهذا باطل وغير صحيح.

نعم؛ القرآن ليس كتاب جغرافيا وليس كتاب فيزياء؛ لكن القرآن كتاب القيَم، وكتاب حركة الأنبياء من أجل تحقيق النصر والفصل بينهم وبين أعدائهم، والقرآن فيه الكفاية التامة في هذا الباب. ولو أردنا الهداية، وأردنا النجاح، وأردنا العزة والسؤدد، وأردنا تغيير هذا الواقع من قيمه الجاهلية إلى قيم إيمانية صحيحة؛ فلا بد أن نعود إلى القرآن، ومن غير عودة إليه لا يمكن أن تحيا الأمة ولا يمكن أن تعود. **وطريقة إحياء القرآن هو أن نتذوقه.**

والقرآن كلام عرب، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ **حُكْمًا** عَرَبِيًّا}، قال الله عن القرآن أنه: {قرآنا عربيًّا}؛ ولكن في هذه الآية من سورة الرعد كان الحديث أبعدَ في أن جعله {**حكمًا** عربيًّا}، وكأنَّ القرآن ليس فقط كلامًا يماثل لغة العرب في خطابهم؛ لكنه كذلك يمازج مزاج العرب في سلوكهم، فجعله **حكمًا** عربيًا.

ولذلك الإمام الشافعي -رحمه الله- جعل معيار الخبث حين يغيب النص هو العربي. وهذا ليس من قبيل العنصرية؛ ولكن لأن هذا المجتمع العربي مجتمع بقيت فيه الكثير من آثار النبوة -المقصود ليس عرب اليوم، بل أمة العرب الذين نزل عليهم القرآن-، وبحمد الله ما زال العرب هم أعدل الناس أمزجةً، وهذا ليس من العنصرية، هذا من قبيل بيان أثر القرآن على هذه الأمة، وأثر النبوة عليها.

من الذي نشر الكرم في أمة العرب؟ الذي نشر الكرم في العرب هم الأنبياء، هو إبراهيم -إمام الكرماء- وابنه إسماعيل -عليه السلام-، وكذلك الصدق في الكلام والشجاعة، من أول من زيل الخيل؟ هو إسماعيل -عليه السلام-، بمعنى أنه دجنها. من أول من فُتق لسانه بهذه اللغة الشريفة الجليلة التي هي اللغة التي استوعبت إعجاز القرآن؟ هو إسماعيل -عليه السلام-.

وقد قال ابن خلدون -رحمه الله- بأن السبب في عدم وجود الإعجاز في غير القرآن هو أن اللغة التي نزلت بها الكتب السماوية الأخرى لا تستوعب الإعجاز، فالتوراة ليس فيها إعجاز، والإنجيل ليس فيه إعجاز، وصحف إبراهيم وموسى ليس فيها إعجاز، فلمّا كملت لغة العرب كمالًا عظيمًا شريفًا جليلًا؛ صارت آلةً تستوعب إعجاز القرآن.

فهذه الأمة لا يمكن أن تعود إلا بأن تعود إلى القرآن، ولا يمكن أن تعود إلى القرآن حتى يعود إليها تذوق هذا البيان العظيم.

كيف أدرك العربي أن القرآن كلام الله؟

وقد وعدت البارحة –وإن كان ليس هذا في إطار الموضوع– أن أوضح كيف أدرك العربي أن هذا القرآن هو كلام من الإله، وتكلمت البارحة عما يُسمى بالإعجاز العلمي مرورًا عليه، وقلنا أنه ليس إعجازًا.

نعم؛ هو من الآيات الدالة على أن القرآن من عند الله، ولكن هذا الإعجاز العلمي ليس إعجازًا، فالإعجاز هو الذي به تمَّ تمام البيان والبلاغة الذي تحدث به القرآن، وهذا هو الباب الذي لما لامس أسماع وقلوب العرب؛ أخرجهم من الجاهلية، من قوم لا قيمة لهم ولا شأن لهم في الحياة إلى أن يحكموا العالم، تنطلق إرادتهم على الخيول وعلى الجمال قاصدين بأن يبلغوا أقاصي الأرض وأن يحكموها، وأن يكسروا ويهمزوا الإمبراطوريات والدول! من الذي فعَّل هذه الإرادة العظيمة في قلوب هؤلاء البسطاء؟ إنه القرآن.

وأنا أفتتح بهذا لأنه جزء مهم في قراءتنا لسورة الأنعام، ونحن سنركض كثيرًا وسنلهث وسنتعب في محاولة إدراك **بعض** ما أدركه العرب حين سجدوا لهذا القرآن ولهذا الكلام العظيم الجليل.

العرب لهم موازين، فكيف أدرك العربي جلالة هذا القرآن وأنه لا يمكن أن يخرج من إنسان؟

أدركوا هذا من خلال نقطتين:

الأولى:

هي التي تكلمنا عنها: من خلال شعرهم وحكمتهم، ومن قواعد الشعر العظيم لد أنهى العرب أنه لا يُسمى الرجل شاعرًا حتى يكون حكيمًا، فإذا نطق بالحكمة عُدَّ شاعرًا، ثم يُنظر بعد ذلك إلى صياغة كلماته، وكيف هو يركب المعاني من خلال هذه الألفاظ المنثورة عندهم.

وللذكر أيها الإخوة الأحبة؛ نحن في حياتنا اليوم لا نستخدم من كتاب (لسان العرب) إلا عُشر ما فيه من جذور لكلمات، والعرب من أقصاهم إلى أقصاهم لا يستخدمون إلا عشر ما في (لسان العرب) من كلمات، وإلا فبقية الكلمات مهجورة. وأما عن (لسان العرب) فيقول أبو عمر بن العلاء: "نحن لم يصلنا من لغة العرب إلا القليل"! فتصور ما كانت عليه لغتهم من امتدادها.

وذكرنا البارحة قول الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: **"كلما اتسع ذهن المرء؛ اتسعت عبارته"**. لأن الكلمة تعبير عن حقيقة؛ إما حقيقة مادية مثل: مسجد، حائط، إنسان، وهكذا، وإما حقيقة معنوية: الصدق، الأمانة، الشجاعة، الوعي، الفكر، فكلما اتسع ذهن المرء؛ احتاج إلى عبارات أكثر من أجل أن يعبر عما يجول في ذهنه، ولذلك أوسع الناس ذهنًا في الأمم السابقة هم العرب.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله- في (الرسالة): "لا يحيط بلغة العرب إلا نبي، كما أنه لا يحيط بأحاديث رسول الله ﷺ إلا نبي"، أي: كما أن الحديث -جميع الحديث- لا يحيط به إلا نبي؛ فكذلك لا يحيط باللغة العربية وبجميع ما فيها إلا عربي.

فما هو الذي في نفس العربي السائر في الصحراء، المتأمل لهذا الوجود، الذي ينطق لسانه بالحكمة، ويتغني بها في فلواته وفي صيده وفي قيامه وفي قعوده وعلى فراشه؟ **كيف فهم أن هذا القرآن من عند الله؟**

العربي قد بلغ الذروة بالنسبة إلى هذه اللغة، لكنه كان يشعر بالنقص، كأن هناك ثمة ضوء بعيد مع هذه اللغة يركض إليها من خلال شعره: هو يركض، ويقول شعرًا عظيمًا ويتغنى به ولكنه مع ذلك يشعر أن هذا الكلام لم يبلغ ما يريد من تصوره وتخيله لكمال البيان الذي يطمع إليه، وهذا شيء يعرفه الصناع.

لو سألت صانعًا ما وقلت له: ما الذي تتخيله؟ يقول لك: في ذهني شيء إلى الآن لم أترجمه إلى واقع. فهو يعيش في خيال، وفي لحظة تأمل لبلوغ الكمال فيما هي صناعته.

والعربي صناعته الكلام، وهو منفذ القوة بالنسبة إليه في فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ-، فكان العربي يحاول جاهدًا مع هذه اللغة الكاملة الشريفة الجليلة أن يصيغ كلامًا عظيمًا حكيمًا تامًا بليغًا جليلًا يصل إلى مرتبة ما أحدث في ذهنه من كمال مع هذه اللغة، لكنه يضعف.

وأنا أضرب دائمًا مثالًا في هذا: العرب تقول إن أشعر العرب هو امرؤ القيس، وفي مطلع معلقته يقف النقاد ويطربون لشطر البيت الأول الذي يُسمى الصدر، يقول: **"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"**، فهم رأوا أن هذه الكلمات القليلة قد أرادت أن تعبر عن شيء عظيم، وهو تذكر وذكَّر وبكى واستبكى ووقف وأوقف في هذه الجملة الصغيرة، فهم طربوا لها، لكنهم بعد

ذلك أرادوا أن يروا هذا الكمال في الشطر الثاني فوجدوه كلامًا مغسولًا، ما معنى كلامًا مغسولًا؟ يقول العرب هذا كلام مغسول، يعني غسلناه فلم يبقَ فيه أي لون يُطرب له ولا يهتز له. فهو قال:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ

فبعد جلال الكلام الأول سقط وذكر أسماء قرى وأسماء أماكن!

فهم يشعرون بالضعف ويعجزون أن يبلغ كلامهم مبلغ ما يتصورونه من جلال الكلام، فلما جاء القرآن؛ التقطوه، ورأوا أنه يمثل لديهم ما تصوروه من جلال الكلام الذي لا يبلغ بعده جلال، ويبلغ من الكمال ما لا يبلغه كمال؛ فعلموا أنه لا يمكن أن ينطق به رجل، لماذا؟

للنقطة الثانية:

العرب الذين رأوا في القرآن مبلغًا لا يعرفونه من كلام حكمائهم ولا كلام بلغائهم، ولا كلام متكلميهم وخطبائهم؛ يعلمون أن الكلام يعبر عن نفس متكلمه، فإذا كان المتكلم شجاعًا؛ عبر الكلام عن شجاعة متكلمه، وإذا كان الرجل حكيمًا؛ تكلم عن حكمة، فدلالة حكمة الرجل عندهم هو كونه يقول كلامًا حكيمًا ويبين عما في نفسه، ودلالة شجاعة الرجل هو إبانته عن شجاعته.

فهم يعرفون أن الكلام يعبر عن نفس صاحبه، ولما نظروا إلى القرآن فوجدوا أنه لا يعبر عن نفس بشرية قط. حين يقول الله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، هذا الكلام لا يمكن أن يعبر عن نفس بشرية؛ لأن النفس البشرية فيها الضعف، وهذا كلام فيه الكمال، ولا يمكن أن يكون في الإنسان الكمال.

فهم نظروا إلى جمال اللغة وعظمتها ثم نظروا إلى نفس المتكلم وعظمتها؛ فالتقى -كما يقول العرب- البطانان، وهما جمال اللغة في جلال عظمتها ونهاية كمالها مع جلال المتكلم في كماله أنه ليس فيه النقص وليس فيه الضعف، وليس فيه الحاجة، بل هو عندما يتكلم عن نفسه -جل في علاه- يعبر عن رحمة عظيمة، ويعبر عن هذه الرحمة ليس بضعف ولكنه يعبر عنها مع كبرياء، ومع هذه الكبرياء يعبر كذلك عن الرحمة.

هذه النقطة في الجمع بين الكمال في أنه عزيز، ومع العزة كمال الحكمة بها أدركوا أن القرآن هو كلام الله؛ فالناس يكون منهم العزيز الملك ويكون غبيًا وليس حكيمًا، وربما يكون الحكيم ولا يملك سيفًا ولا مالًا. ولكن هذا غني، عزيز، حكيم، عالم، وله نفس عظيمة عبرت عن إله عظيم؛ فعلموا أن هذا الكلام لا يمكن أن يخرج من إنسان، لأنه لو خرج من إنسان لظهر فيه الضعف إما من جهة البيان، وإما من جهة التعبير عن نفس متكلمه أنها ضعيفة.

هذا الذي شرحته لكم هو خلاصة ما جرى عليه العلماء الكبار في تفسير ما يُسمى بالإعجاز القرآني، منذ أن تكلم الإمام الباقلاني، وهذه أسماء عظيمة، ولو كنا أمة تحترم ثقافتها وتحترم تاريخها؛ لكان أمثال هؤلاء العلماء نعرفهم أكثر مما نعرف آبائنا، فهؤلاء علماء عظام، أورثوا لنا هذا العلم وكشفوه، وأرادوا أن يبينوا لنا قبسًا من نور هذا الكتاب العظيم فتحدثوا.

وباب الإعجاز هو باب الهداية، باب الإعجاز هو باب الفقيه، ولا يمكن للفقيه أن يأخذ من القرآن حتى يكون عالما بهذه الأبواب، ولا يمكن للخطيب أن يُفعِّل القرآن في أذهان سامعيه حتى يكون عالما بهذه اللغة الشريفة وبمصادر جمالها، وبكيفية صياغة الجملة الجميلة الجليلة العظيمة.

ونحن نحاول أن نقف وقوفًا يسيرًا على بعض ما قاله الأولون، وقد نأتي إليه من جهة أخرى وإلا فهي صورة مكرورة قد عرضها الأوائل، ونحن نتكلم فقط عما قالوه.

وأعرف ما يتكلم به الناس اليوم، يقولون: "نريد اجتهادًا جديدًا للأمة"، "القدماء لا يستوعبون حاضرنا"، ومثل هذه الكلمات يقولها من لا يقرأ كلام الأوائل ولا يعرفه، ويريد أن يمسك كلامهم وتراثهم وما ورثوه لنا ويغلق عليه من أجل أن يسرح ويمرح فيما يقول من غير ضابط.

فنحن من خلال ما نقول في هذه السورة؛ نحاول أن نصل إلى ما وصل إليه الأوائل، وقد اعترفوا أنهم يحاولون فهم ما يقولون على جهة **الصناعة**. وأما الصحابة فقد فهموا هذا على جهة **الفطرة والتذوق والنشور**، وقد تنفسوا اللغة كما يتنفس المرء منا المزاج من أبيه وأمه ويعرف حس الغضب من وجه أبيه إذا رآه على صورة يكرهها، وإذا رأى انبساط وجهه يعرف أنه فرح بمثل هذا العمل. فهذه اللغة (لغة البدن) التي يرثها أبناؤنا منا؛ ورثها العرب من آبائهم وفي بيئاتهم وفي حياتهم، فكانوا يحسون بها، ويطربون لها طرب الفطرة العظيمة. وأقول "الفطرة **العلمية**"، لأن الفطرة قد تكون علمية وقد تكون على أصل الخلقة كما قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}، ليس فيها علم.

وأنا -كما قلت لإخواني البارحة- لا أحب المقدمات الطويلة، وذكرت لماذا اخترت هذه السورة؛ لأن فيها قواعد الشخصية التي أنشأها القرآن المكي، فخلاصة ما ورد في السور المكية تجمعها هذه السورة.

بداية التفسير

نقول وبالله التوفيق، يقول الله -سبحانه وتعالى-: {بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيم الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}.

سورة الأنعام سُميت بهذا الاسم لكثرة ما ذُكر فيها من الأنعام. والأنعام أُخذت من النِّعَم، والنعم هو كل نعمة يزجيها ربنا -سبحانه وتعالى- على عبيده، ولكنها على صفة الاختصاص والاصطلاح؛ فالأنعام هي أجلُّ ما يقتني العرب، وهي الجمال والنوق وما معناها من أبنائها، فسُميت هذه السورة بهذا الاسم، لأنه قد ذُكرت الأنعام فيها.

واختلف أهل العلم **هل تسمية السور توقيفي أم أنه اجتهادي**. بمعنى هل أخبر الرسول ﷺ الصحابة اسم كل سورة فلم يبقَ لهم أي اجتهاد؛ أم أن الصحابة اجتهدوا في هذه التسمية؟ لا نريد أن ندخل في هذا الخلاف، لكن مما لا شك فيه ومقطوع به أن بعض السور قد سماها رسول الله ﷺ، وهذا يكفي، بعض أهل العلم يرى أنها اجتهادية ولهم أدلتهم، وبعضهم يرى أنها وضعية اصطلاحية ولهم أدلتهم، ولكن المجزوم به أن بعض السور قد سماها رسول الله ﷺ كالبقرة وآل عمران والفاتحة وبعض السور الأخرى.

هذه السور أيها الإخوة الأحبة، هي من السور التي افتتحها الله -عزَّ وجلَّ- بالحمد، ولا أريد أن أذكر الكلام عن {بسم الله} فإن محل شرحها في بداية القرآن مع سورة الفاتحة، ومع اختلاف أهل العلم في "بسم الله الرحمن الرحيم" هل هي للبركة، أم أنها آية من السورة، وهناك قول ثالث عليه بعض المحققين وهو اختيار شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله-، أن "بسم الله الرحمن الرحيم" هي من كلام الله، أي كانت تنزل من السماء آية، لكنها ليست من السورة، محاولةً لتوفيق بين الأحاديث المتعارضة في هذا الباب.

نقول وبالله التوفيق بأن هذه السورة هي إحدى السور التي افتُتحت بحمد لله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وعدد السور التي افتُتحت بحمد الله خمس سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

فهذه السور افتُتحت بالحمد لربنا -سبحانه وتعالى-، وهي شاملة لنعمتين في الوجود، وهما كمال النعم:

أما **النعمة الأولى** فهي نعمة **الخلق والإيجاد**، كما في هذه السورة: {الحمد لله الذي خلق}، وكذلك في: {الحمد لله رب العالمين}، فالرب هو الخالق، وأجلُّ حمد هو الذي في سورة الفاتحة، وهو شامل لكل محامد القرآن، وهذا سنبينه.

وأما الحمد الثاني بعد حمد الخلق والإيجاد فهو حمد **الهداية للخلق**، وهذا كما في سورة الكهف: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ}، فذاك حمدٌ لخلقه، وهذا حمدٌ لهدايته.

والوجود كله قائم على هذا: إما مخلوق، وإما خالق: {لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}؛ فالله له الخلق (جميع الخلق)، فهو محمود لما خلق، وهو -سبحانه وتعالى- محمود لما هدى (الأمر): {الذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}، وإن كانت هنا {هَدَى} بمعنى الهداية القدرية، يعني أن الله خلق الإنسان على هيئة التزاوج فهداه لهذا الفعل، وليس المقصود به الهداية النازلة في الكتاب والنازلة على ألسنة الرسل.

{الحمد لله}:

هذه الكلمة أيها الإخوة الأحبة؛ الحديث يثبت أنها أفضل الدعاء، والناس يعجبون، يثنون على الله -سبحانه وتعالى- وينسون أن هذا الحمد وهذا الثناء على الله هو دعاء لربنا -سبحانه وتعالى-.

كيف يكون الثناء على الله -عزَّ وجلَّ-، وكيف يكون الحمد لربنا -سبحانه وتعالى- عبادةً بها يتحصل المرء العطاء؟ ففي الحديث: (والحمد لله خير الدعاء)، فالدعاء هو الحمد لله، كيف؟

هذا يعيدنا إلى كلام العرب، هل العرب يعتقدون أن الثناء سؤال؟ نحن علينا أن نفهم القرآن على ما فهمه العرب في لغتهم. يقول الشاعر أمية بن أبي الصلت -ونُسبت لغيره-، يقولها لملك أو لعظيم أو لغني، وهو عبد الله بن جدعان التيمي وهو عم أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-. يقول له:

أَأَذكُرُ حاجَتي أَم قَد كَفاني ** حَياؤُكَ إِنَّ شيمَتَكَ الحَياءُ

إِذا أَثْنى عَلَيكَ المَرءُ يَومًا كَفاهُ مِن تَعَرُّضِهِ الثَناءُ

هذا الكلام يفسر كيف أنك إذا حمدت الله فقد دعوته وطلبت منه وسألته؛ فالشاعر وقف على رأس الممدوح وأثنى عليه، وذكر من خصاله التي فيها المحامد لهذا الممدوح، بعد ذلك قال: "أأذكر حاجتي"، أي: هل الآن أذكر الحاجة أم أتوقف، "أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك، إن شيمتك الحياء".

لماذا قال هذا؟ الجواب هنا:

"إذا أثنى عليك المرء يومًا **كفاه من تعرضه الثناء**"؛ فإن الثناء **كافٍ** بأن يقضي المسؤول والمحمود حاجة الواقف بين يديه، وكافٍ بألا يسأل المحتاج حاجته إلى الممدوح.

فما معنى الحمد؟

قال ﷺ: (والحمد لله تملأ الميزان)[٣]، لماذا تملأ الميزان؟ لأن الميزان له كفتان كما تعلمون، كفة فيها العطاء، والذي يجازي العطاء هو الشكر، وإن كنا سنبين أن الحمد أجلُّ من الشكر في باب.

فإذًا هناك كفتان: كفة العطاء الإلهي لك والمنن الإلهية التي تُزجى إليك فلا بد أن تُملأ، والذي يملأ الكفة الثانية هو الحمد، ولذلك قال: (الحمد لله تملأ الميزان)، وهي كافية عند ربنا بألا يسألك يوم القيامة عما قاله عنهم: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}.

الحمد والشكر والمدح

فما معنى كلمة "الحمد" وما الفرق بينها وبين كلمة "الشكر"، وما الفرق بين "الحمد"، وبين "الشكر" وبين "المدح"؟

---

[٣] صحيح مسلم: (٢٢٣).

بعض العرب يقول أن هناك تكرار، وأن الحمد هو الشكر والشكر هو المدح، ويمكن أن تضع كل كلمة مقابل الأخرى وبدل الأخرى؛ ولكن المحققين وأهل البلاغة والذوق يرفضون هذا، ويقولون أنه صنيع لا ينبغي أن يقبل عليه أحد، فإن العرب تفرق بين الأشياء حتى لو ظهر أنها مترادفة. لكن هناك فرق يسميه العلماء: **"العموم والخصوص"**، بمعنى أن الكلمتين قد تشتركان في شيء، ولكن لكل واحدة معنى مختلف عن الأخرى.

عليك أن تشبه بدائرتين قد امتزجتا في بعضهما البعض، فهناك كمية كافية مشتركة بين الدائرتين، وهناك مساحة تشمل كل واحدة على حدة وتختص بها.

فما هو الحمد وما هو الشكر وما هو المدح عندهم؟ الأصوب اعتبار أن بينهم عموم وخصوص.

ولذلك يرى بعض أهل العلم أنه لا يوجد **تكرار** في القرآن -والتكرار أن تعيد الكلمة نفسها مرة أخرى-، لأن هذا ليس من كلام البلغاء، لا بد للبليغ حين يتكلم أن يؤسس معنًى جديدًا.

وأنا لم أقرر في هذه الدروس أن أبدأ بمقدمات التفسير، لأننا في الحقيقة سنأخذ مقدمات التفسير من خلال التفسير.

يقول العلماء: **"التأسيس خير من التأكيد".**

ما هو الأفضل حين تقرأ الكلام وتظن أنه متشابه؛ أن يكون مكررًا أو أن يكون ذا معنًى آخر؟

الجواب: أن يكون هناك معنى آخر، فإذا وجد المعنى الآخر؛ دلَّ على أن الرجل يتفنن في الكلام وفي إظهار المعاني؛ ولذلك قالوا: تأسيس المعاني -بمعنى أن يظهر معاني جديدة- خير من تأكيدها. ومن هنا لا يجوز لك أن تقول أن "الرحمن" هو "الرحيم" وأنها ذكرت للتأكيد، لا ينبغي هذا؛ فإن الرحمن فيها من الخصال والصفات ما لا توجد في الرحيم، فلا بد أن تفهمها.

معنى "الحمد":

ومن هنا فكلمة "الحمد" عند العلماء تعني: "**الثناء الحسن على الجميل الاختياري**". والتعريف دائمًا يريد أن يبين لك خصائص ما يعرف به ويخرجه عن غيره حتى يتميز في الذهن.

ما معنى "**الجميل الاختياري**"؟

العلماء يقولون الجمال يكون على قسمين: جمال يتعدى إلى الآخر، وجمال لا يتعدى إلى الآخر.

لو قلتَ عن رجل أنه جميل؛ فجماله لا يتعدى إليك، لكن لو قلت عنه أنه كريم؛ فإن كرمه يتعدى إليك. فهناك صفات يُثنى فيها على المرء لا تتعدى إلى الآخرين، وهناك صفات في الممدوح والمثنى عليه تتعدى إلى الآخرين، و**الجميل الاختياري** هو الذي لا يكون فيه تعدٍّ للآخرين.

فالله -عزَّ وجلَّ- أعظم الحمد له أن تثني عليه لا بسبب إنعامه عليك؛ ولكن بسبب جماله الخاص به.

ما هو أعظم الثناء على الله؟

يجوز لك أن تقول الحمد لله أن رزقتني الولد، هذا جيد، يجوز لك أن تقول الحمد لله الذي أعطاني المال، هذا جيد؛ فهو ثناء على جميل متعدٍّ، أي ثناء على الله بجميل تعدى إليك، ولكن أعظم من هذا كله:

"الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه"، ما الذي تعدى عليك في جمال وجلال وجهه؟ لا شيء، فأنت تحمد الله -عزَّ وجلَّ- لخصال فيه، هذه الخصال هي خصال الجمال والكمال، وهي التي عندنا نسميها بالأسماء الحسنى؛ فهي لا تتعدى، وهناك صفات تتعدى.

فأعظم الحمد لربنا أن تثني عليه قبل أن تبلغك نعمه، وقد قلنا البارحة بأن **غنى الله ذاتي**، ما معنى غنى الله ذاتي؟

فأي إنسان غني إنما هو كذلك لأنه جاءه ما قضى حاجته، فهو في النهاية محتاج، وقُضيت حاجته بغيره (بالمال).

لكن الله -عزَّ وجلَّ-؛ هل هو غني لأنه خلق الخلق فصار عنده ملك، فلما صار عنده الملك صار غنيًّا، أم أن ربنا -سبحانه وتعالى- هو الغني قبل أن يخلق الخلق؟ هو غني قبل أن يخلق الخلق؛ **فإذًا هو مستحق الحمد قبل خلق خلقه**، لما فيه من صفات الجلال، ولما فيه من صفات الجمال، وهو الذي سماه العلماء ب"الجميل الاختياري"، أي الذي لا يتعدى إلى غيره.

الفرق بين الحمد والشكر:

وجدنا أن الله -عزَّ وجلَّ- قد يُحمَد باللسان وبالقلب: أن تثني على الله بلسانك، وتثني على الله بقلبك؛ لكن لا يمكن أن تثني على الله -عزَّ وجلَّ- بيدك، ولا بعطائك، هذا ليس ثناءً يدخل في باب الحمد، ولكنه-جل في علاه- قال عن الشكر: {**اعْمَلُوا** آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}، فسمى الشكر عملًا، وهذا لا يكون في الحمد.

فالشكر أوسع آلةً: يكون الشكر باللسان، ويكون الشكر بالقلب، ويكون الشكر بالعمل، لكن الشكر لا يكون إلا على الجميل المتعدي، ولا يمكن أن تشكره على ما لا ينفعك، كأن تقول: أشكرك لأنك جميل، لكن تحمده لأنه قوي، تحمده لأنه تام كامل وفيه الصفات الحسنى.

ولذلك قالوا **الحمد أوسع مقتضى**، بمعنى أن الذي أوجب الحمد أوسع. ما الذي أوجب الحمد؟ أوجبته صفات الجمال والجلال، وصفات الكرم والعطاء، بخلاف الشكر، فإن الشكر لا يكون إلا على ما أنعم عليك، لكن الشكر أوسع آلة فالحمد لا يكون بالعمل.

لذلك قالوا: **الشكر أوسع آلة وأضيق مقتضى، والحمد أوسع مقتضى وأضيق آلة**.

فهذا الفرق دقيق، ويمكن للعبد أن يستخدم الشكر مكان الحمد؛ ولكن البلغاء لا يقبلون هذا، ويضعون الحمد في موطنه، ويضعون الشكر في موطنه.

لهذا فالأعظم بالنسبة لربنا وما يفرحه هو أن تحمده؛ لذلك لا يوجد كلمة في ديننا وفي سنة رسولنا أعظم من كلمة الحمد حتى أنها نافست عند أهل العلم كلمة التوحيد!

أبو عمر بن عبد البر أنشأ مناظرة: ما الأفضل أن تقول؛ الحمد لله أم تقول لا إله إلا الله، مع أن كلمة "لا إله إلا الله" لا يمكن لأحد أن يدخل الجنة إلا بها، ومع ذلك فجلال كلمة "الحمد" في نظر العالم قد بهره نورها حتى صارت منافسة لكلمة التوحيد، فهذه الكلمة العظيمة استغرقت الوجود كله، هذه الكلمة العظيمة كما أنها ملأت الميزان فهي استغرقت الوجود كله: افتتح الله -عزَّ وجلَّ- الوجود بالحمد، ومضى هذا الوجود بالحمد، وخاتمته بالحمد.

فالله قال الحمد لله في الأولى والآخرة في سورة سبأ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي **الْآخِرَةِ** وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، قوله فيها: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ}، وقوله في سورة القصص: {لَهُ الْحَمْدُ فِي **الْأُولَى وَالْآخِرَةِ**}، {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ويُفتتح الحمد ليشمل الوجود في سورة الفاتحة:

انظروا إلى قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فهو محمود لأنه ربهم، والرب هو الموجد الخالق وهو الرازق الذي منه الإمداد والعطاء، ولا استمرار إلا بمدد وعطاء منه فهو ربنا، وهو المحيي وهو المميت، فهو رب العالمين، فحُمد لأنه رب العالمين، وحُمد -جل في علاه- بـ{الحمد لله رب العالمين} لماذا؟ حُمد لأنه {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}.

فإذًا الحمد يشمل كل شيء، وما من شيء في الوجود إلا وهو دال على عظمة الله التي توجب الحمد، ثم إن عاقبة كل شيء ومصير كل شيء إليه؛ فهو مستحق الحمد لأن كل شيء يعود إليه -جل في علاه-: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

لذلك قالوا أن هذا الحمد الذي في سورة الفاتحة يستغرق المحامد كلها، فلو قال قائل أين ما قاله الله -عزَّ وجلَّ-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}، أين هي في سورة الفاتحة؟ لأنه {الرحمن الرحيم}، وأنزل على عبده الكتاب ليميز بين المسلم والكافر، كي تكون عاقبة المؤمن في الجنة، وتكون عاقبة الكافر في النار، فهو {مالك يوم الدين}.

لذلك ما من حمد في القرآن إلا وهو مستوعب في الحمد داخل الفاتحة، والله -عزَّ وجلَّ- حمد نفسه في السموات والأرض، حمد نفسه لأنه أنزل الكتاب، حمد نفسه -جل في علاه- لأنه أعطى، وحمد نفسه في هذه السورة -سورة الأنعام- في الآية خمسين: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ}، هذه هي نتيجة الخصام ونتيجة الفصل بين المؤمن والكافر في الدنيا، أن قضى الله بينهم بأن نصر المؤمن على الكافر، وبهذا استحق الحمد {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

بيّنا الفرق بين الحمد والشكر، وقلنا أن الحمد أوسع مقتضى وأضيق آلة، والشكر أوسع آلة وأضيق مقتضى؛ **فما هو المدح؟**

الفرق بين الشكر والحمد والمدح يقوم على عمادتين:

العمادة الأولى: أن المدح يقوم على الظن، فيمكن أن يمدح المرء شيئًا لا يستحقه؛ ولذلك قالوا أن المدح يقوم على الظن.

والشيء الثاني أن المدح يكون لما لا إرادة له. فلا يصح أن أقول: أنا حمدت الجوهرة، ونقول: أنا مدحت الجوهرة، وهو مدح المسجد.

فالمدح يكون جائزًا فيما يقوم على الظن، ويكون جائزًا فيما لا إرادة له، ونحن ما زلنا مع {الحمد لله رب العالمين}، وبهذا أختم، بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وسيدنا وقائدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين.

ما زلنا أيها الإخوة الأحبة مع مطلع السورة في قوله -جل في علاه-: {**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**}.

وقلنا بأن هذه السورة هي إحدى خمس سور فقط افتُتحت بالحمد لربنا. وقلنا بأن الحمد في مطالع السور اشتمل على أمرين: أولًا على الخلق والإيجاد، واشتمل ثانيًا على التنزيل والأمر والنهي. وهذا شامل للوجود؛ فما الوجود إلا خلق وأمر كما قال -سبحانه وتعالى-: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}، فالله -عزَّ وجلَّ- هو خالق كل شيء فله الحمد لما خلق، وله الحمد لما شرع، وشرعه خير الشرائع.

وقال -سبحانه وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} في هذه السورة، وفي سورة سبأ قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآَخِرَةِ}، وفي سورة فاطر قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فاشتملت هذه السور الثلاثة على قضية خلق السموات والأرض، في أنه خَلَقَها وأنه مَلَكَها. فقوله -سبحانه وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} فإن الشيء قد يصنع الصِّنعة ثم لا يملكها، وتخرج عن سيطرته وعن ملكه. ولكن ربنا -سبحانه وتعالى- خلق السموات والأرض وبقي هذا الخلق العظيم الذي قال الله -عزَّ وجلَّ- فيه: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} فخلقه وملكه.

لكن ما الفرق بين قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} وقوله في فاطر: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؟ نحن إلى الآن نقول: هذا خبز فطير، يقابله الخبز الخمير. وكما يقولون هذا في الماديات:

هذا شيء فطير وهذا شيء خمير، ويقولون في الأفكار كذلك والكلمات، فالناس يقولون هذا رأي خمير؛ بمعنى قد اختمر وتداوله الناس وامتحنوه ومحّصوه، بخلاف الرأي الفطير أي الذي خرج بداهة القول، الآن خرج فقط.

ولا شك أن الرأي الخمير خير من الرأي الفطير. وكلمة (فَطَرَ) تُطلق أيضًا على الفطرة؛ والفطرة أصل الخَلْق وأوَّلُه. والناس يُسمُّون الطعام الأول الذي يأكلونه الإفطار؛ لأنه أول ما يفعلونه من الطعام، **فالفَطْرُ هو أول الشيء في تكوينه**، وحين يكون الشيء في أول تكوينه يكون على غير مثال سابق، فقد يخْلُق الخالق خلقه والله خير الخالقين، يجوز على الصواب أن تقول: "فلان خَلَق" على وجه المجاز. ولكن إذا خلق المرء خلقًا فإما أن يكون على مثال سابق، مثل أن يأتي إلى صورة جميلة فيقول له أريد أن تخلق هذا الحجر على هيئة هذا المثال، فهذا خلق.

ولكن **الفَطْر يكون على غير مثال سابق**؛ فهو أصل الشيء، إذًا لم يكن قبله شيء، فالله –عزَّ وجلَّ– فاطر السموات والأرض، فلما خلقها أوجد مادتها، بخلاف من يخلق من البشر فإن المادة موجودة، الحجر بين يديه ينقشه ثم يحوله إلى شيء آخر (إلى صورة). ولكن الله لما خلق السموات والأرض خلقها من غير مادة سابقة، وخلقها على غير مثال من الصورة السابقة.

ولذلك الفطر أبلغ من قوله خلق، مع أن الخلق فيه الكمال بخلاف الفطر –على ما ذكرناه–، من قولنا رأي فطير ورأي خمير؛ **فالخلق أتمُّ في الكلام، والفطر أجَلُّ في القوة والقدرة.**

ولذلك هذه السور الثلاثة اشتملت على هذا الأمر العظيم {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي **خَلَقَ**}، وقلنا بأن الفاتحة شاملة لكل محامد القرآن، بل لكل محامد الوجود.

والحمد الثاني: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} فهو حمد **لشرعه**، فربنا محمود لما خلق على أي جهة من الخلق؛ بكون هذا الخلق من الفطرة، وبكونه على الكمال والتمام، وبكونه مملوكًا له –سبحانه وتعالى–. فهو شامل لما تتم به المحامد ويقع عليه الحمد في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وكلمة (رب) شاملة لكل ذلك؛ فهو الذي خلق، وهو الذي رزق، وهو الذي ملك. فلذلك قوله –سبحانه وتعالى– في

الفاتحة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ} هذه شاملة لهذه الكلمة من الخلق، وشاملة لكلمة الفطر، وشاملة لقوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}.

الآن هذا الحمد لا ينتهي، ولذلك لا يستطيع أحد أن يثني على الله كما أثنى ربنا على نفسه؛ لأن الحمد من العبد كما قال الشافعي في أول (الرسالة) وهو يمر على أن الحمد بسبب النعمة فيقول -وهذا معنى كلامه وكلامه جزل عظيم-، يقول: بأن الحمد لا يكون إلا على نعمة، وحمدك لله -عزَّ وجلَّ- نعمة، وهذه النعمة من حمدك لربك تحتاج إلى حمد، فهو حمد لا ينتهي منك، ويسبقه نعمة تستحق الحمد.

ولذلك أنت لا تبلغ حمد الله -عزَّ وجلَّ- على التمام والكمال أبدًا، مهما حمدت الله فلا يمكن أن يبلغ حمدك لله ما يستحق من المحامد.

وربنا -سبحانه وتعالى- هو الذي يعلم كمالات نفسه، وقدرته جل في علاه، ونحن لا نعرف الكيفية، بل إننا لنعجز في مرات كثيرة أن نعرف القدرة، {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}؟، إبراهيم -عليه السلام- وقد قال ﷺ كما في الصحيحين: (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى})[٤]. فنحن لا نعرف شيئًا من قدرة الله إلا ما أظهره لنا، ولذلك قال -سبحانه وتعالى-: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ}؛ هذا المطر أثر من رحمة الله، الزرع أثر من رحمة الله، ولكن هل يمكن لك في عقلك القاصر الضعيف أن يستوعب رحمة الله؟

إذا كانت كل الرحمات في الوجود مما يتصرف به الخلق ممن وُضعت في قلوبهم الرحمة هي جزء من مائة جزء من رحمة ربنا، فإن الدابة ترفع رجلها عن ابنها لئلا تطأه هذه من رحمة الله، وتثني نفسها على ابنها هذه من رحمة الله، وتقوم الأم في الليل على بكاء طفلها من رحمة الله، منذ أن خلق الله آدم إلى أن تفنى الأرض هذه الرحمات التي نراها في البشر فنعجب من وجودها في هذه القلوب هذا كله هو جزء من مائة جزء من رحمة الله.

ولذلك الحمد بالنسبة إلينا قاصر عن بلوغ مداه وكماله، ولا نثني على ربنا كما أثنى هو على نفسه. وأَمْرُ المحامد لله -عزَّ وجلَّ- رياضة نفوسٍ في مضامر الثناء على الله لا تنتهي إلى يوم القيامة.

---

[٤] صحيح البخاري: (٤٥٣٧)، صحيح مسلم: (١٥١).

قلنا **كلما اتسع عقل المرء اتسعت عبارته**، هذه طبقوها الآن على محامد الله، فإنه كلما أبدع المرء في ذكر المحامد ازداد قربًا إلى الله. ولذلك مسألة الحمد ليست توقيفية، والدليل على هذا أن الرجل الذي حمد الله حمدًا عظيمًا فقال بعد أن قام من الركوع: "الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملئ السموات وملئ الأرض وملئ ما شئت من شيء بعد، عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك"، تأمل! هذا رجل أبدع، الله -عزَّ وجلَّ- أعطاه من المعاني القلبية التي استوعبها عقله فتلفظها في لسانه، وهذا هو كمال العلم.

كيف ينشأ العلم في ذهن المرء؟ لا بد أولًا من أن يقع معناه وتأثر هذا الشيء على القلب فينفعل به، وبعد ذلك هذا التأثر القلبي لا بد أن يُصاغ قواعد علمية في الدماغ.

والعاجز والضعيف قد تنشأ لديه المعاني في عقله ولا يستطيع التعبير عنها. ولكن العالم يعبر عنها ويصيغها بألفاظ تصل إلى حد كمال ما يريد في عقله فيُخرجها وهذا هو تمام العلم، فهذا الصحابي نشأت في قلبه هذه المعاني الجليلة من النظر إلى الله ونعمائه وصفاته، فنشأت حتى انفعلت بها أحاسيسه وأعظمها ما في قلبه فخرجت على عقله فصاغها هذه الكلمات.

النبي ﷺ أخبره الوحي أو أنه رأى -وكان رسول الله ﷺ من خصائصه ومعجزاته -بأبي هو وأمي- أنه كان يرى في الصلاة خلف ظهره كما يرى من أمامه، {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} أي بمحجوب، والضَّن هو البخل، فهو ليس بمحجوب ولا بممنوع، أي الغيب ليس ببخيل عليه بألا يُعطيه وأن يكشف له نفسه.

فقال النبي: (من قال هذا الكلام؟)، فالرجل خاف، حتى قال له: (لقد رأيت كذا وكذا ملكًا)، وفي رواية حدَّدت العدد بستٍ وثلاثين ملكًا، (يبتدِرونَها أيُّهم يكتبُها أوَّلُ)[٥]. هل الملائكة تختصم؟ نعم، النبي أخبرنا بهذا ﷺ، قال: (فيم تختصم الملأ الأعلى؟)[٦] فيم تختصم أي تتصارع وتتنافس، الخِصام التنافس. يتنافسون في كتابة الأعمال الصالحة.

---

[٥] صححهُ الألباني في صحيح أبي داود: (٧٧٠).
[٦] صححهُ الألباني في صحيح الترمذي: (٣٢٣٥).

فهؤلاء الملائكة تنافسوا، والعلماء وقفوا لماذا هذا العدد ستة وثلاثون ملكًا؟ فبعضهم أحصى الكلمات في بعض الروايات فوجد أن كلماتها على هذا العدد، فهؤلاء الملائكة نزلوا يتنافسون على كل كلمة أيهم يكتبها أولًا. والذي يُستدل به فيما نحن فيه أن باب المحامد مضمار سبق، وكلما انفعل قلبك بصفة من صفات الجمال أو الجلال لله ربنا –جل في علاه–، وكلما رأيت نعمة لقوله في حديث معاذ: (أحبُّوا اللَّهَ لما يَغذوكم من نعمِهِ)[٧]، ورأيت نعمًا له حمدته وانطلق لسانك، في ذهنك العالم الذكي، في قلبك المنفعل، انطلق لسانك في الحمد، فكلما حمدت الله –عزَّ وجلَّ– اقتربت منه، وسارعت الملائكة إلى مصاحبتك.

هذا **الحمد هو أعظم باب من أبواب العبودية بعد التوحيد، وهو وحده الذي يُسكِن غضب الرب**، فكلما كان غضبه –جل في علاه– على معنى من المعاني الخاصة احتاج إلى حمد خاص، والدليل على هذا أن الله يوم القيامة كما في الحديث: (يغضب غضبًا لم يغضبه قط ولن يغضبه قط)، فاحتاج هذا الغضب ليسكُن إلى محامد لم تُفتح على أحد مِن قَبل قط، يقول ﷺ: (فآتي تحتَ العرشِ، فأقعُ ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ من محامدِه وحسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْه على أحدْ قبلي)[٨].

نحن سنبيّن أن أعظم كلمة للحمد أن تقول: "الحمد لله"، لماذا؟ قالوا لأن الحمد جاء بصيغة مع (ال) الاستغراقية التي استغرقت كل المحامد، فأعظم الحمد أن تقول الحمد لله؛ لأنك بكلمتك هذه استغرقت كل المحامد. ومع ذلك فهناك من المحامد ما لم يعرفها البشر حتى يفتح الله –عزَّ وجلَّ– بها على قلب ولسان رسولنا يوم القيامة من أجل أن يسكن غضبه الذي لم يغضب مثله قط، فما الذي يُسكن غضب الله؟ الحمد.

الذي يُسكنه إذا غضب –جل في علاه– لما يفعل الخلق أو لما يحضر من الشر هو الحمد لله، فهذه كلمة كما قال ﷺ: (والحمد لله تملأ الميزان).

طيب لماذا قال في الحديث الآخر: (وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض)؟ لأن التسبيح تقديس وتنزيه، ومنه السباحة فإن المرء إذا سبح نقى ما فيه، وسبَّح بمعنى نُزِّه جلَّ في علاه، فإذا سبَّحت الله

---

[٧] ضعفهُ الألباني في ضعيف الترمذي وفقه السيرة وضعيف الجامع.

[٨] صحيح البخاري: (٤٧١٢).

نزَّهته وعظَّمته وأجللته وأعظمته. فما في الوجود إنما هو دال على الخِلقة التَّامة الكاملة العظيمة، وهذه بالنسبة لنفسها فيما هي فيه تستحق التسبيح. بالنسبة لما هي وما فُطرت عليه وخُلقت عليه تستحق التسبيح، وأما كونها نعمة من أجل الخلق فتستحق الحمد.

ولذلك قال: (وسبحان الله وبحمده تملآن ما بين السماء والأرض)، فإنها تستوعب الوجود بمجرد خلقه في نفسه وذاته، وتستوعبه بالنسبة إلى ما خُلق له وهو: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} فلذلك (سبحان الله والحمد لله).

قوله: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} هل هاتان كلمتان أم كلمة واحدة؟ بعض أهل العلم قال: (سبحان الله والحمد لله) هما كلمتان، وأبو عبيد القاسم بن سلَّام قال: لا، هي كلمة واحدة. وما قاله أجَلُّ؛ ذلك لأننا قلنا إن الحمد يكون على النّعِم الاختيارية، بمعنى التي لا تتعدَّى إلى الآخر، فأنت تُسبِّح الله أي تُعظِّمه وتُنزِّه، وهذا التعظيم والتنزيه إنما لذاته -جل في علاه- فهو يُسبَّح بحمده لما فيه من خصال -جل في علاه- حتى لو لم تتعدى على غيره، فهي كلمة واحدة (سبحان الله وبحمده)، أي أنني أُنزِّه الله، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} تسبِّحه لأنه يستحق كل المحامد، وتحمده لأنه -سبحانه وتعالى- قدوس مُنزَّه لا يلحقه نقص ولا يلحقه عجز ولا ضعف {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}، وهو حي قيوم.

الحمد هذه كلمة الله يحبها؛ ولذلك في الحديث يقول ﷺ: (إن اللهَ ليرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ فيحمدَه عليها . أو يشربَ الشربةَ فيحمدَه عليها)[٩]، هذه كلمة حبيبة إلى الله.

ومن توفيق الله للإمام البخاري أن آخر حديث في صحيحه هو قوله ﷺ عند إثبات الميزان للأعمال: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[١٠].

الآن المسألة واضحة، كيف وُفِّق هذا الإمام العظيم، هل درى أو لم يدري هذه لا ندري، لأن المرء قد يُوفَّق إلى أمور لم يقصدها فيكون له الأجر، يمكن أن تقول الكلمة لا تلقي لها بالًا فترتفع بها عند الله، فقد لا تقصدها

---

[٩] صحيح مسلم: (٢٧٣٤).

[١٠] صحيح البخاري: (٦٦٨٢)، صحيح مسلم: (٢٦٩٤).

ولكن الله من رحمته يُوقِعها لك على أحسن ما ينبغي أن تكون، فقد يكون الإمام البخاري قد قصدها وليست بعيدة عن ذهنه فهو إمام عظيم، وقد تكون من توفيق الله وهو أجَلّ، أن يفعل المرء على جهة الإرادة هذا خير عظيم، ولكن أن يُقِيمك الله -عزَّ وجلَّ- على جهة ما يحب من غير إرادة منك هذا دلالة على أن الله قد أعطاك خصالًا خاصة وعظيمة وجليلة.

فتأملوا هذا الحديث في آخر كتاب هو أصح الكتب بعد كتاب الله: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن؛ سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)، الآن فُسِّرت لأن الشرع كله قائم على التسبيح والتحميد، والخلق كله قائم على التسبيح والتحميد، فخاتمة ما يُقال بعد الخلق سبحان الله العظيم، وخاتمة ما يُقال بعد الشرع سبحان الله وبحمده، فهي مُستوعِبة لما خلق ومستوعبة لما شرع، فهي خاتمة كل شيء.

الآن هذه الكلمة (الحمد لله) كما ترون أنها من كلمتين، هذا إذا أزلنا ولم نعتبر حرف اللام، والحروف في اللغة العربية لها سِحْر وسِرّ، فبمجرد أن يتغير الحرف يتغير المعنى، يعني الآن في سورة الأنعام: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} الناس يعرفون (على) على أنها استعلاء، وعلى أنها رِفعة، ولكن يقول: {عَلَى رَبِّهِمْ} والناس الفلاحون إلى يومنا هذا يقولون: "أنا جيت عليك"، والآخر يتفلسف عليه يقول له: "أنا جيت عندك وليس عليك"، بالرغم من أن الأول أتقن ولو بقيت على الفطرة لكانت أجمل. فإن الله يقول: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} لماذا؟

هذا باب في اللغة يُسمى بـ(**حروف المعاني**)؛ لأن الحرف يُقسم إلى قسمين: الحرف الهجائي الذي به تتكون الكلمة، وهذا عند العرب له أسرار، فمثلًا حرف (الصاد) عند العرب يفيد الخصومة، ولذلك سورة ص فيها الخصومة. فيها الخصومة {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} إلى آخره، حتى الحرف الهجائي له معنى. ولكن أجلُّ من الحرف الهجائي هو حروف المعاني كحروف الجر، مثل قوله: (لله)، فهذا حرف اللام يقولون هو حرف المِلك والاستحقاق، فإنك تنسب الشيء لنفسك فتقول: (لي)، واستخدمت حرف اللام من أجل أن يدل على مُلكك له.

ولكن الملك قد يكون مشتركًا بينك وبين الآخرين فقالوا هنا: تفيد الملك وتفيد الاختصاص مع إفادة الاستحقاق. يعني قال الله: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ} وما قال: (أموالهم) بالرغم من أنها أموالهم، الناس لا يعطون العقلاء أموالهم، يعني لو أن عاقلًا جاء وطلب مالك لا تعطيه، إلا على جهة العطاء، هدية أو دَيْن، لكن لماذا سمى الأموال هنا بالرغم من أنها للسفهاء سماها للأولياء، للأوصياء؟ لأنهم لا يستحقونها؛ فقد يملك الشيء من لا يستحقه، ولكن هنا الحمد لله هذه اللام تفيد الملك، وكذلك تفيد أعظم من الملك وهو الاستحقاق، كما أنها تفيد الاختصاص.

فلا ينبغي الحمد إلا له، فإن قلت: كيف تقول لا ينبغي الحمد إلا له مع أننا يجوز لنا أن نحمد فلانًا وفلانًا لما يعطونا ولما يحصل لنا منهم من الخير؟ قال أهل العلم ذلك لأن كل حمد يقع في الوجود إنما هو حمد لله. لماذا؟

لأنه لما قامت أمك عليك بالرعاية لولا رحمة الله ما قامت عليك بالرعاية، ولرمتك كما تُرمى الزبالة في خارج البيت، فمن الذي قذف الرحمة التي أوجبت الحمد؟ هو الله. لما واحد يكون جميلًا فتحمد جماله، فمن الذي أعطاه الجمال؟ إنما هو الله، **ولذلك كل حمد يقع في الوجود الذي يستحقه هو الله**، ولذلك كلمة الحمد التي هي (ال) الاستغراقية التي استغرقت كل المحامد في الوجود إنما الذي هو يستحقها الله.

وتقع على جهة المجاز لغيره، لجهة المجاز على غيره؛ لأنه لولا توفيق الله -عزَّ وجلَّ- وعطائه لهذا ما وقع الفعل الطيب منه لك، فلم يستحق الحمد إلا لِما أعطاه الله، فمحامد الوجود كلها إنما يستحقها الله -سبحانه وتعالى-.

فهذه كلمة (الحمد) العظيمة التي يؤول أمرها استحقاقًا لربنا -جل في علاه-.

وهذه كلمة (الله)، **لم يقع الحمد في القرآن إلا منسوبًا إلى الله اسم الجلالة**، ما قال: الحمد لفاطر السموات والأرض، ولا قال: الحمد لخالق السموات والأرض، ولا قال: الحمد لمنزل الكتاب، بل لم ينسب الحمد إلا لاسم الجلالة. ولا لصفة من صفاته؛ ما قال: الحمد للقدوس، ولا للسلام، ولا للرحيم، بل ما نُسب الحمد إلا لاسم الجلالة؛ ذلك لأن اسم الجلالة هو الاسم الجامع لكل الخصال الحسنى في ربنا -جل في علاه-، ولكل أفعاله الحسنى -جل في علاه-، ولكل أقواله الحسنى -جل في علاه-، فلا تستحق هذه الكلمة الجليلة وهي

كلمة الحمد إلا أن تُنسب لهذا الاسم، إلى الله -سبحانه وتعالى- الذي قال الله -عزَّ وجلَّ- فيه: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، ليس هناك أحد يستحق أن يُقال له: الله، إلا الله.

ولذلك لا تُقال الحمد إلا منسوبة لهذا الاسم الجليل الجامع لكل أسماء الله وصفاته، ولكل أفعاله جل في علاه. فلذلك لا يُقال إلا الحمد لله.

فلذلك أنت لما تقرأ هذه الكلمة وتستفتح بها ما يأتي بعدها كله تفصيل، بمَ يستحق ربنا الحمد، وبمَ وقع الحمد، وكيف يقع الحمد؟ في الأولى والآخرة، بعد نصره على الأعداء، بعد نزول الخيرات، بإنزاله الكتب وإرساله الرسل، فلذلك هذه الكلمة حين تُستفتح بها السورة عليك أن تربط كل ما ذُكر فيها من الخير ومن الشرائع ومن الأفعال الإلهية الجليلة ومن أسماء الله وصفاته -سبحانه وتعالى-، إنما ينبغي أن تُعيدها إلى هذه الكلمة فلا يخرج من قلبك إلا هذه الكلمة؛ الحمد لله.

ولذلك لما رجل قال: "الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه" حارت الملائكة في كتابتها، لأنهم علموا الحمد لله استغرق الرجل في الحمد، وانظروا إلى ما ذكرناه من جلال الثناء على الجميل الاختياري، هذا رجل قالها على المعنى الذي قالها الصحابي: "الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهك"، سبحان الله! أي معنى قُذف في قلب هذا القائل من العظمة لربنا حتى تفجَّرت هذه الكلمة بأن عَلِم أن وجه الله له الجلال التام؟! الذي قال فيه ﷺ في الحديث الصحيح عن وجه ربنا: (حِجابُه النورُ. لو كشفه لأحرَقَتْ سُبُحاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِه)[١١]، ولذلك لما تجلَّى ربنا للجبل قالوا تجلى منه مقدار يسير بأن كشف الحجاب -جل في علاه- حتى هذا الجبل صار دكًا.

كيف يرونه يوم القيامة، ويرون وجه الله؟ لأنهم حينئذ ينتقلون إلى النور. النور كما سيأتي في {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} يوم القيامة بدنك غير هذا، والدليل أنك تجلس يوم القيامة على النور، -أهل الفيزياء لهم كلام لا أريد أن أضيع أوقاتكم فيه-. فقال ﷺ: (إنَّ للهِ جُلَسَاءَ يومَ القيامةِ عن يمينِ العرشِ، وكِلْتَا يدَي اللهِ يمينٌ، على منابرٍ

---

[١١] صحيح مسلم: (١٧٩).

مِن نورٍ .... هُم المتحابُّونَ بجلالِ اللهِ تباركَ وتعالى)[١٢]، فحين تكون أجسامهم لها صِبغة تستقر على كراسٍ من نور حينئذٍ يكون لهذه الأبدان قدرة على رؤية وجه الله، فلا تسأل كيف ولا تسأل لماذا، لأنك حينئذ شيء آخر.

وإن أردت أن تدرك هذا فانظر إلى ما وقع لحبيبك ﷺ من معاني النور وقد أُسري به وعُرج به، الملائكة يعرجون في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، -ولا أريد أن أضيع أوقاتكم في كلام الفيزياء والنسبية ولهم كلام رائع فيها-. ولكن رسولنا ﷺ لما صُعد به صُعد بهذا المعنى، فإذًا هذا جسد آخر؛ لأنه لو أن جسدك سار بسرعة النور لاحترق وتغير، ولما عُرج كان البراق يضع قدمه حيث ينتهي بصره وهذا في الأرض، فكيف كان جسم هذا الذي فوق البراق؟! وهو حبيبنا محمد ﷺ.

ثم بعد ذلك هذا النبي صعد إلى السماء بطريقة لا نعرفها، ولكن قطعًا أن جسمه قد صار فيه نوع نورانية، شيء آخر.

فيوم القيامة تتحول، فالذي ينظر من نور، والمرئي -جل في علاه- هو النور، وحجاب ربنا هو النور.

ولذلك -سبحانه وتعالى- لما قال هذا العربي: "الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهك"، أنا أسألكم كم مرة وأنتم في السيارة وفي الباص أو على فرشكم أو جلوس لا تسمعون لدروس فقط، وذهبت أفكاركم وظنونكم في التأمل في عظمة وجه الله؟ نحن ما زلنا ننظر إلى نعمة الله، يعني يُمكن لك وأنت جالس فترى زوجتك خادمة لك، تقول: "الحمد لله الذي رزقني هذه الزوجة". ممكن تَعُدّ القروش وتفتح دفتر الشيكات فترى الأموال تقول: "الحمد لله الذي رزقني الأموال". معاني الحمد في هذا الباب يمكن أن تنشأ، لكن بالله عليكم أجيبوا أنفسكم كم مرة حمدتم الله لمَّا تأملتم عظمته وجلاله وجلال وجهه؟ بينك وبين نفسك جلست فتأملت في هذا المعنى فقلت: الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه، ليس لما أعطاني؟!

---

[١٢] صححهُ الألباني في صحيح الترغيب: (٣٠٢٢).

فقال: " الْحمدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُباركًا فيه ، كَما يُحِبُّ ربُّنا أنْ يُحْمَدَ ويَنبغِي له "؛ وهذا هو الذات، "وعظيم سلطانه"؛ وهذا هو الفعل، فاستغرق كل ما ينبغي أن يُحمد به الرب، فتسائلت الملائكة: كيف نكتبها يا ربنا؟ (قال: اكْتُبُوها كَما قال عَبْدِي)[١٣].

فإذا بلغت المحامد لهذا الذي لا ينتهي كان الجزاء لما لا ينتهي، قال ﷺ: (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[١٤]، هؤلاء لهم هذا، لمَّا كانت محامدهم لا تنتهي لربنا –سبحانه وتعالى–.

فقوله –سبحانه وتعالى–: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؛ قال العلماء: الخلق هو الإيجاد من العدم. وهناك فن في العرب لا بأس أن أذكره وليس هو من المشقة، كل شيء تبذل ذهنك من أجل فهمه وإدراكه إياك أن تحتقر نفسك، إياك أن تقول هذه لست فاهمها وتُدير وجهك، إياك! هذه ليست نصيحة مني، هذه نصيحة من رسول الله ﷺ، قال: (واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ)[١٥]. انظر إلى هذه الكلمة: ولا تعجز، ما معنى لا تعجز؟ لأنك لو قلت: أنا لا أستطيع على قاعدة قوله ﷺ: (من قال هلك الناس فهو أهلكهم)[١٦]، فحين تقول لا أستطيع: فقد دمَّرت نفسك، هذه الكلمة لا تؤذي أحدًا في الدنيا كما تؤذيك أنت.

الكلمات والرؤى بعض الناس يظن أنه يكسب بها الناس، أو أنه يضحك بها على الناس، أو يخسر بها الناس، والحقيقة أن الذي يقع منه الخطأ إنما هو يخسر نفسه أولًا، والدليل قوله ﷺ: (المُتَشبّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور)[١٧]، ما قال واحد، المتشبع بما لم يُعط يعني الذي يحب أن يُحمد بما لم يفعل، يقول: أخذت، أكلت، اغتنيت، ربحت، وليس من هذا شيء!، فهذا متشبّع يعني طلب الشبَّع بالهواء. بعض الناس يشبعون بالهواء، للأسف في الماديات لا تنفع، ولكن المعنويات أوسع من الماديات.

---

(١٣) قال الألباني في السلسلة الصحيحة: (إسناده رجاله ثقات لكن خلف وهو ابن خليفة كان اختلط في الآخر).

(١٤) صحيح مسلم: (٢٨٢٥).

(١٥) صحيح مسلم: (٢٦٦٤).

(١٦) صحيح مسلم: (٢٦٢٣).

(١٧) صحيح البخاري: (٥٢١٩)، صحيح مسلم: (٢١٢٩).

الناس يقولون مثلًا عن الدعاية والإشاعة يقولون: لا دخان بلا نار، هذا صحيح لكن هذا في الماديات، في المعنويات هل يمكن؟ بمعنى يمكن للرجل أن يكذب على الرجل ويتهمه بما ليس فيه من غير نار؟ في الماديات ممكن، ولكن في المعنويات الباب واسع، كما قال الشاعر:

لي حِيْلَـــــــةٌ فِـــــيمَن يَـــــنُمُّ وَلـــــيس في الكَّـــذابِ حِيلَـــة

النمام يمكن أن أعالجه، أجلس معه ولا أخبره بالقضية فينقطع خبره ونمُّه. ولكن الكذاب كيف تصنع معه؟ إن جلس معك أو لم يجلس. فلذلك المعنويات أشمل وأعظم.

قال: (المتشبّع) يعني طالب الشَّبَع، (بما لم يُعطَ) أي بما ليس عنده، ما قال كلابس ثوب زور بل قال: (كلابس ثوبَيْ زور)، الثوب الأول علمناه وهو أنه يريد أن يتزيَّ أمام الناس، الثوب الثاني على من يضحك؟ الأول يريد أن يزوِّر على الناس، الثاني يزوِّر على من؟ الصحيح أنه يزوِّر على نفسه، لقوله ﷺ: (وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابًا)[١٨]، بعض الناس يظن يُكتب يعني على جهة الشرع، الصواب أنه يُكتب على جهة القدر، بمعنى هو يُفسِد بعد ذلك عقله وتصوَّره ورؤاه، فلو طُلب منه أن يَصِف الشيء على حقيقته لا يستطيع؛ لأنه تعوَّد الكذب وألا يرى الأشياء على حقيقتها، فارتد كذبه على نفسه حتى أنه لا يستطيع أن يَصدُق مع نفسه.

نرجع إلى قوله –سبحانه وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ}؛ فالخلق إيجاد من العدم.

وهنا أنا ذكرتها على مسألة لغوية مهمة، العرب لهم كلمات يمكن أن تنطبق على الشيء انطباقًا تامًا، وهناك صفات يمكن أن تشترك فيها أشياء متعددة، والمعاني قد تختلط. الآن الإحسان هل يمكن أن يختلط مع الحب في بعض جوانبه؟ يمكن، ويمكن أن يختلف معه، حين تُحسن إلى فلان لسبب حبك له، فالإحسان سببه الحب، إرادة الخير. ولكن يمكن أن تُحسن بلا حب، كما قال –سبحانه وتعالى-: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فالله –عزَّ وجلَّ- أمر أبا بكر أن ينفق على مِسطح بن أُثاثة مع أنه يُبغضه لأنه شارك في مقالة الزور في أمنا عائشة –رضي الله تعالى عنها-.

---

[١٨] صحيح مسلم: (٢٦٠٧).

فالكلمات المعنوية من الصعب تحديدها، كلمة (الحب) تُحدَّد، كلمة (الإحسان) تشترك معها وتختلف. العرب من بلاغتهم وعظمتهم أنهم حين تشترك الكلمة مع غيرها يُجيزون لك أن تستخدمها بدل الكلمة الأخرى.

نحن قلنا: (ولا تعجز)، الأمر سهل، الكلام يسير جدًا لا تقل: الكلام كبير؛ كلمة توضع لمعنى، وكلمة توضع لمعنى، قد يشتركان في بعض المعاني يجوز حينئذ أن تستخدم هذه الكلمة لهذا الجانب وهذه الكلمة لهذا الجانب.

وكذلك يُذكر الإيمان والعمل الصالح، الناس يقولون: الإيمان لا يكون إلا بعمل، وشرط الإيمان العمل، يعني جزء من الإيمان العمل، ولكن العمل له خاصية، قد يكون بتصديق أو بغير تصديق، فيمكن أن تستخدم الإيمان بدل كلمة العمل، ويمكن أن تستخدم كلمة العمل بدل الإيمان. ويمكن أن تستخدم كلمة الحمد بدل الشكر، ويمكن أن تستخدم كلمة الشكر بدل الحمد، مع أن لكل كلمة خصوصيتها.

فقولنا: (خلق)، الخلق له معنيان؛ المعنى الأول وهو **الإيجاد**، والمعنى الثاني وهو **الإيجاد من العدم**.

فإذًا هي شاملة على معنيين؛ هل يجوز لهذه الكلمة أن تُطلق على معنى واحد دون الثاني؟ الجواب نعم. متى يُنهى عن استخدامها؟ إذا كان في ذلك شبهة، يعني النبي ﷺ كما في سنن أبي داود بسند صحيح في باب الخطبة على المنبر قال: (من يطع الله ورسوله فقد رشد)، وقال: (ومن يعصهما فقد غوى). لكن لما قام رجل يخطب بجانبه وقال هذه الكلمة، قال: (بئسَ الخطيبُ أنت، قل: ومن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ)[١٩] للتفريق، لماذا؟ لأن هذا المقام يُخاف فيه اشتباه الأمرين، الله والرسول في مقام واحد. ولذلك كان الصحابة يقولون ما شاء الله وشئت يقولونها حتى جاء اليهودي وزاود عليهم في التوحيد وقال: يا محمد إنكم تشركون، قالوا: كيف نشرك؟ فقال: تقولون ما شاء الله وشئت، فأمر النبي ﷺ الصحابة أن يقولوا: (ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ شاءَ فلانٌ)[٢٠]. ما دام أنه قد وقع هذا المعنى من الاشتباه فدعونا نتركه.

---

[١٩] صحيح مسلم: (٨٧٠).

[٢٠] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (٧٤٠٦).

لو واحد جاء إلى لوحة وقال: والله هذا خلَّاق، نقول له: كذبت، لأنه يريد أن ينافس ربنا، (ومَنْ أظلَمُ مِمَّنْ ذهب يخلُقُ خلقًا كخلقي)[٢١]، فلا نقولها. الناس يقولونها على غير هذا المعنى فتُقبل منهم إلا عند الاشتباه فيُحترز من هذا. فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}.

نقف عند (السموات والأرض).

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

والحمد لله رب العالمين.

---

[٢١] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (٤٣٣٣).

الدرس الرابع

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله ومن والاه، وبعد؛

لا زلنا في قوله تعالى من سورة الأنعام: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}.

بقي الكثير مما نقوله عن هذه الكلمة الجليلة {الْحَمْدُ لِلَّهِ}؛ وفقط أريد أن أُعرّج على نقطتين، هما نكتتان: نكتةٌ معنوية ونكتةٌ علمية.

أما **المعنوية**: فهذه الأمة سُميت في الكتب السابقة بـ(**الحمَّادين**)؛ كما ذكر ذلك أهل العلم وبعض العارفين من أهل الكتاب في كتبهم قبل التحريف، هذه الأمة تُدعى يوم القيامة بـ(الحمّادين). وهذه الأمة كما تعلمون، هي خير أمةٍ أُخرجت للناس، فهي خير أمة؛ فدل على أن **الحمد هو خير الخصال التي ينتسب إليها المرء**، وخير الخصال التي بها يشرف المرء؛ ولذلك فإن لواء النبي ﷺ يوم القيامة، هو **لواء الحمد**.

واللواء: هو أشرف ما يرفع الناس، ويعتزُّون به، يموتون من أجل بقائه منتصبًا؛ ولذلك فرفع لواء الحمد فوق رأس النبي ﷺ دلالة على أن الحمد لا يبلغ مبلغه شيء. ونحن ذكرنا ما قاله بعض أهل العلم، من التفضيل بينها وبين كلمة التوحيد، ولا شك أن كلمة التوحيد هي مدخل الإسلام؛ **ولكن أعظم ما في داخل بيت الإسلام هو الحمد لله**، وأعظم ما فيه. ويكفي أن نقول بأن ما أمرنا الله –عزَّ وجلَّ– به، إنما لقوله: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، وذكرنا الرابط والجامع ما بين الشكر والحمد، هذه مسألةٌ معنوية.

أما المسألة **العلمية**: فهذا لفظٌ في القرآن؛ وهذه من مسائل البلاغة، ومن مسائل الأحكام، يعرفها أهل الأصول؛ هذه وإن وردت في القرآن على صيغة الخبر، في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، هذا خبر، فالله يُخبر –جل في علاه– أن له الحمد، ولكن أهل العلم يقولون: هذا أمرٌ جاء على صيغة الخبر.

وأعظم الأوامر ورودًا، إذا وردت على هذه الصيغة؛ لأنها تدل على الوقوع قدرًا، كما أنها تدل على وجوب الوقوع شرعًا؛ مثل قوله ﷺ: (إذا أقبل الليل من هنا –أي: من جهة الشرق–، وأدبر النهار من هنا –أي

من جهة الغرب- فقد أفطر الصائم)[٢٢]، وما قال: "فليُفطر"، لم يأمره. قال: (فقد أفطر الصائم)، والمقصود بذلك أنه يقول له: افطِر في هذا الوقت. لكن لماذا جاء هذا الأمر، وهو قوله: (افطر) بصيغة الخبر: (فقد أفطر)؛ لأنه دالٌ على الأمر ابتداءً.

ثانيًا: هو يدل على أنه مفطر، سواءٌ أكل أو لم يأكل. فإنه إذا أقبل الليل من ههنا -من جهة الشرق-، وأدبرت الشمس -أي النهار- من ههنا، من جهة الغرب؛ فلو أن المرء صام بعدها، لا يُعد صيامه شيئًا؛ لأنه قد أفطر، فهو مأمورٌ شرعًا، وهو واقعٌ قدرًا. فدل على أن الأمر، إذا جاء بصيغة الخبر هو أجلُّ أنواع الأمر؛ كقوله -عزَّ وجلَّ-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ}، والمقصود: حُجُّوا في الأشهر المعلومات. لكن لما كان هذا لا يجوز وقوعه إلا في وقته، دل على أنه أمر، ودل على أنه لا يجوز أن يُوقَع إلا في هذه الأوقات، وهي الأشهر المعروفة أشهر الحج.

هاتان النقطتان، أمر عليهما عند قوله -تعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي}؛ هذا الذي، كلمة {**الَّذِي**} يقول أهل العلم: هو اسم موصول، يدل على ما قبله، يعني: "الله هو"، وهذا عندما يُذكر، إنما يُذكر للجلال؛ فإذا فُصل بين الذات وبين فعلها، إنما دل على التعظيم، كقولك: "خالد هو الرجل"، يسمونه هنا هذا ضمير الفصل، وكذلك يسمونه ضمير الاختصاص؛ بمعنى أنه يفصل بين حالةٍ وحالة ويفصل بين المبتدأ والخبر، ولكنه كذلك أعظم من ذلك، يدل على أن الرجل هو خالد، ودونه إنما يركض من أجل تحصيل ما فيه.

فلما قال -سبحانه وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ}؛ دل على أنه لم يخلق إلا الله، لم يخلق السماوات ولم يعاونه في خلقها أحد؛ فدل على أن هذا الذي ذُكر، إنما من أجل بيان اختصاص الخالق، بهذا الفعل الذي بعده.

ذكرنا قوله -سبحانه وتعالى- {خَلَقَ}، وبيَّنا الفرق بينها وبين "فاطر"، وقلنا إنه يجوز في اللغة أن يُستخدم هذا اللفظ في بعض معانيه، وهذه مسألةٌ علمية؛ أولًا: لا يوجد شيء على جهة الانفراد في هذا الوجود، كل شيء مُركَّب، حتى الذرة مركبة، حتى أصغر شيء في المادة هو مركب، والمعاني مركبة، بمعنى أن الحب ليس درجة واحدة، والإيمان ليس درجة واحدة، والكفر ليس درجة واحدة؛ هناك كفرٌ مركب: أي مُغلَّظ، وهناك كفرٌ غير مغلظ، وهناك كفرٌ أكبر، وهناك كفرٌ أصغر.

---

[٢٢] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (٣٦٤).

ويجوز في اللغة استخدام -وهذا من بيان العلم الذي يجب أن نتعلمه؛ لأن الناس يتناقشون فيها في حياتهم- يجوز أن يُستخدم اللفظ التام، للدلالة على المعنى الجزئي، كيف؟ نزل قوله -سبحانه وتعالى-: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} فهذه نزلت في الكفار؛ هل يجوز لك أن تحتج فيها على مسلمٍ أسرف على نفسه، ولم يؤدِّ حق الله -عزَّ وجلَّ- في المال، في الطعام؟ لماذا قال النبي ﷺ وقد أكل: (وقد خَشِينا أن تكونَ حسناتُنا عُجِّلَت لنا)[٢٣].

هل يجوز إنزال آيات الكفار على المسلمين؟ الجواب: نعم، يجوز إنزال آيات الكفار على المسلمين، بشرط ألا تُلحق الحكم النهائي الذي أنزله الله على الكافرين على المسلمين؛ وإنما تُنزل على المسلم بمقدار ما حصل من هذا المعنى الذي رُكِّب فيه اللفظ. ولذلك هناك كفر أكبر يخرج من الملة، وهناك كفر أصغر، ما هو الكفر الأصغر؟ يعني هو الخطوة التي تؤدي إلى الكفر؛ ولذلك قال العلماء: "المعاصي بريد الكفر"؛ لأنها خطوة تؤدي إلى الكفر.

فيجوز أن تحتج على آيةٍ نهائية، على أمرٍ جزئي؛ بشرط ألا تُلحق الحكم النهائي، على هذا الفعل الجزئي، بل يجب عليك أن تُعمله بمقدار جزئه، فتُعمل اللفظ بمقدار حقيقته، وتُلحق به بعد ذلك حكمه الجزئي، وهذا هو الفارق بين السني والبدعي.

ماذا قال العلماء عن الخوارج؟ قالوا: ذهبوا إلى آياتٍ في كتاب الله، نزلت في الكفار فأعملوها في المسلمين؛ بمعنى أنهم أتوا إلى الحكم الجزئي الذي يصيب المسلم من معاصٍ أو ما شابه ذلك، فيلحق بها الحكم الكلي؛ كالظلم: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}؛ فالظلم الأعظمُ هو الكفر، والمسلم قد يَظلِم، هذا الظلم هو ظلمٌ جزئي؛ كما نقول: كفرٌ أصغر، وهذا ظلم أصغر، فقال ابن عباس: "هو كفرٌ دون كفر، ظلمٌ دون ظلم، فسقٌ دون فسق".

ولذلك يجوز في اللغة، أن تستخدم اللفظ على بعض معانيه، ومن هنا قلنا: فإن "خَلَقَ" في معناها الكُليّ هو الذي يوجِد الشيء على غير أصل مادته، هو الذي يُوجد الشيء دون أن تكون مادته موجودة، بل هو يُوجد المادة ويوجد صورتها؛ ولذلك الله -عزَّ وجلَّ- من أسمائه الخالق الـمُصوِّر؛ لأنه أوجد الشيء على غير مثالٍ

---

[٢٣] صحيح البخاري: (٤٠٤٥).

سابق، ثم بعد ذلك صوَّره على هيئةٍ ما، فهو -سبحانه وتعالى- المصور؛ فنحن نقول: يجوز أن تستخدم كلمة خلق على معنًى جزئي، على معنى التصوير؛ أي: شكّله على هيئة ما.

قوله -سبحانه وتعالى-: {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؛ هما أجل ما خلق الله -عزَّ وجلَّ- فيما دون العرش، فإن أجلّ ما خلق اللهُ هو العرش، والله -عزَّ وجلَّ- يقول: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}؛ وعرش ربنا -جلّ في علاه- هو محيطٌ بكل خلقه، وفي الآثر لابن عباس في مستدرك الحاكم: "فإن الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدره أحد"؛ لا يمكن لأحد أن يتصوره، وهو خلق من خلق الله، لكن لا يمكن للمرء أن يتصوره؛ لأن العرش محيطٌ بالكرسي، ومحيطٌ بالسماوات ومحيطٌ بالأرض، والأرض محيطةٌ بها السماوات.

والسماوات تُطلق في القرآن على معنيين:

المعنى الأول: هو **الهيكل المخلوق**، والذي هو سبع سماوات، كما خلق الله أرضًا، خلق سماءً وراء سماء، وهي سبع سماوات، فهذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: لا توجد كلمة (السماوات) دالة عليه في القرآن، إنما يستخدم بدلًا منها (السماء)؛ فإذا قرأت في القرآن كلمة (السماوات)، لا يجوز لك أن تصرفها إلا على الخلق الهيكلي، الذي هو موصوفٌ لنا في كلام ربنا، وكلام رسوله ﷺ؛ لكن لو وردت كلمة (السماء)، فإنها يمكن أن تكون دالةً على هذا المعنى وهي السماوات، ويمكن أن تكون دالةً على معنى آخر هو **العلو**؛ لأن السماء من السُّمو، والسمو: هو الارتفاع، فلو قرأت القرآن ووجدت كلمة السماء، فإنك لا تجدها في القرآن دالةً على حدثٍ بمعنى العلو إلا وفيها كلمة (السماء)؛ كـ: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، لا يقول: "أنزل من السماوات"، على معنى العلو، فهنا السماء بمعنى الارتفاع الذي فوقك؛ فما هو دانٍ هو الأرض، وما هو سامٍ هو السماء المرتفع.

فحين يكون الخبر في القرآن، عن شيءٍ ينزل من العلو، كنزول المطر مثلًا؛ فإنها لا تُنسب إلا إلى السماء، لكن يمكن أن تكون كلمة السماء في القرآن، دالةً على ما دلت عليه كلمة السماوات، يمكن هذا. والسماوات سبع كما في الحديث، وعُمّار السماء هم الملائكة، يقول ﷺ: (أطّت السماء وحقَّ لها أن تئط، ما فيها من موضع أربع أصابعٍ، إلا وفيها ملكٌ ساجد، وملكٌ راكع، وملكٌ ذاكرٌ لله -عزّ وجّل-)[٢٤]؛ فعمّار السماء هم

[٢٤] حسنهُ الألباني في صحيح ابن ماجه: (٣٣٩٧).

الملائكة. والسماء أجلّ من الأرض، في نوع خِلقتها، وفي مقصد من فيها؛ ذلك لأنه ليس فيها المعصية، بخلاف الأرض ففيها الطاعة وفيها المعصية، فيها المؤمن وفيها الكافر.

وأما في السماء، فلا يوجد فيها إلا الطاعة، فيه مُبرَّأة من الدَّنَس؛ ولذلك لما أراد الله -سبحانه وتعالى-، أن يُبرِّءِ الكافرين من الطهارة، قال: {لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ}؛ ذلك لأن نجاستهم وعدم طُهرهم يمنعهم من دخول هذه الأرض، أو من دخول هذا الخلق، وهو السماوات. ولذلك هذه السماوات، في نوع خلقتها أجلّ من الأرض.

هل الملائكة في أصل خِلقتهم أجلّ من الإنسان؟ أهل السنة اختلفوا في هذا: فهناك من قال: **بأن الإنسان في أصل خِلقته أجلّ من الملائكة**، لماذا؟ قالوا:

- لأن محمدًا ﷺ هو أعظم من الملائكة.
- ولأن الله -عز وجل- أمر الملائكة بالسجود لآدم، فلذلك قالوا: لا يمكن أن يأمر الله -عز وجل- الفاضل أن يسجد للمفضول، -هكذا يقولون-، فدلَّ على أن الملائكة أدنى مرتبة من الإنسان، وابن كثير في التفسير يميل إلى هذا، يميل إلى أن الإنسان أجلّ من الملائكة.

وهناك من يقول وهو **الأقرب للصواب** ودالةٌ عليه الآية، كما احتج بذلك ابن حزم يقول: "**الملائكة هي أجلّ من الإنسان، في أصل خلقتها**"؛ لأن الإنسان ذكر عنه من الصفات: {حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}، في أصل الخلقة، ذُكر: {مِّن طِينٍ}، {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}، {صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}؛ ولكن الملائكة مخلوقةٌ من نور، والنور في أصل خِلقته أجلّ من الطين، هذا هو القول.

وهذه من المسائل التَّصوُّرية التي لا تشغلنا كثيرًا، لكن نمر عليها لنعرف كيف يجتهد أهل العلم في هذه المسائل.

فالسماوات أجلّ من الأرض، وبغض النظر عن الصواب في الأولى، وإن كان كلام ابن حزم هو الأقوى والأقرب إلى الحق والله -تعالى- أعلم، ولكن هل هناك من بعض الإنسان من هو أجلّ من الملائكة؟ ليس في أصل خلقته، ليس في مادة خلقته، ولكن في قربه وفي تقواه، وفي صلاحه وفي علمه؟ الجواب: نعم، والدليل على هذا: أن رسولنا ﷺ هو خير ما خلق الله من الإنس والجن والملائكة، فرسولنا ﷺ خيرٌ منهم جميعًا.

قوله –سبحانه وتعالى-: {**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**}.

لم ترد كلمة الأرض في القرآن قط على صيغة الجمع، لماذا؟ قال: بعضهم مثل السيوطي في كلامه في (الإتقان)، يقول: "بأن السبب: لأنها ثقيلةٌ على اللسان"، فلو قال: خلق السماوات والأراضين؛ لأن الأرض على الصواب، كما قال الله: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}، وقال –سبحانه وتعالى-: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}؛ فالأراضي سبع أراضٍ، لكن ما هي نوع الأراضي بالنسبة للمخلوق، قوله ﷺ: (من أخذ شبرًا من الأرضِ بغيرِ حقِّه، طوَّقَه في سبعِ أرضينَ يومَ القيامةِ)[٢٥]؛ فدل هذا على أن الأراضي ليست كالسماوات، وإنما هي طبقةٌ فوق طبقة، وليس هناك ثمة أرض تنزل عليها الملائكة، ويعيش عليها الإنسان، ويحصل فيها ما يحصل من كرامةٍ إلهيةٍ، أو معاصي من البشر لربهم، إلا هذه الأرض.

لكن هذه الأرض، هي سبع أراضين كما في الحديث، وليس غير ذلك؛ ولذلك قالوا: السماوات والأرض؛ ذلك لأن صورة الأرض واحدة، والسماوات متعددة، هذا هو السبب الذي عندهم، فقوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}.

ثم قال بعدها –سبحانه وتعالى-: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}؛ أليست الظلمات والنور مخلوقة؟ لماذا لم يقل الله –عزّ وجّل- خلق السماوات والأرض والظلمات والنور؟ مع أن هذا صحيح بإجماع أهل الملة بلا خلاف، ويكفر مخالفه؛ فيما لو قال أحد بأن النور والظلمة ليس من خلق الله –عز وجل- لكفر، فالله كما خلق السماوات والأرض، خلق الظلمات والنور؛ فلماذا نوّع اللفظ هنا؟ فقال: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، ثم نوّع بقوله: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}؟

ابن جرير الطبري –رحمه الله- يقول: "هذا من تنويع الخطاب، لئلا يثقل على اللسان"، فالتكرار يؤدي إلى المِلال، وهذا كلامٌ لا يرضاه أهل البلاغة، بالرغم أن من قاله شيخ المفسرين وإمامه، والناس عالةٌ عليه في تفسير كتاب ربنا، الإمام ابن جرير الطبري، فقالوا: هذا كلام غير صحيح؛ فإن القرآن لا يمكن أن يقع فيه الملال، حتى لو قال، فإننا نرى فيه الكلمات مكررة، ولا يقع منها الملال.

---

(٢٥)

كما في سورة الرحمن: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، وردت واحدًا وثلاثين مرة؛ الثمانية الأولى وردت في الجنة الأولى: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}، وثمانية وردت في: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}، في الجنتان، وهما الجنتان التاليتان في المرتبة؛ وهذا يُفصَّل في السورة التي بعدها: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}، الناس، كم قسم الناس؟ ثلاثة، المؤمنون على قسمين: سابق وأهل يمين، والكفار لهم جهنم، وهي دركات، ولكن لأهل الإيمان جنتان؛ أما جنة ذواتا أفنان، فذُكرت: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، في الجنة الأولى ثمان مرات، ثم ذكرت في المرة الثانية ثمان مرات، وذُكر أهل الكفر سبع مرات، وذُكر خلق الله في الابتداء وما فيه ثمان مرات، فكان العدد واحدًا وثلاثين.

فهنا قالوا: بأن الملال لا يقع في القرآن حتى مع التكرار، وإذا كُرِّر فلا بد من معناه، ولا بد من بلاغةٍ، لا بد من المصير إليها، فهذا التنوع لا بد أن نبحث فيه.

الذين قرأوا القرآن قراءة تبصُّرٍ فيه وجدوا أن **الجَعْل** هو خلقُ الأعراض أي الصفات–أنا أفسر الكلام–، بخلاف الخلق؛ فيكون للأعراض ويكون للأشياء ابتداءً.

فلما ذكر ربنا –سبحانه وتعالى– السماوات والأرض لم يذكر أعراضها، لم يذكر صفاتها؛ ما قال –سبحانه وتعالى– عن عظمتها: وجعلتها عظيمة، ولا قال: وجعلتها متسعة؛ إنما ذكر أصلها، فناسب أن يقول: {**خَلَقَ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؛ لكن لما جاء إلى عَرَض، إلى صفة من الصفات، قال: {**وَجَعَلَ** الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}؛ فإن الظلمة عَرَض –صفة–، والنور صفة؛ فلذلك ميّز بين قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، و{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}؛ إذًا الجعل إذا قابل الخلق يكون إيجادًا للصفات، بخلاف الخلق يكون لإيجاد الصفات ولإيجاد أصل الشيء.

فلما كان ذكر السماوات والأرض، هو إخبارٌ عن خلق الشيء من العدم، وكان دليلًا على أصل إيجاد الشيء، قال: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؛ لكن لما كانت الظلمة صفة، قد يوصف الشيء بالظلمة، شيءٌ مظلم الظلمة صفة له، شيءٌ منوّر، فإذًا النور صفة.

والجَعْل في القرآن له معانٍ، منها:

- معنى **الخلق**: وهو الإيجاد.
- ومنها معنى **الاعتقاد**، كما قال –سبحانه وتعالى–: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا}، جعلوا

يعــني اعتقــدوا.

• والجعل بمعنى **الصيرورة**، وهذا -لمن يعرف اللغة- يقولون: إذا جاءت حاملة لفعلين، كقولك: جعلت الحجر تمثالًا، أخذت مفعولين، فإذا جاءت كلمة جعل مع مفعولين دلّت على الصيرورة، أي: صيَّر، جعل الخير شرًا فهذا بمعنى صيّر، بدّل؛ إما على جهة التبديل الخلقي، كما ذكرنا جعل الحجر تمثالًا، وإما على الجهة المعنوية، في قولنا: جعل الخير شرًا؛ قال أهل العلم: إذا جاءت كلمة جعل بمفعولين دلت على الصيرورة، أي: على التغير والتبدل؛ فلابد من ذكر ما كان، وذكر ما صار؛ جعل الظلمة نورًا، جعل الحق باطلًا، جعل الحجارة تمثالًا، أو ما شابه ذلك.

أما {الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}، العلماء لهم كلام طويل فيها، لكن هنا لا بد أولًا نقف، لماذا قال: {الظُّلُمَاتِ} على صيغة الجمع؟ وقال: {النُّورَ} على صيغة الإفراد؟ لماذا؟ للعلماء مسلكان، وسنرى الفارق بينهما وسيكون هذا مفتاحًا حتى نعرف كيفية قراءة كتب السلف، يعني لو قرأتها أنت تقول كلامًا عاديًا، لكن لما تقارن بين كلام أهل العلم في كتبهم؛ تستطيع أن تميز أذواقهم، القاعدة التي قلناها: بم تميز أذواق الناس؟ بم تميز عقولهم؟ تميزهم بكلماتهم، بما ينطقون. ربما في أربعين أو خمسين تفسيرًا، كلهم يقولون: إنما عُدِّدت الظلمات لصفة خلقها على جهـــــــة القـــــــدر؛ يعـــــــني الظلمـــــــات لا تكـــــــون ظلمـــــــة، علـــــــى معنيـــــــين:

• إما أن **الظلمات متعددة**، كأن تقول: ظلمة القبر، فهذه ظلمة، وتقول ظلمة البحر، وتقول ظلمة المغارة، هذه ظلمات، ظلمة المسجد إذا أُطفئ النور؛ لكن من الذي يُذهب كل هذه الظلمات؟ واحد، إذًا النظر إلى الظلمـــــــــــة باعتبارهـــــــــــا قـــــــــــدرًا متعـــــــــــددًا، خلقًـــــــــــا متعـــــــــــددًا.

• أو النظر إلى أن **الظلمة ليست شيئًا واحدًا في ذاتها** إنما الظلمة هي سُدفٌ مجتمعة؛ فإن الظلمة في داخل هذا البيت لو أظلم، ذهبت الشمس، ذهب الضوء؛ فإنها لا تكون ظلمة واحدة، إنما هي طبقات، فهذا لمن نظر إلى تعدُّد الظلمات، باعتبار تكوينها وأن الذي يُذهبها نورٌ واحد.

هذا ربما لم أجد تفسيرًا ممن خاض في هذه المسألة إلا ذكرها؛ ولما ترجعوا إلى كتابٍ هو بين أيديكم، والناس حين يستنصحون: دلونا على كتاب تفسير. فكل مرة تقول لهم: عليكم بهذا التفسير. وهم يقرأونه يقلبونه، ولا يعرفون عظمته، وما فيه من صفات، وما فيه من خصالٍ وميزات، لا ينتبهون لها.

ابن كثير قال: "والمقصود في تعدد وجمع الظلمات وإفراد النور وذلك للتعظيم"، واستدل بقوله -تعالى-: {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا}، فلما كانت الشمائل أقل جُمعت، متى يكون الرجل عظيمًا؟ إذا كان مفردًا، متى يكون الشيء عزيزًا؟ كلمة العزيز مأخوذة من معنيين:

المعنى الأول: عزَّ الشيء، نقول هذا شيءٌ عزيز: يعني **قليل**؛ فتصور أن شيئًا لا يوجد إلا هو في الوجود، كيف يكون عظيمًا؟ لكن لو تعدَّد تقل قيمته، فكلما كان نادرًا كلما غلا وعظُم شأنه؛ فلما كان اليمين عظيمًا أفرده، ولما كانت الشمائل على غير ذلك عدَّدها؛ فقال: {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا}، هذا المعنى أخذه ابن كثير، وقال: "لما كان النور عظيمًا عزيزًا أُفرد، بخلاف الظلمات، فإنها ليست كذلك"؛ لهذا السبب نقول: اقرأ ابن كثير؛ فإنك لا تعرف قيمته حتى تقارن بينه وبين الآخرين.

قوله —سبحانه وتعالى-: {**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**}.

الظلمة معروفة، والنور معروف. —أنا لا أفسر الكلام، أنا فقط آخذ كلام أهل العلم وأفسره لكم لا أزيد؛ لو رجعت إلى بعض التفاسير، تجد هذه الكلمات تمر عليك، فإذا لم تفهمها لم تتذوقها-، قولهم: **الظلمات أمرٌ سُلوبي، والنور أمرٌ وجوبي**؛ ويقصدون بهذا أمرًا عظيمًا مهمًا جدًا، هذا ليس فقط متعة للذهن، سنبيّن أهميته في بنائك أيها المسلم، في حركتك في الحياة، ليس المقصد أن نأخذ هذه الكلمات ونتمتع بها، إن لم تنزل نورًا في القلوب، تتحرك بها الإرادات في الطاعة والعبادة، فهذا العلم لا يفيدك. أنت جلست كأنك حضرت مباراة كرة قدم وتمتّعت بها وخرجت وانتهى الموضوع؛ إذا لم تتحوّل هذه المعاني إرادةً في قلبك، فأنت قد ضيَّعت وقتك.

فقولهم: {الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}؛ قال: الظلمات شيءٌ سلوبي، ما معنى سلوبي؟ يعني هي ليست شيئًا في ذاتها، والنور أمرٌ وجوبي: هو أمرٌ حقيقي يُثبَت بذاته، ومعنى الكلام أن الظلمات لا تكون إلا مع غياب النور، ما هي الظلمات؟ هي غياب النور، فإذا حضر النور لم تكن الظلمات، فالظلمات لا تستطيع أن تحضر، لما قال النبي: (إذا أقبل الليل)، كيف أقبل الليل؟ بغياب الشمس، إذًا لا يستطيع هو أن يأتي؛ وكل ما في الوجود من معاصٍ هي ظلمات، والحق هو النور، وسبب وجود الظلمات في الوجود هو غياب النور، فلو جاء النور لذهبت الظلمات.

انظر إلى قوله تعالى-: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ}؛ ما قال: صار، بمجرد أن يأتي الحق وهو النور، تذهب الظلمات. {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ}؛ فأهل الحق حين يشكون من ضعفه إنما يشكون من عجزهم، وكسلهم في عدم مشيهم بالحق لإذهاب الباطل، وإلا: {إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}.

قوله: {زَهُوقًا}: جاء بصيغة الحال الدالة على الاستمرار، لأنه ليس للباطل إلا هذه الصفة، الباطل ليس له إلا هذه الصفة، أنه {زَهُوقًا}؛ هذه {زَهُوقًا} حال، والحال دالٌ على الاستمرار. ما معنى {زَهُوقًا}؟ أي لا روح له، زهوقًا يعني "هرّيب"، يذهب، يزهق؛ وقوله: {زَهُوقًا} دلالة على أنه لا روح له، دائمًا هو زاهق، فأين تأتي إليه الروح ليحصل له الزهق؟ وهو {زَهُوقًا} على صفة الدوام؛ إذًا هو لا روح له، وإنما يحصل له الوجود، بسبب غياب الحق.

ولذلك قالوا: الظلمات سلوبية، يعني ليس لها حقيقة إلا بغياب النور، هذا هو الواقع؛ وهذا نستفيد منه في حياتنا.

{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}؛ قوله: قذيفة، وذلك لذاته، لا بمعنى القوة التي فيه، أو القوة في الفعل الذي حدث. قوله: {بَلْ نَقْذِفُ}، وانظر إلى فعل الرد، لما قال: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ} هذا فعله، نسب الفعل للحق: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ}؛ لكن لما كان الفعل منسوبًا إلى الله، ماذا قال؟ {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ}؛ فدل على أنه في الواقع يمشي الحق فقط، وأما أثره فهذا فعل الرب، هو الذي يحارب؛ لما إنسان يعادي الحق يحارب من؟ يحارب الله.

لذلك ذكر الله قال: {بَلْ نَقْذِفُ}؛ هذا فعل الله، وفعل الله لابد أن يظهر فيه الجلال، وأن تظهر فيه العظمة، وأن يظهر فيه الكبرياء، وأن يظهر فيه القوة؛ وأما الحق حتى مع أنه الحق فيأتي أنه يمشي.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}؛ ما معناها الظلمات على المعنى التكويني؟ هناك بعض أهل العلم من قال: الظلمات المقصود بها المعاصي والكفر والشرك، والنور: إنما هو الهداية، ابن عطية -إمام من أئمة التفسير المغاربة- قال: "هذا لغز القرآن، ولا ينبغي حمل القرآن على هذه المعاني البعيدة"، وإنما المعنى الذي يلائم أنه قال: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؛ فبعد أن خلق السماوات والأرض، قام فيها عرَض الظلمة، وقام فيها عرَض النور.

لماذا قُدِّمت الظلمات على النور؟ بعض أهل العلم قال هذا لأن الظلمات هي الأصل في الشيء، ويأتي النور بعد ذلك عليها؛ وأول ما خلق الله الظلمة، ثم أفاض عليها من نوره –جلّ في علاه–.

قوله –تعالى–: {النُّورَ}: هذه كلمة عظيمة، تفصيلها في نسبتها لربنا: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، هذا محلها في سورة النور، وهذه سورة جليلة، سورة النور سورة النور؛ لما فيها من أحكام شرعية يُنير الله –عز وجل– بها المجتمعات الإسلامية، بغضّ البصر وحفظ الفرج، ما بين غض البصر وحفظ الفرج أحكامٌ كثيرة؛ منها مد اليد، منها الحديث باللسان، إلى غير ذلك مما تعلمون.

قوله –تعالى–: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}.

تكلمنا عن حروف المعاني، حرف ثم، هذا لتعرفوا لما قال ابن خلدون –رحمه الله–: "إن الله –عز وجل– جعل القرآن معجزًا ولم يجعل الإنجيل معجزًا، ولم يجعل التوراة معجزًا؛ لأن اللغة الحاملة لهذا الإعجاز"، لغاتهم لم تكن قادرة على الإعجاز، ولما كانت هذه اللغة لغةٌ شريفة، لغةٌ جليلة، هذه اللغة العربية لغةٌ شريفة، ولغةٌ جليلة، ولغةٌ عظيمة، والقرآن حافظ عليها حتى في أصواتها.

ما أول سورة تعلمها لابنك بعد الفاتحة؟ قال أهل اللغة: "أول ما يذهب من اللغات أصوات الحروف، أصوات الكلمات"؛ أول شيء إذا قدَّر الله أن تذهب لغة من اللغات يُذهب أصواتها، أصوات كلماتها مِن سَمْع وألسنة متكلّميها، انظروا القرآن كيف حافظ حتى على السمع، ماذا قال؟ انظروا لهذا التكرار، انظر لذوقك! {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}؛ هو يريد أن يجعلك تكرر هذه الكلمة، مع المعاني العظيمة، ولكن ليس هذا فقط هو المعنى المراد، ولكنه من المعاني التي يريدها الله.

فقال: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}؛ (صوت السين) ابنك لازم يُخرجها، ويأتي السين يقول سيبويه: "حرف السين حرف صفير"، ويضبط لك مخرجه على الدقة. {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ* مَلِكِ النَّاسِ* إِلَهِ النَّاسِ* مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}، انظر! بعد ذلك: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}؛ الصغير ثقيلة عليه، لكن لا، اقذفها، فهو يستطيع أن يتحمّلها، بل يتقنها خيرًا من إتقانك: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}؛ وهكذا.

فالقرآن حافظ ليس فقط على كلمات، ولا على تراكيبها، ولا على بلاغتها، ولا على جلالتها؛ حافظ على اللبنة الأولى فيها، وهي صوت حروفها.

فهذه كلمة {ثُمَّ} -وليس هذا من المبالغة-، لما وقف العلماء على كلمة {ثُمَّ}؛ هنا وضعوا أنفسهم أمام مقامٍ جليل، {ثُمَّ} ماذا تعني؟ العلماء والناس العاديّون يعرفون من معاني الحروف أن (ثم) تفيد التراخي؛ هذا كلام عادي أَمِرُّوه بسرعة، ولكن هذا لا ينفع البلاغي، لا يكفي.

والفرق بين (ثم) و(الفاء) و(الواو) معروف؛ قالوا: (ثم) تفيد: التراخي، و(الفاء) تفيد: الفُجائية، و(الواو) تفيد: مطلق الجمع ولا تفيد الترتيب؛ يعني لو قلت: جاء عمرٌ وعلي، لا يعني أن عمر قد سبقه، فقط مطلق الجمع أنهم قد جاءا معًا. لكن هذه (ثم) لماذا؟ ما هو الشيء الذي هو فوق ما يريدونه من التراخي؟ قالوا: "{ثُمَّ} بسبب تراخيها، أوجدت معنًى عظيمًا وهو الاستبعاد"، ما معنى الاستبعاد؟ بعد كل هذا: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}؟! واحتجوا ببيت الشعر:

يرى غمرات الموت ثم يخوضها؟!

فـ(ثم) هنا تفيد الاستبعاد؛ لكن كيف نشأ الاستبعاد؟ من بطن الاسترخاء. لو قلت: جاء عمر فعلي. فدل علي أن علي جاء عقب عمر مباشرة؛ لكن لو قلت: جاء عمر ثم علي، فبينهما تراخٍ، وهذا مكرر في القرآن -إلا في مواطن أشكلت على بعض أهل العلم-؛ ولكن لم يقف عندها أهل البلاغة، لم يقولوا استرخاء؛{ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، قالوا: ثم هنا تفيد الاستبعاد؛ لأن الاسترخاء أو التراخي إنما يفيد التفكُّر.

بمعنى أنك حين تتفكر، فترى خلق السماوات، وأنه لا يمكن إلا أن يكون هو الله هو الذي خلقها، وهذه الأراضيين، ولا يمكن إلا أن يكون هو الذي خلقها؛ وتتأمل في عظمة النور، وتتأمل في هذه الظلمة، فبعد أن ترى كل هذه القدرة: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}!؛ فلما كان الاسترخاء تفكرًا، كانت النتيجة مستبعدة؛ فقال: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}. فهنا {ثُمَّ} تفيد معنى الاستبعاد، وقلنا احتجوا بقوله:

يرى غمرات الموت ثم يخوضها؟!

استبعدوا هذا منه.

والذي يُلاحظ في القرآن؛ أن الله -عز وجل- للدلالة على قدرته يذكر التناقض في الخلق، ومرات يكون التناقض في الوحدة؛ لو خلق الله شيئًا على جهةٍ واحدة؛ لقال القائل: إنه لا يقدر إلا هذا. لو خلق الظلمة؛ لقال قائل: لا يستطيع أن يخلق النور. ولو خلق النور ولم يخلق الظلمة؛ لقال قائل؛ أنه يستطيع أن يخلق النور ولا يخلق الظلمة.

فلما حصل التنوع دل على كمال القدرة، فهو واحدٌ يخلق الشيء وضده، ومن هذا الشيء يتم التنوع، وهذا دليل على أنه واحد؛ يمكن واحد كما يقول (المثنويَّة) -عُباد النار-: "هناك إله خلق النور، وهناك إله خلق الظلمة"؛ لكن العجيب أن الظلمة والنور من شيءٍ واحد كما بيَّنا، كيف تُخلق الظلمة؟ إذا أُزيل النور؛ فما دام هذا الإله عنده القدرة أن يزيل النور، إذًا هو الإله، والذي ضعف خلقه هو الذي لا يستحق أن يكون إلهًا؛ فمن شيءٍ واحد يتم التناقض، ويتم التنوع.

الخلية الحيوانية، خلية اسمها خلية؛ خليةٌ في وجنتك، خليةٌ في قحف رأسك، خليةٌ في عينك، خليةٌ في رجلك، هي من شيءٍ واحد، مع هذا الواحد تنوَّع الوجود؛ فدل على أن الذي خلق واحد وتنوَّعت قدرته، لو رأينا شيئًا على غير الشيء لقلنا لربما هذا خلق من هذا الصنف، وهذا خلق من هذا الصنف، لكننا نرى: {يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ}؛ فدل التنوع في الواحد على أن الخالق واحد وتعددت قدرته —جل في علاه-، وقلنا الخلية مثال.

فقط أقول لكم كلمة: الكلمات يجب أن تُمضغ في الذهن واللسان كما تمضغون الشعر أو الغناء، اليوم ما أدري الناس، إلى الآن يترنمون أو لا يترنَّمون؟

قال: (للَّهُ أشدُّ أَذَنًا إلى الرجلِ الحسنِ الصوتِ بالقرآنِ منْ صاحبِ القَيْنةِ إلى قينتهِ.)[٢٦]؛ لما واحد القينة قاعدة تضرب عود، والسَّامع جالس أمامها ويترنم ويفهم؛ كيف تنتقل من مقام إلى مقام، من رتم إلى رتم، وهكذا يتذوق، العامي تمر عليه يقول: ما هذا الكلام؟ لكن الذوّاق!

فأنت مع كلام ربنا يجب أن تتذوق، يجب أن تقف عنده، مرت كلمة وأخذناها عليك أن تذهب؛ والشيء مرات لا يكشف عليه إلا بالتَّرنُّم، بكثرة القراءة؛ ولذلك قال العلماء عن القرآن: "ولا يَخْلَق من كثرة الرد"؛ ما معنى يخلق؟ يبلى؛ لما أنت بتلبس الثوب أول مرة، وثاني مرة وسنة، يبلى. لكن لو أنت رجعت إلى القرآن، مرةً بعد مرة؛ كلما رجعت إليه تاليًا، فتح الله لك من المعاني والتذوق.

هل يمكن أن تتذوق، من غير معرفة معنى؟ نعم، مع القرآن. وهذا بابٌ في الإعجاز، أشار إليه الرُّمّاني؛ ما هو الأثر النفسي هذا تجدونه، حتى أنهم أجروا بعض التجارب في أمريكا؛ أحضروا مرضى الصَّرْع، لا يعرفون العربية، وقرأوا عليهم القرآن فنزلت درجة الصرع في عقولهم.

---

[٢٦] ضعفهُ الألباني في السلسلة الضعيفة، وفي ضعيف الجامع، وفي ضعيف ابن ماجه.

فأنت لما تخرج من هذا المجلس، ردد هذه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؛ وإذا كان صوتك جميلًا -ليس مثل صوتي- فرنمها؛ فإن الله -عز وجل- يحب التغني في القرآن (وليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن)[٢٧].

قوله -تعالى-: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، نقف عندها -إن شاء الله-.

وبارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

---

[٢٧] صححهُ الألباني في صحيح الترغيب: (١٤٥١).

الدرس الخامس

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيد المرسلين وإمام المتقين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من اتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وجعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم، آمين.

أما بعد؛

مازلنا مع مطلع السورة الجليل، كأنه يفتح لك عظمة المتكلِّم، معانٍ عظيمة لـمّا تفتَتِح هذا الكلام {**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**}.

لم يخلقها فقط وتركها على حال واحدة؛ بل نوّع فيها أحوالها، وقال: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}، وبعد هذا يفجأنا القرآن بأن هنا من ينكر هذا، فبعد هذه العظمة وهذا الجلال وهذا النور الذي يغشى القلوب وتدركه العقول بتميُّز ووضوح وبتنوّعُ الخطاب في قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} ثم يفجأنا مُستَبعِدًا بقوله: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}.

كلمة "رب" موطنها من هذا السياق موطن عظيم، تستفزُّ كل قذارات الوجود من أجل أن تُلقيها على من كفر به؛ لأن كلمة "الرب" هذه تستطيع أن تضع تحتها أجلَّ ما يقال من الكلمات التي تدل على الرعاية والعناية، وتدل على العطاء والكرم، فهو الذي أوجدك، وهو الذي رزقك، وهو الذي أعطاك وهو الذي منحك، فتأمل موضع كلمة "ربّهم": {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا **بِرَبِّهِمْ**}؛ وكأنك حتى تتذوق هذا السياق تأمل رجلًا يحدث رجلًا آخر عن أبيه، عن أمه، ثم يكفي أن تقول له هذه الكلمة -وهو ينكر نعمة والديه عليه-: "ثم تفعل هذا بأمك؟ ثم تفعل هذا بأبيك؟"، يكفي. أو أن يكون رجلًا من عليك بالعطاء فتقول: "ثم تفعل هذا بهذا الرجل؟".

فكلمة "الرب" هنا إنما هي كلمة كما أنها بيَّنت عظمة الرَّب في قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}، وبيّنت عظمة الله فيها، بعد ذلك كأن الله في القرآن يريد أن يقول: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ}، يريد أن يبيّن خِسَّة هؤلاء وحقارتهم فيما يقابل ما أعطاهم الله من النِّعم، هذا مع تأمّلك لقوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ}، "ثم" هذه التي قلنا عنها شيئًا مما يعرفه العرب وانها تدل على الاستبعاد، {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} يُستبعد منهم هذا ولكنهم وقعوا فيه، قال: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ}.

تأملت القرآن أيها الإخوة، في أعظم آية فيها أجلُّ ما يقال عن الحبيب، وما هي آية فيها مدح النبي ﷺ، وإذا هي مَطلع الوجود، بعد هذه المقدمات القرآنية في سورة البقرة في حال الناس وتنوّعهم، ثم خَلْق السماوات والأرض، من أجل أن يشرح بداية الخلق ووجود الإنسان، قال سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}، مع أن الحديث كلّه يدور حول الإنسان وليس عن النبي بخصوصه، ولو لم يكن هناك مقصد لربنا لكان الخطاب مُبتدأً بقوله: "وإذا قال ربكم"؛ لأنه حديث عنك أيها الإنسان، لأنه حديث عن جنس الإنسان، لكن لما كان أجلُّ ما في الوجود من الإنسان وأعظم ما في الإنسان هو رسولنا؛ كان الخطاب إليه، فكأن الوجود كله لم يكن مقصودًا في وجود هذا الإنسان إلا بإظهار عظمة هذا الذي قال له: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}، كأنّ الوجود غير موجود، كأنّ الإنسان غائب ولم يبقَ إلا شخص واحد هو رسولنا ﷺ يقول له: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}، والمقصود هو الإنسان، ولكن لـمّا كان الإنسان هو فقط في كمالاته وفي عبوديّته كلُّه مختزلًا في شخص النبي ﷺ قال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}.

وهنا يقول الله -عزّ وجل-: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}؛ العَدْل هو لا بد من وجود شيئين، ولذلك العرب تقول على شِقَّيّ ما يُحمل على الدابة "عِدْل"، ولا أدري هل ما زالت تُستخدم إلى اليوم أم لا، ولكن العرب كانت تستخدمها إلى قريب، يقول: "عِدل الدابة"، عِدلها هو الشِّق الثاني منها، فالعَدْل لا يكون إلى في توازي شيئين يُقابل أحدهما الآخر، ولذلك العَدل هو أن تأتي بالشيء وأن تضع مقابله ما يعدله، فعندئذٍ يقال عدل، وأن تُقيم العدل أي أن تحكم على الـمُحِقّ بأنه مُحق، وعلى الـمُبطِل بأنه مبطل، والآخذ بأنه آخذ، وعلى المظلوم بأنه مظلوم؛ أي أعطيت الشيء ما يوازيه. وتُطلق -وهذا من جمال العربية- على الانحراف، حين تقول: "عَدَل عن الطريق"؛ أي أخذ ما يوازيها، قد يكون عدل عنها بحق، وقد يكون عدل عنها بباطل، فإنك

تنحرف إلى ما يقابلها، سواء من أفكار عدل عن هذه الفكرة، كان هذا يمشي إلى هذا الشق فمشى إلى غيره فعدل عنه، فكانت الكلمة دالَّة على أمرين في معناها.

والقرآن -وهذا شيء عجيب- يُطلق الكلمة الواحدة في معنييها، على ما يظهر في هذين الـمَعنَيَيْن من التَّضادّ، في وقت واحد كل واحد منهما يدل على الحق. فنحن قلنا: "عدل" أي أقام العدل أي الحق، و"عدل" انحرف قد يكون انحرف عن الحق مطلقًا أو انحرف عن الباطل.

فهل هذه الكلمة {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، هل هي على المعنى الأول؛ أي أقاموا عِدلًا له مساويًا له؟ أم أنها عل المعنى الثاني؛ أي انحرفوا عن الحق؟ هذه الكلمة شاملة للمعنيين، فقوله -سبحانه وتعالى-: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} على **المعنى الأول** أي جعلوا لله -عز وجل- مساويًا، هذا المعنى الأول، فعدلوا أي أقاموا له عدلًا مساويًا من غير حق، فهو الذي خلق، وهو الذي جعل، وهو الذي أوجد، وهو الذي ربّى، فأعطى ومنح وأحيا وأمات، ثم جاء هؤلاء الكفرة فجعلوا لله -عز وجل- عدلًا أي جعلوا له مساويًا، قال: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}؛ أي يُقيمون له مساويًا.

والمعنى الثاني: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}؛ كان ينبغي أن يسيروا في الاتجاه الصحيح عندما علموا أن الله الذي خلق، وأن الله -عز وجل- هو الذي ربّى، كان ينبغي أن يسيروا على الجادّة في عبوديتهم له، ولكنهم انحرفوا فعدلوا عن الحق.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} يحتمل هذين المعنيين، وقوله: {يَعْدِلُونَ} تأتي بمعنى يشركون، ما معنى الشريك؟ أن تجعل له ندًّا مساويًا بأن تنسب صفة لا تليق إلا به لغيره، كما قالوا: "اللات والعزّى"، اللات هي انحراف عن اسم الله "الله"، انظروا إلى التشابه: قال تعالى: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} ما اللحد؟ الإمالة، تعرفون القبر اللحد ماذا يعني فيه؟ الإمالة، فالعدل هو الإمالة، ولذلك اللحد هو الشرك، والعدل أن تجعل له في باب الألوهية هو الشرك، فماذا كانوا يلحدون؟ كانوا يسمون آلهتهم بأسماء الله، ولكنهم كانوا يلحدون فيها اسمًا، كما يلحدون فيها صفة، فالعزّى هي إلحادٌ في اسم الله العزيز، ومناة هي إلحادٌ

في اسم الله المنّان، فهي إلحاد في أسماء الله -عز وجل- لأنها دالة على الإلحاد في صفات ربنا -سبحانه وتعالى-.

فقوله: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} على ماذا تُطلق؟ هل هو العدل في نسبة الخلق لغيره؟ هل هو العدل أي الظلم أو الانحراف في نسبة صفات الخلق لغيره؟ أم أن الأمر أجلّ؟ الأمر أجلّ، وعلماء التفسير الذين يهتمون بمثل هذه المسائل كما ذكر ابن القيم في هذا الموطن، ذكر في (طريق الهجرتين) كلامًا جميلًا، قال: "ليس المقصود في هذا العدل نسبة صفات الربوبية إلى غيره -جلّ في علاه- لكن المقصود هو العدل هنا في صرف أعمال الألوهية لغيره"، ما الفرق بينهما؟ الذي أشرك في الربوبية كما قالوا له الولد، فهذا شرك في ربوبيته لأنه واحد، فليس له ولد وليس له زوجة، هذا شرك في ربوبية الله، الذين جعلوا له مشاركًا بنات كما قال المشركون، كما سمّوا الملائكة بنات الله، فهذا كله من شرك الربوبية. ولكن الشرك الأعظم وهو مبني على هذا الشرك وهو شرك الإلهية في أن تصرف عملًا من أعمال العبودية لغير الله.

هذا هو التوحيد؛ التوحيد هو ألا تعمل عملًا من أعمال الألوهية مثل الدعاء التي يدخل تحتها الصلاة والاستغاثة، مثل الصوم هذه كلها من أعمال النُّسُك، لا يجوز أن تصرفها لغير الله، من أعمال الإلهية ألّا تحب إلا ما يحب الله، وهذا هو الولاء والبراء، وألا تبغض إلا ما يبغض ربنا -سبحانه وتعالى-، هذا من أعمال الإلهية، من أعمال القلوب التي يجب أن تصرفها لله، ومن أعمال الإلهية التي يجب أن تصرفها لله ألّا تخضع لشريعة غير أمره ونهيه.

{ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} صار عندنا توحيد وهو توحيد فعل الرب وصفاته -جل في علاه-، هذا هو توحيد الربوبية، أن تقول أنه لا خالق إلا الله، فقد نسبت له ما يجب عليك أن تنسبه له، وهذا هو من فعله دون فعل سواه، وحين تقول عن الله -عز وجل-: المحيي الرزّاق المميت، فهذا هو توحيدك بمعنى أن تقول أن هذه الأفعال لم يفعلها إلا واحد، وهذه الصفات لا تليق إلا بواحد، ماذا يسمّى هذا؟ توحيد الربوبية.

لكن حين يأتي العبد إلى أعماله من الطاعات وقلنا ثلاث؛ **أعمال النُّسك** كالصلاة والدعاء والاستغاثة، ما الفرق بين أعمال النسك وغيرها؟ هذا باب علميّ يكفي أن أمُرّ عليه، فيقول العلماء أن أعمال النسك هي التي لا يدخل فيها القياس، ولا يجوز أن تُصرف لغير الله، كالسجود والذبح والدعاء إلى غير ذلك، فهذا توحيد لربنا يسمى توحيد النسك. وأما الثاني: ألا تحب إلا ما يحب الله وألا تبغض إلا تحت أمر الله، وأن تبغض من أمر الله ببغضه، وهذا اسمه **توحيد الولاء والبراء**. أما الثالث: أن لا تأخذ إلّا من شرعه وهذا هو **توحيد التشريع في الحكم والقضاء**. هذه هي أنواع توحيد الألوهية.

قال: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، بعد ذلك ماذا قال الله -عز وجل-؟ سنعود إلى آيات لنعرف بناء السورة القرآنية، قال بعدها: {**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ**}.

حتى تتمرّس على تفسير كتاب الله -وهذا من قواعد التفسير- عليك أن تعرف الآية بأجزائها، ما هي أجزاء الآية؟ الكلمات، يجب عليك أن تتعلمها وأن تتذوقها، كما رأينا في "خلق" و"جعل"، كما رأينا في قوله: "بربهم"، كما رأينا في الكلمة الجليلة: "الحمد"، يجب عليك أن تعرف هذه الكلمات ويصبح لها مذاق في عقلك وقلبك، هذا أول باب.

الباب الثاني يجب أن تعرف موضع هذه الآية من السورة، وقبلها يجب عليك أن تعلم موقع الآية من الآيات التي قبلها، يسميها العلماء "**السِّباق**"، إذا سمعت عالمًا يقول: "سباق الآية كذا"، يكون المقصود بها ربط هذه الآية بما قبلها، ويقولون "**السياق**"، وسياق الآية كذا المقصود موضعها مما قبلها وما بعدها، فعليك أن تتأمل هذا الموضوع.

وهناك باب عظيم، وهو عليك أن تعرف كيفية بناء السورة القرآنية؛ لأن معرفتك لبناء السورة القرآنية يحل لديك المشاكل في أسئلة "لمَ؟"؛ الأمثلة توضِّح، عندما تعرف تركيبة أو بناء السورة القرآنية ككل -وليس المقصود سورة بعينها- حينئذ تستطيع أن تحل المشاكل، لو سأل سائل في سورة البقرة تجدون آية ربما المرء يتساءل: لماذا وُجدت هذه الآية هنا؟ لا يمكن أن تعرف سبب ورود هذه الآية إلا بربطها بآيات مثيلة لها

فتعرف لماذا وقعت على هذا الموقع، مما قلنا من السياق والسباق، آية (٦١) في سورة البقرة، -وهذا لا يُعزى إليه علميًا ولكن من أجل السرعة وإلا لا يُعزى في القرآن للصفحات، إنما يعزى للآيات-، ألم تعجبوا أن الآية في نهايتها بعد قوله -سبحانه وتعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}، لماذا جاءت الآية التي وراءها: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ}؟

لا يمكن لك أن تقترب من الحقيقة حتى ترجع إلى مثيلاتها من الآيات، أين مثيل هذه الآية؟ اذهبوا إلى سورة آل عمران عند قوله {لَيْسُوا سَوَاءً} آية (١١٣) صفحة ٦٤، انظر إلى قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}، ماذا قال بعدها؟ {لَيْسُوا سَوَاءً} الكلام الآن لا تسأل لماذا، لأن الكلام متصل، فبعد أن حدَّثنا القرآن عن حالهم في قتل الأنبياء واعتدائهم وظلمهم قال ليسوا سواء، أليس كذلك؟ طبّقها على الآية (٦١) التي تقدمت في سورة البقرة، وكأنه يقول: ليسوا سواء، إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ليسوا سواء، فأنت لا تستطيع أن تجيب على أسئلة تمر عليك إلا بهذا المعنى.

وسأترك لكم لغزًا تحلّونه معكم، فاذهبوا إلى سورة النحل، في الصفحة الثانية منها صفحة ٢٦٩، ماذا يقول؟ قال: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} هذه تسمى الفاصلة القرآنية، ماهي الفاصلة القرآنية؟ هي خواتيم الآية، إذا سمعت عالمًا أو قرأت في كتاب عالم يقول: الفاصلة القرآنية، ما المقصود بها؟ خواتيم الآية. فقوله -عز وجل-: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} أين الفاصلة؟ {إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} لماذا غفور رحيم؟ ما مناسبة ذكر النِّعم على الغفور الرحيم؟ حلُّها موجود في القرآن ارجعوا إليها، {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [سورة إبراهيم].

الآن بناء السورة قلنا أنه مهم من أجل الإجابة -والأمثلة كثيرة سنأتي عليها- سورة الأنعام لو أنك أدركتها أخذت مفاتيح القرآن كلها، واضح؟ انظر إلى قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ} العجيب أنه لما يأتي القرآن على ذكر السماوات والأرض يُثنِّي بذكر الإنسان على معانٍ متعددة يمكن أن يشرحها في آيات، ويمكن أن لا

يشرحها فيتركها لغزًا لك تعود إليها، من هذه السور التي ذُكر فيها خلق السماوات والأرض وهي تشابه مَطلع هذه السورة، ارجعوا إلى سورة النحل، في أولها يقول الله -عز وجل-: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} هذا مطلع يتكرر في القرآن كقوله: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}، كقوله: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}، انظر: أجلّ ما في السورة مطلعها، فلما يأتي أمر في مطلع السورة دلالة على أن هذا الأمر عظيم، فحين تُذكر القيامة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} في مطلع سورة الحج، فحين يتكرر أمر القيامة في مطالع السور دلالة على أنها عظيمة، وحين يتكرر الحمد دلالة على أن الحمد عظيم، مطالع السورة كأنها وجه السورة، ووجه القرآن كله الفاتحة، هي ديباجة القرآن.

الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- له توصيف للفاتحة عظيم، يقول: "كأن الفاتحة هي ورقة الاستدعاء"؛ تفسير لكلمة العلماء "ديباجة القرآن"، ما معنى الاستدعاء؟ يعني أنت تدخل تريد حاجة، فتقدِّم فقط رؤوس أقلام لقضيتك فيها كل ما تريد، يقول الشيخ دراز: "لو لم تأتِ الفاتحة لما عَلِمنا لماذا القرآن"؛ لا نستطيع أن نعرف لماذا هذا القرآن دون أن يأتي في مطلعه استدعاء سورة الفاتحة، هذا هو القرآن، الفاتحة التي نكررها في كل صلاة وفي كل ركعة.

انظر إلى قوله تعالى في الآية الثالثة في سورة النحل لتدلك على بناء السورة في هذا المعنى، ماذا يقول ربنا -سبحانه وتعالى-؟ {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ}، {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

قال: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ} بيان هذا في سورة الأنعام {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ}، فبعد أن ذكر السماوات والأرض، وإلا فالسماوات والأرض إنما ليس فقط عظمتها بما خُلقت به وما خُلقت عليه وما خُلقت فيه، وإنما عظمتها لما خُلقت له، والإنسان هذا المسكين هو المشكلة، فبعد ذكر خلق السماوات والأرض يثنّي القرآن- كما نرى في مواطن أخرى- يذكر الإنسان، هنا قال في النحل: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} فكّر فيها، انظروا في سورة السجدة لتروا بناء السورة، ماذا يقول الله -عز وجل-، صفحة ٤١٥، انظر وتأمل هنا التفصيل، قال: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}، ثم من بعد قوله: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}، هذا تفصيل، هذا الذي يسميه بعض علماء البلاغة "**الاستطراد**"، وهذه كلمة لا أحبها، وبعض أهل العلم كابن الأثير أنكرها، والأفضل تسميتها "**فتح الأقواس**"، هذه تسميتي لهذا النوع من أنواع البلاغة.

وهذا علم عظيم، نمر عليه مرورًا سريعًا؛ لا يمكن أن تربط آيات السورة مع بعضها البعض إلا بعد أن تعلم هذه القاعدة؛ "فتح الأقواس"، واستبعدوا كلمة "الاستطراد" لأن معناها أنه شيء زائد. الناس كثير منهم لا يتّمتعون مع القرآن، لا يعلمون لماذا هذا؟ المتعة تنبع من العلم، كما قال الزمخشري:

سَـــهَري لتَنْقِـــيحِ العلـــوم ألـــذُّ لي ... مِـــنْ وَصْـــلِ غَانيـــةٍ وطِيـــبِ عِنَـــاقِ

وهذا ليس موجودًا اليوم!

انظر إلى ما بين أيدينا في سورة السجدة، وهكذا نراها في سورة التغابن، انظر إلى قوله بعد ذلك، قال بعد فتح الأقواس: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} هذا من فتح الأقواس، قال: {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} من فتح الأقواس قوله {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، لا يمكن أن تفهمها حتى تطبّق قواعد اللغة العربية والبلاغة عليها.

وكذلك بسرعة نذهب إلى سورة التغابن -أنا هنا أنصِب فقط إشارات والباقي عليكم، فقط نعطي أمثلة، والأمثلة ليست للاستغراق، لا تستغرق كل العلم، هي تعطيك صورة-، صفحة ٥٥٦، انظر هنا قدَّم خلق الإنسان على خلق السماوات، فقال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} انظر: ذكر الخلق قبل خلق السماوات والأرض، ولكنه لم يكتفِ بما ذكره من خلق التنوُّع في الوجود، هذا خلق تنوع وهو خلق الاعتقاد في الوجود، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ} ماذا أراد أن يقول منها؟ {فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} هذا ليس حديثًا عن الخلق، وإنما حديث عن تنوّع الاعتقاد ومقصد وجود الإنسان، فلما فرغ منها وذكر خلق السماوات والأرض، وكأن القرآن

يقول لا بد أن أذكر الإنسان بعد خلق السماوات والأرض على جهة النوع لخلقه، فقال: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}.

ما معنى فتح الأقواس؟

هذا في السور الطويلة شاقٌّ شرحه ويحتاج إلى جهد، ولكن نذهب إلى سورة من السور المقبولة في الطول وهي سورة فُصّلت، أولًا فتح الأقواس شرطه أن تعلم مقصد السورة، هذا المقصد يبقى سائرًا في السورة من أولها إلى آخرها، ولكنك أنت تعجب فترى أمورًا لا تراها ضمن هذا السياق الذي تريده!، وهذا من قَبيل امتحان القرآن لقارئه.

هذا كلام قلته لكثيرين وأقوله لكم، بعض أهل العلم يقول أن التَّنقيط لم يكن في العربية وهذا غير صحيح، فقد وُجدت بعض الرُّقُم القديمة في الجاهلية لكتابات عليها التنقيط، وزعموا أن الحجَّاج هو أول من نقَّطها، والصحيح أنه أول من نقّط القرآن وليس نقّط الحروف، والحروف قديمًا منقطة الحاء والخاء والجيم وموضعها إلى آخره، لكن لماذا لم يكن الأوائل يُنقِّطون؟ لأنه عيبٌ أن يُنقِّط، يعني أن يُكتب له ويقال له: هذه عين ليست غين، هذه جيم ليست حاء، أمجنون هو؟ أما اليوم ينقطها ويلوّنها ويضع عليها الشدّة، ويطلع القارئ كما تعرفون!

يقول الإمام الشافعي في (الرسالة) -وفيه من الحديث عن البلاغة أعظم وأجلّ مما قاله في الأصول-، يقول: "وسر العرب أنه كل ما كان الكلام أَلْغَز كان أبلغ"، ما معنى الكلام؟ يعني كلما أخفى المتكلِّم معناه كلما كان أبلغ، وحينئذ لا يفهم عليه إلا من عنده القدرة أن ينزل إلى طبقات هذا المعنى الخفي، حينئذ لا يتذوّقه إلا مثله.

من هنا فأنا قلت وأقول لكم الآن: لا يوجد كتاب في الوجود يَمتحن صاحبه ويمتحن عقل قارئه كما يفعل القرآن، أنت عليك أن توقن أن هذا القرآن كلام الله، وفيه كل ما يخطر على بالك من الكمالات، إذن دورك تتعلم كيف البحث والنَّبط؛ أي الاستنباط، ما هو النبط؟ الحفر، النَّفط هو للأعلى، والنَّبط هو للأسفل، فأنت

تَنْبِط، عليك أن تتعلم كيفية النبط، تتعلم الأدوات إذا كان هذا المعنى شاقًا والجوهرة في داخل صخور عظيمة تحتاج آلات عظيمة لتصل إليها.

فالقرآن يمتحنك، أنا لماذا لم أفهم؟ أنت توقن أن هناك فهمًا، هنا عظمة، هنا شيء جميل، فتقِف{لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} لهذا نزل القرآن، فلما أنت لا تفهم شيئًا يجب تُكبِّر آلتك، كما أنك بحثت إذا في هذا البيت عن شيء وهو صغير جدًا فإنك تحتاج إلى نور خاص، وكلما كان الشيء كبيرًا يكفي نور بسيط وقد تمسكه في الظلمة، لكن عندما يكون خفيًا تحتاج إلى نور عظيم، هذا هو العلم، بهذه الطريقة أنت تستطيع أن تتذوق ،وهنا –انتبه أيها العبد– يُقال لك: (اقرأ وارتَقِ)[٢٨].

الرُّقي الأول هو رقي آخر الدرجات والحسنات؛ كل حرف بحسنة بعشر حسنات إلى ما شاء الله، لكن رقي العلم، هذا (اقرأ وارتقِ)، كقوله –عز وجل-: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}، هذه الكلمة ربما صعبة، لكن انظر لقوله ﷺ: (مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له، مع السفرة الكرام البررة)[٢٩]، مع الملائكة؛ لأنك أنت حين تقرأه سهلًا لك درجة من في القرب من الملائكة، لكن حين تقرأه علمًا فإنك تتَّحد مع الملائكة فيما يرون وفيما ينزلون به من مقادير وفيما يتسابقون فيه من كتابة الحسنات، أنت ترتقي، اقرأ وارتقِ، فأنت لا بد أن تتعلمها.

ومن هنا فالقرآن يمتحنك، آخر كتاب ألفه ابن تيمية وضع عليه عنوانًا لا يُدرى أهو وضعه أم غيره، آخر كتاب وضعه في السجن وجدوا أوراقًا مكدّسة وكتابات على الجدران فجمعوها في أوراق، اسمه (تفسير آيات أَشْكَلت على كثير من أهل العلم والتفسير)، وجاء إلى آيات أشكلت على أهل العلم، إذن لا يكون الرجل عالمًا حقيقةً في ديننا حتى يكون عالمًا بالكتاب، وكلما ارتقى المرء في علم الكتاب كلما ارتقى في عبوديته لله –عز وجل–، هذه يجب أن تفهمها، ولذلك حين تعجز عن شيء فهذا ليس عجيبًا، عندما تقرأ وتقول: "والله ما أنا فاهم هذه الآية"، هذا ليس عيبًا، هناك ممن هم أعظم منك وقف وقال: لا أدري، ولكن هناك من درى،

---

(٢٨) صححهُ الألباني في صحيح أبي داود: (١٤٦٤).

(٢٩) صحيح البخاري: (٤٩٣٧).

والناس يتسابقون في هذا المضمار، ويبلغ بعضهم أعلى من بعض أو أدنى من بعض بحسب ما يفتح الله -عز وجل- عليه.

نختم بفتح الأقواس حتى نتعلّم تذوّق السورة القرآنية، ليس فقط الآية، وأن تمشي مع السورة وأنت تعلم خيطها الجامع لها، فحين يأتي استطراد أو فتح الأقواس لا يَحجُبُك عن عودتك مواصلًا لما أرادت السورة، هذا يصنع لديك المتعة في القراءة، تستلذ، وهذا استلذاذ العلم والطاعة الذي قال فيه عثمان -رضي الله عنه-: "والله لو صَفَت قلوبنا ما مللنا كتاب الله"؛ وهذا معنى صحيح، لو أننا عُبَّاد وليس في قلوبنا الشر لقرأنا وقرأنا وما مللنا منه، ولكن هذه مرتبة أخرى يتحدث عنها، لو صفت قلوبنا من حواجز الجهل لما مللنا منه أخذًا للعلم الذي هو فيه.

بسرعة انظر: سورة فصلت، وهي إحدى سور الحواميم، الحسن البصري كره هذا الاسم، وكرهه لأن "حواميم" من الحم والحمم، والصواب أنه لا بأس بها، وبعض أهل العلم يقول: "الحاميم"، ولا بأس، المسألة ليس فيها شيء.

في سورة فصلت، ما مقصود سورة فصلت؟ انظر إليها: {حم * تَنْزِيلٌ} فالحديث عن القرآن، ولكن عن أي شيء في القرآن؟ هل هو حديث عن شرائعه؟ كقوله تعالى: {سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا} إذن هي فيها أحكام، حديث عن القرآن في أحكامه، ما معنى فرضناها؟ يعني أَحْكَمنا حُكمها على الخلق لأنها فريضة من الله، ما معنى فريضة من الله؟ فرض بمعنى سقط، والفرض هو السقوط، ويأتي بمعنى القِسمة، كذلك سُمّيت المواريث فرائضًا لأنها قسمة، ولكن فرض بمعنى أوجب، سقط، فإذا سقط الشيء وجب وجوده في مكانه الذي التصق به، فلما كانت أحكام الله يجب أن يلتصق به العبد سميت فرائضًا. {سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا} إذن هو حديث عن الفرض.

لكن عن أي شيء تتحدث سورة فصلت؟ {حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، هذه السورة لما سمعها بعض كفار قريش ذُهل، وقال كلمته الشهيرة: "إن أعلاه لمُورِق وإن

أسفله لمُغدِق"، يعني من تحت ينبع الخير، ومن فوق فيه جمال، قد يكون الشيء جميلًا من أسفل لكن من فوق مغطى، لكن من داخله وخارجه هذا هو كمال المدح.

إذن هي تتحدث عن ماذا سورة فصلت؟ انظر المطلع قال: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ}، إذن السورة تتحدث عن مراتب وحال المُعرِضين عن القرآن، إذن يجب هذا الخط الفاصل الواصل بين أول السورة وآخرها موجود، هي تتحدث عن مراتب المعرضين وعن أحوالهم، ماهي أحوالهم؟ نتكلم عن الأقواس، قال: {بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} هؤلاء هربوا حتى لا يسمعوا، وإما هربوا فعلًا وإما هربوا مقامًا {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ}، هذه أول مرتبة.

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ} ولكن لماذا قال {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}؟ هذا فتح القوس، هذا من أجل أن تشرح قوله من هو الذي يتكلّم، هذا مقصود فتح القوس كما فعلنا، في ماذا نحن نتكلم؟ في سورة الأنعام، اضطررنا إلى أن نفتح قوسًا لنشرح كيفية فهمنا للسورة، فالسورة تفتح قوسًا لجانب آخر ليس هو عُمدة السورة، فمن هو هذا الذي يلقي عليهم القرآن؟ {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} يُخرج نفسه من القضية، {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ}، هذا كله من فتح الأقواس، وخُتمت الآية: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} هذا قوس جديد، قوس داخل القوس، هذا هو القرآن، وهكذا.

ثم بعد هذه الأقواس التي تمشي في هذه السورة، انظر كيف تعود إلى بناء السورة إلى مقصدها في قوله –سبحانه وتعالى– في آية (٢٦)، كما قلنا: القرآن يمتحنك، هناك شيخ خطب مرة على المنبر قال: "يقول ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن)، أيها الإخوة المسلمون عليكم أن تعبدوا الله..."، وما قالها، هو يريد أن يعرف أين قلوب الناس؟ يريد أن ينزل عن المنبر ويرى من الذي سيسأل عنها، فما جاءه أحد، لا أحد مهتم!

فلما يُبعدك عن المقصد ليرى انتباهك، انظر إلى قول رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: (لأُعلِّمنَّك سورةً هي أعظمُ السوَرِ في القرآنِ، قبل أن تخرجَ منَ المسجدِ)[30]، وتركه، هو يريد حضور قلبه، ولم يخبره حتى جاءه يسأله عنها، هذا قلب حاضر.

فأبعده إلى هذه الرحلة إلى آية (٢٦) فيقول: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}، وفي تحذير لهؤلاء يفتح قوس، يقول: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...} إلى آخره، وهكذا يعود إلى قضية القرآن في آية (٤٠): {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}، هذا تعامل آخر في الإلحاد في آيات الله على معنى الإلحاد في كله. ثم انظر كلام القرآن في الآية (٤٤): {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا..} إلى آخر السورة، فلما نأتي إلى آخرها حيث ترى أن الكلام عن القرآن، من آية (٥٢) إلى آخرها يقول: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ...} الحديث كله عن القرآن.

وبهذا نختم أيها الإخوة، وقواعد القرآن إذا طبقناها يصبح لدينا السبيل لنمشي مع كتابه -سبحانه وتعالى-.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الأسئلة:

أحد الإخوة سأل عن ثم والفاء في سورة الكهف وسورة السجدة.

يمر عليها القراء كثيرًا ويعجبون لها، انظر إلى سورة السجدة: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}، لماذا قال هنا "ثم"، وقال في الكهف: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}، الآن افتحوا القرآن وانظروا لما بعدها، كيف وصف القرآن حال هذا الذي أعرض؟

---

[30] صحيح البخاري: (٤٤٧٤).

{إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً}، ما هي الأكنَّة؟ تقول: كنَّ الرجل أي دخل في الكُن، أي دخل في العش؛ فقلبه ليس في كن واحد، ليس عليه غلاف واحد، فإذا جاءت الهداية على قلب رجل عليه هذه الأكنة هل يرُدّ الحق بعد تفكُّر أم بمجرد أن يأتيه يردُّه؟

حال هذا القلب لا يمكن أن يتفكر، هو يرده بمجرد أن يأتيه وذلك لصلافة قلبه وجحوده ونتانته، فقال – سبحانه وتعالى-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}، ما هو الوَقْر؟ هو عدم السمع.

ومن هنا مُيّزت هنا بقوله "ف" وهناك "ثم"، فاقتضى أن الأمر على حال آخر في تلك السورة، وهو أنهم رآوه حقًّا ودينًا، ولكن بعد تفكرهم قالوا: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}.

أين يكون هذا الكفر الذي بعد تفكّر؟ افتح سورة طه: {قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى}، فماذا فعلوا؟ {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}، فهذا كفر بعد تفكير، فقالوا لا تتبعوه، ولكن اهتزَّت قلوبهم.

من الكفر بعد التفكير في سورة الأنبياء: {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ}؛ فكروا أنه سيذهب عليهم الملك ومصالحهم ولن يبقى لأصنامهم عُبّاد.

وبارك الله فيكم، والحمدلله رب العالمين.

الدرس السادس

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ المامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، أما بعد:

كنا مع قوله -عز وجل-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ}.

للعلماء في إطلاق هذا اللفظ القرآني -أن الخلق من طين- على معنيين؛ المعنى الأول: أنّ أصل الخِلقة التي جُبل عليها أبونا آدم -عليه السلام- أنه خُلق من طين، وهذا هو القول الأشهر لأهل العلم في التفسير، أي أن أصلكم أيها البشر أيها الإنسان هو من الطين، ثم جعل نسله نسل هذا الإنسان بعد ذلك من الماء المهين كما سمّاه الله -عز وجل-.

وبعض أهل العلم يقول: هذا شامل لكل نوع الإنسان، فإن والدهم خُلق من طين، وكذلك أبناؤه يُخلقون من طين، كيف يُخلقون من طين؟ ذلك لأن تغذية أبدانهم التي تُنجب الخِلقة كذلك هي تُؤخذ من طين، فما يأخذه الإنسان من الطعام والشراب إنما هو مستخرج من الطين من التراب، فهذا قول موجود وفيه ملمح كما ترون جميل ورائع، ويمكن أن يُعتمد عليه في جانب من جوانب التفسير.

مداخلة أحد الحضور: يا شيخ هل يكون الحديث هنا مُجملًا وجاء التفصيل في سورة الحج؟ من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلقة؟

الشيخ: جزاك الله خيرًا، ليس الحديث هنا في هذه الآية عن تطور الخِلقة الإنسانية في جنين الأم، ما تتحدث به سورة الحج وبعدها سورة المؤمنون كذلك حديث عن تطور الأجنّة في بطون أمهاتها وكيف تنشأ، وهذا الذي

قاله الأستاذ –جزاه الله خيرًا– يمكن أن يُستدل به على القول الثاني؛ أنه خُلق من طين ثم صار ماءً ثم صار كذا، فجعل الطين مرحلة من مراحل تكوين كل إنسان.

انظر إلى سورة الحج، يقول: {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} إذًا جعل التراب مرحلة من مراحل خِلقة الإنسان وتطوّره، فما دام كل إنسان خُلق من ماء ثم حدث معه ما قاله القرآن في سورة الحج، وجرى عليه هذا المجرى من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة إلى آخر ما قاله ربنا –سبحانه وتعالى– فيه، ثم جعل –سبحانه وتعالى– التراب مقدّمةً لذلك، فيمكن أن يستدل بها المستدل. وسنرى هنا هذا النوع من التفسير؛ أن الاجتماع عند بعض أهل العلم لا يقتضي الكلي بل تكون المفارقة.

الآية التي وراء هذه الآية انظروا إليها، يقول الإمام الطبري في الآية التي تليها، قال: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} هذه (الواو) {وَفِي الْأَرْضِ} عند الطبري دون بقية المفسرين تفيد الاستئناف ولا تفيد العطف.

ما الفرق بين (واو) العطف و (واو) الاستئناف؟ واو الاستئناف تُلغي أو تُوقف الحديث الذي جرى وكأنه انتهى به الخطاب، وتنشئ خطابًا جديدًا، وهي كثيرة معروفة عند العرب، فالطبري يقول هنا {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} هذه واو استئنافية يعني {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ} انتهى، والذي بعدها {وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} هذه جملة أخرى مُستأنفة، ومعنى استأنف: يقال: الأمر أُنُف، يعني ليس له سابقة ليس له مقدمة.

وحتى تتذوقوا الكلام لتعرفوا شرف هذه اللغة؛ لأن شرف هذه اللغة وعظمتها هو منفذ لتذوّقك لكلام ربك، شرح الإمام السهيلي (سيرة ابن هشام) وسماه: (الرَّوضُ الأُنُف)؛ وهو عندما يكون الروض في أوج كماله دون أن تمسه يد، يكون الجمال، حتى إذا دخل فيه الإنسان ودخلت فيه الدواب صار مرتعًا وذهب جماله وكماله. فأُنُف الشيء اربطوها بالأَنْف، وهو أصل النظر إلى وجه الإنسان، فإذا نظرت لوجه إنسان فإنك تنظر لأنفه.

قال أُنُف يعني مُستأنَف يعني شيء جديد، فالذي قاله: قوله: {خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} إما أن تقتضي على ما قال فيصحّ التفسير بها في أن أصل خِلقتك التي تحوّل بها الماء كانت من التراب ثم صارت ماءٍ، فيصح هذا، وحينئذ يجري ما قاله الأخ.

وإما أن تقول: أن قوله: {خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} أي أن أصل خلقتكم كان من التراب ثم توقفت، ثم من نطفة وعليه جرى عليه نسل ابن آدم، وهو الذي عليه عامة المفسرين.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ}، وهذا في القرآن معروف لا نُحضر شيئًا كبيرًا جديدًا، فالقرآن نوَّع التسمية فقال: خُلق من تراب، من طين، من حمأ مسنون، من صلصال كالفخار، وكل هذه تنوّع الخِلقة في أصل تطوّرها.

وقضية الزمن لا تكون دائمًا متعلقة بالقدرة قوة وضعفًا؛ لما الصانع تأتي إليه فتطلب من صِنعة صغيرة بسيطة، فيقول: أحتاج إلى يوم، فإن شققت عليه في الطلب قال: أحتاج إلى يومين، وكلما كَبُرت الصَّنعة احتاجت إلى زمن أطول، لكن هذا ليس دائمًا، فربما شيء يسير يمكن أن يُصنع بخفّة وبعدم مشقّة لكنه يحتاج إلى الزمن لا لحاجة القدرة الزائدة إليه بل لأن الزمن ضروري في تطوره؛ يعني لو أنت جئت إلى رجل وقلت له: ألصق لي هاتين المادتين، فهو يذكر لك الوقت لا لتخلّف القدرة ولكن يذكر لك وقتًا طويلًا مما يحتاجه هذا الشيء ليقع الالتصاق.

فليس ذكر الزمن طولًا وقصرًا له تعلّق بالقدرة دائمًا.

لماذا نذكر هذا؟ على عادتنا نذهب إلى سورة فصّلت، انظر إلى قوله تعالى صفحة (٤٧٧) قال عن خلق الأرض أنه خلقها في يومين، ثم ذكر تقدير الرزق فيها في أربعة أيام، وذكر خلق السماوات في يومين، إذًا تكون ثمانية بهذا الاعتبار ولكن هي كلها ستة أيام؛ ذلك لأن الأربعة أيام خلق الأرض كلها، كأنك تقول: أمشي من هنا إلى الطفيلة في يومين وأمشي إلى العقبة في أربعة أيام، فتكون المدة الأولى جزءًا من المدة الثانية،

فقوله: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} يكون داخلًا فيها أصل وجود الأرض في يومين، فالأرض وما قُدّر فيها من أقوات في أربعة أيام والسماوات في يومين.

طيب السماوات أعظم، فكيف تُخلق السماوات العظيمة التي هي حاوية، وحديث ابن عباس وقد صحّ عنه: أن مقدار الأرض في السماء الأولى كحلقة في فلاة؛ لو وُضعت الأرض في السماء الأولى لكان مقدار السماء الأولى كحلقة في فلاة، فإذًا السماوات أعظم، كيف تُخلق الأرض في يومين، ويُقدّر ما فيها من أقوات في يومين؟ فتكون الخلقة في يومين ثم يكون تقدير ما فيها من أقوات يكون في يومين، وهذا مقدار خلق السماوات؟

أولًا: ابتداءً هل ربنا -جل في علاه- يقدر أن يخلق السماوات بـ"كن" دون هذا الزمن؟ سواء كان زمن النور، الذي قال: {كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} أو بزمن آخر {خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، أو كأيام مثل أيامنا، خلق السماوات والأرض لم يخبرنا القرآن بكيفيتها، فهل احتياج هذه الخِلقة إلى أيام بسبب عجز القدرة عن خلقها في لحظة تنبثق إلى الوجود؟ الجواب: لا، الله قادر أن يقول: "كن" فيكون، لكن هذه الخِلقة أُوجِدت زمنًا لحاجة وجودها الزمني السُّنني في إيجادها، ولذلك قال: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} فاحتاج تقدير القوت إلى يومين، لماذا؟ ليجري نبت الخلق في الأرض إلى مدة سُننية قدرها الله في الخِلقة.

الآن الله قادر إذا قدّر للولد أن يكون بمجرّد أن يقذف الرجل ماءه في المرأة أن يقول له: كن، فيخرج، من الذي يخلقه في بطن أمه؟ من الذي يرعاه في بطن أمه؟ الله هو الذي خلقه، لكن لماذا احتاج تسعة شهور؟ لأن هذا الزمن هو ما قدره الله سنة في نمو ورعاية هذا الجنين، فالوقت هنا تسعة شهور ليس للحاجة وضعف القدرة، ولكنه لجريان الفعل على مجرى السنة. ودليل هذا أن ما فيها من الأقوات هو أقل جهدًا من خلق السماوات، وأقل جهدًا من خلق الأرض، لكن لأن نمو قوتها يحتاج إلى جريان السنن فاحتاجت إلى يومين.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ}، وفي خبر آخر {مِنْ تُرَابٍ} قبل الطين، ثم الطين يصلب ويزيد صلابة فيصير حمأ مسنونًا، أي طين فيه رائحة لطول مدته، الحمأ عندما يكاد يجف، فإذ جفّ جفافًا تامًّا كان

{صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، والصلصال تكرر حرف الصاد مرتين وحرف اللام مرتين، ليدل على الصوت، لأن الصوت لا بد فيه تكرار فكانت بلاغة الكلمة موافقة لحال معناها، فقال: "صلصال" لأنك لو ضربت عليه خرج صوتًا صار كالفخار، لو ضربت أخرج صوتًا.

فهذا التّرقي ليس لحاجة القدرة إليه، ولكن لجريان السنة عليه. القدرة تقول: "كن إنسانًا"، فيكون إنسانًا وهكذا.

وذكر أنه يُخلق من الأرض ثم يُصعد به إلى السماء، فيكون تامّ الخِلقة بعد نفخ الروح فيه في الجنة ثم يجري ما جرى، تكرر في القرآن في مواطن متعددة، لما بدأ الحديث عن التكوين الإلهي للوجود في سورة البقرة –وفيها تفصيل لا يوجد في غيرها–، فلم يُذكر أصل خلقة الإنسان فيها بخلاف الآيات الأخرى فإنه ذُكر أصل خِلقة الإنسان، في الأعراف ذُكر أصل خلقة الإنسان، وفي (ص) ذُكر أصل خِلقة الإنسان، في هذه السورة ذُكر أصل خِلقة الإنسان، في الرعد ذُكر أصل خِلقة القرآن، في البقرة مع أن الحديث يدور عن مرحلة ما قبل النزول إلى الأرض لم يُذكر مما خُلق الإنسان؛ لأن مجرى هذه الآيات هو مجرى التكريم الإلهي للإنسان فأغفل ذكر أصل خِلقته، فيذكر سجود الملائكة وتعظيم الإنسان وشأنه، فلم يأتِ على ذكر أصل خِلقته، تعظيمًا لهذا الإنسان حتى لا يُذكّره أنك من ماء مهين وأنك من طين.

فقوله سبحانه وتعالى–: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ}؛ هناك من المعاصرين من قال: هناك خِلقة قبل آدم، والخِلقة الأولى لم تكن آدم وكان هناك إنسان قبل آدم، وقالها بعض من لا يُتّهم في دينه كالأستاذ عبد الصبور شاهين، ولهم كلام في هذا وهذا كلام باطل لا شأن له.

كلمة إنسان من أين أُخذت؟ ما هو أصلها؟ من الأُنس التي تضادّ الوَحْشة وليس من النسيان، بعض الناس يقول: "سمي إنسانًا من النسيان" وهذا غير صحيح، وإنما سمي الإنسان إنسانًا لأُنسه، ولكن هل يصير الإنسان وحشًا مما يُخاف منه؟ قال الشاعر:

عــوى الــذئب فاستأنســت بالــذئب إذْ عَــوَى وصَــــوَّتَ إنســـانٌ فَكِــدتُ أطـــيرُ!

سمع صوت الإنسان فخاف، لكن الذئب استأنس به!

والشنفرى صاحب اللامية المشهورة يقول لعشيرته:

وَلِي دُونَكُــمْ أَهْلُــونَ سِــيْدٌ عَمَلَّــسٌ وأَرْقَـــطُ زُهْلُـــولٌ وعَرْفَـــاء جَيْـــأَلُ

ولي دونكم: يعني لي أقارب غير أقاربكم، صار أقاربه النمر والذئب والضبع بدل أقاربه الحقيقين، فصار أنسه وحوش البر.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ}، هذا هو أحد مراتب تطوّر أصل الخِلقة الإنسانية أنه من طين وهو اجتماع الماء مع التراب، وأنتم تعرفون ماذا يتحدث الناس الآن بأن الجسم البشري تكوينه تمامًا هو التراب، كل معادلات الكيمياء في بدن الإنسان موجودة في التراب، هذا مما لا شك فيه، وقد أخذه الله -عز وجل- من الأرض وبذلك تنوّعت صورة الإنسان؛ أبيض أحمر أسود..، على ما فيه من الخِلقة.

لو سألتموني ماذا كان شكل والدنا آدم؟ أنا أعتقد أنه من الأُدمة، ما الأُدمة؟ ليس البياض الأقرب إلى البُهاق، ولا السواد المتفحم الأقرب إلى الفحم ولكنه بين بين؛ لأن هذه المادة هي التي يمكن أن تتشكل بياضًا ويمكن أن تتشكّل سوادًا، على الرغم أن علماء الإنسان والأَنْسَنَة وغيرها، يقولون: "أن أصل الإنسان أسود". ولو قيل أين نزل آدم؟ لقلت اليمن وليس غيرها، ولكن لا أريد أن أخوض في هذا.

قوله تعالى: {**ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ**}.

للعلماء أقوال في هذه الآيات، مجملها يدور حول التالي: أن في هذه الأرض أجل هو المسمى الذي سيقضيه، وإما أنه يقضي في بطن أمه فيخرج بعد ذلك إلى الأرض إلى أجل جديد، وإما أنه قضى عليه أجل في آدم ثم

مضى ثم أجل مسمى عنده في ذريته، وإما أن يُقال وهو قول أغلب المفسرين: أن الأجل الذي قضاه {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا} إنما هو حركة الإنسان وأجله في هذه الدنيا، والأجل المسمى: عند الله بعد الموت.

{ثُمَّ قَضَى أَجَلًا}، كلمة "قضى" تدل على الانتهاء، الفعل الماضي يدل على الانتهاء، بخلاف الفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار؛ رجل يجيء: يدل على استمرار المجيء، لكن: رجل جاء: انتهى الأمر. فقوله: {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا} دل على أن كل ما يعمله الإنسان في هذه الحياة الدنيا قد قضاه الله -عز وجل- عليه كتابة قبل خلق السماوات والأرض، وأما في العلم فهو مطلق، هل علم الله حادث؟ هل الله يعلم شيئًا لم يكن يعلمه؟ لا؛ فعلمه -سبحانه وتعالى- لما كان ولما سيكون والعلماء يزيدون جملة نفسرها من القرآن: "ولما لم يكن لو كان كيف كان يكون"، من أين أخذوها؟ انظر إلى قوله -سبحانه وتعالى- في سورة الأنفال: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ}فهم لم يسمعوا ولكن لو حصل السماع علم الله كيف سيكون سماعهم فقال: {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} فهذا شرط هذه الكلمة.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {قَضَى} دلَّ على علم الله السابق الأزلي الذي لا يحدث فيه تغيّر ولا تبدّل، لأنه لو حصل فيه تغيّر و تبدّل هذا نقص، وربنا سبحانه وتعالى القدوس، وكلمة القدوس في القرآن وردت مرتين فقط، وردت في سورة الحشر ووردت في سورة الجمعة، ولم ترد هذه الكلمة (القدوس) إلا في المُسبِّحات؛ المُسبِّحات هي سور قرآنية جليلة، وأول المُسبِّحات هي الإسراء، بدأت بالمصدر {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى..}.

وجواب ما يحدث فيها من نبوءات في بقية المسبحات، ما هي ثاني مسبِّحة في القرآن؟ الحديد {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} ما هي المسبحة الثالثة؟ الحشر، الكلام عن اليهود، يقول ابن عباس: هذه سورة بني النضير، وبعد ذلك تأتي المسبِّحات: الصف، الجمعة، التغابن، ثم الأعلى، وكلها تتحدث، وهذا من السر الذي تحدثنا عنه سابقًا، تحدثنا عن قضية جمع المعنى الواحد في السورة الواحدة مع الانتباه إلى فتح الأقواس، وهنا باب آخر من أبواب التفسير في القرآن، وهو أن تعرف المتشابهات من السور لترى سر الترابط بينها، ومن ذلك المسبحات، المُسبِّحات فيها سر عظيم نحتاجه في زماننا.

فقوله: {ثُمَّ قَضَى} قضى يعني أنه انتهى، والقضاء والقدر على الرغم من أن كلمة قدر تأتي الثانية إلا أنها الأول في الوجود؛ لأن الأصل هو قدَّر يعني فصّل، لما تذهب أنت إلى الخياط يصنع قياسك، فإذا شرع فانتهى قال: قضى ما قدّر، فالتقدير يكون قبل القضاء، القضاء الانتهاء، ولذلك أهل العلم من المحققين كابن تيمية –رحمه الله– قالوا أن صلاة القضاء هذه لا وجود لها، القضاء يعني أنه انتهى منه، ولكن يستخدمها الفقهاء، أي يقضي ما فاته، يفسّرون يقضي أي ينتهي مما فاته.

فبعد أن علم هذه المراتب –مراتب الوجود–، أولًا علم جلّ في علاه، وهذا أزليٌّ لا أول له، وكما أن ذات ربنا لا أوليّة لها، فكذلك صفات ربنا لا أولية لها؛ فالكلام عن صفات الله كالكلام عن ذاته، هو الأول فليس قبله شيء وهو الآخر فليس بعده شيء جلّ في علاه، أولًا هو العلم، ثانيًا: الكتابة، والكتابة ثلاث كتابات، الكتابة الثانية: فإنه كتب –سبحانه وتعالى– مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين سنة، ثالثًا: الإرادة بعد أن كتب أراد وهذه المشيئة، وبعد أن أراد خَلَق وهذه هي القُدرة، فهذه مراتب الوجود.

فهذه مراتب الوجود؛ أولًا: العلم، ثانيًا: الكتابة، ثالثًا: الإرادة والمشيئة، رابعًا: الخلق والوجود.

قوله: {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا}؛ قالوا: يعني قضى ما جرى عليه من علم الله وكتابته في الحياة الدنيا، وبقي هناك قضاء مؤجَّل هو عنده يوم القيامة، بأن يبقى في مُستَقَرِّهِ إما في جنة وإما في نار، فكأن الآية تتحدّث عن خِلقته وعن حياته وتتحدّث عن مستقرّه. الآية تتحدّث عن خلقه، خلقه من طين، {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا} انظر ما أعطت هذه من المعاني!، أعطت كل ما ذكرنا وأعظم، ذكرت لنا كل ما جرى له في حياته وما علم الله وكتب وقدَّر وشاء وخلق.

ثم بعد ذلك قال: **{وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ}**.

أمُرّ عليها وأسأل الله أن أكون مصيبًا، لماذا ذكر الأجل الأول منصوبًا وذكر الأجل الثاني مرفوعًا؟ في اللغة العربية أيهما أَجَلُّ؛ الجملة الاسمية أم الجملة الفعلية؟ الجملة الاسمية أي أن تبدأ بالاسم، فهي أثبت، والجملة

الفعلية أضعف، فلما تقول: علي بطل، هذه جملة اسمية دلت على الثبات، لكن لما نقول: جاء علي، فإنها تدل على التغير، جاء ثم بعد ذلك يخرج، لكن تلك ثابتة، فالعلماء يقولون: الجملة الاسمية أقوى وأثبت من الجملة الفعلية.

انتبهوا حتى نعرف مراتب الكلمات، قلنا أن كلام الرجل دليل علمه، وكلام الرجل دليل قلبه، وكلام الرجل دليل بلاغته؛ أيهما أطيب مطلبًا الحواريون أم عيسى -عليه السلام-؟ كل واحد عبّر عما يريد، قال الحواريون: {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، ما هو أول طلب لهم؟ ما هو أول شيء خطر على بالهم؟ {قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا}، بعد ذلك {وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا}، لكن عيسى -عليه السلام- لما طلب من الله قال : {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، لم يأتِ بسياق الطعام مثل الحواريين، قال: {تَكُونُ لَنَا عِيدًا}؛ والعيد عبادة يعني نريد أن نعبدك، انظر الفرق بين القولين لتعرف الفرق بين القلبين!

ومن الفوائد لذلك أن سلام إبراهيم خير من سلام الملائكة؛ فلما دخلت الملائكة على إبراهيم قالوا: {قَالُوا سَلَامًا}، إبراهيم ما قالهم: سلامًا بل قال لهم: {سَلَامٌ}، قال أهل العلم: "وسلام إبراهيم أَجَلُّ من سلام الملائكة"؛ لأنهم قالوها بالجملة الفعلية الدالة على عدم الثبات، وإبراهيم ردَّ عليهم بسلام عظيم فيه ثبات، فقال: سلام.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ}، الأجل الأول لأنه في هذه الحياة الدنيا، والثاني هو أجل مسمى عنده، وكان يمكن أن يقول: وقضى أجلًا مسمى عنده أو أجَّل مسمىً عنده، يقول ذلك ولا يضرّه شيء، لكن لما كان الأجل الثاني هو المستقَرّ وهو الذي فيه العظمة، إما في بيان عظمة عذاب الله للكافر، وإما في بيان عظمة إنعام الله للمؤمن فكان هذا القضاء وهذا الأجل عظيمًا، فأجراه بمجرى الجملة الثابتة العظيمة، فقال: {وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ}.

وقوله: {عِنْدَهُ}، أحد أهل العلم قال: أعطوني أي مَثَل فيه حكمة أُخرجه لكم من القرآن، قالوا له: ائتنا بمثل "الجار قبل الدار"، قال: ماذا قالت امرأة فرعون؟ {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا}، والأصل أن تقول: "رب ابني لي بيتًا عندك"، لكنها فصلت بين الفعل والمفعول لذكر المقام والمكان، فقالوا: هذا من باب التكريم، وإنما طلبت الجار أي قُرب الله قبل أن تذكر الدار، فقدمت ذكر الجار قبل الدار.

فانظر إلى قوله: {وَأَجَلٌ مُسَمًّى **عِنْدَهُ**} فذكر العِنديَّة في هذا الباب يدل على ما قلته لكم، وهو أن الأجل الثاني أجل عظيم يستحق أن يُنسب قربًا إلى الله.

قوله تعالى: {**ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**}.

تمترون من الِمراء والمراء هو الشك، والمراء هو المجادلة، ولا تنشأ المجادلة إلا في شك وخصومة، فقوله سبحانه وتعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ}؛ أي بعد هذا الذي ذكرته لكم، من ذكر خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور في آية استغرقت الوجود كله، ثم بعد ذلك في آية استغرقت الإنسان خِلقةً وسلوكًا ومستقرًّا، ثم بعد كل هذا أنتم تمترون!؟ ثم أنتم تجادلون وتشكِّكون؟

لكن لو سأل سائل: المراء في أي باب؟ ما هو الحديث الذي يدور حوله المراء هنا؟ الحق أن المراء هنا بجَمْعِ هذه السورة بسور أخرى على نسقها، وهذا ما يسمى عند أهل العلم **بـ"مِزَاج القرآن"**؛ فإنه بالنظر إلى مزاج القرآن في ذكر نموّ الإنسان ومستقرّه إنما يدور الحديث عن اليوم الآخر، فمع أنه أطلق "تمترون"، أي تمترون بقوة الله، تمترون بقدرة الله، ثم رأينا كلام ابن القيم عند قوله: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، قال: يعدلون في التوحيد والعبادة، يعدلون في عبادة الله، وإلا فلا يوجد قال أن هناك إلهًا يُشبه الإله الحق من كل وجه، لا يوجد، حتى الـمَثْنَويَّة الذين يقولون بالظلمة والنور بالنهاية عندهم النور هو الذي يغلب الظلمة، فهناك إله يَغلِب وإله مَغلُوب، والمغلوب لا يستحق أن يكون إلهًا ولا ربًا.

فلذلك بعد هذا كله تستطيع أن تقول: ثم تمترون في كل هذا، تمترون في خلقه، تجادلون فيه؟ تجادلون في توحيده وألوهيته؟ تجادلون في مستقره وأجل مسمى عنده؟ يصح أن يُقال هذا، ولكن المزاج القرآني يجب أن نلاحظه، عندما يُذكر خِلقة الإنسان وتطوره تكون دائمًا ملتصقة بقضية اليوم الآخر، وارجعوا إلى سورة الحج تجدون هذا.

قال –سبحانه وتعالى–: {ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ}، تلاحظون كلمة (ثم) كم مرة تكررت هنا؟ في الآية الأولى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، قوله: {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ}، فترون أن هذا الارتخاء في هذه الحركة، في الخِلقة والتفكّر والجواب وقد ذكرنا –سابقًا– صورًا في قضية من يرفض الحق بعد أن يتمعن فيه ويدرك حقيقته، ثم بعد ذلك تمترون؟!.

قال –سبحانه وتعالى–: {**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ**}.

هنا نقف معكم قبل أن خوض فيها، اسم الجلالة هنا مبحث عظيم جليل. نوَّهنا بمعناه عند قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} ولكن تركنا التفصيل لهذه الآية لأن هذه الآية دالّة عليه، إجماع أهل الملة أن الله –عز وجل– لا تحويه سماء ولا تحويه أرض فإنه أكبر من السماء والأرض.

هل يجوز لأحد أن يقول أنّ الله أو بعض الله كما يقول الجهلة، يمكن أن تحويه سماء تكون هي أكبر منه، أو تحويه أرض؟ نعوذ بالله، ماذا نقول في كل أذان وفي كل صلاة؟ الله أكبر، أكبر من أي شيء؟ هذه متروكه للذهن، لتملأ في ذهنك ما تحب، وما تتخيل، فيكون الله أكبر، وهو اسم تفضيل دالّ على المبالغة المطلقة التي لا مبالغة فوقها ولا تفضيل فوقها، فالله أكبر، فلا يجوز لك أن تقول الله في شيء.

{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} إذًا انتهينا، قطعنا الشكوك والظنون الجاهلة في ربنا أن (الله في) على معنى الذات في داخل المخلوق، وهذا كُفر بإجماع أهل الملة من قال به كفر؛ لأنه تحقير لربنا وتصغير له وتعظيم لخلق من خلقه فوق عظمته جلّ في علاه، فهذا لا يجوز.

إذًا لما نقول نحن الله في السماء؟ كما قالت الجارية، أين الله؟ قالت الجارية: في السماء، قال: (أَعتِقْها؛ فإنها مؤمنةٌ)[٣١]، قلنا أن السماء تأتي بمعنى العلو، فقولك: "الله في السماء"؛ أي أن الله في العلو المطلق الذي لا علوّ فوقه، وهذا هو المعنى الصحيح. ولكن من يرى من أهل النحو –وهذا قول ضعيف منتشر الآن لأنهم لا يعرفون فقط ينقلون الكلام–، قول أهل النحو بما يسمى **بالتناوب في حروف الجر**؛ أي أن تستخدم لفظة بدل لفظة، كقوله: (ولأصلبنكم) استدلوا فيها مع انه استدلال فيه ضعف، لكنهم استدلوا بقول فرعون: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} هل يريد أن يضعهم داخل الجذوع؟ بل على فوق الجذوع، لكن استخدم (في) لدلالة المبالغة، يعني أنه سيلصقهم في جذوع النخل ويضربهم حتى يصل حالهم إلى أنهم في داخلها ملتصقين بها.

ومن هنا لم يأتِ بحرف (في) هكذا ليدل على الفوق في الإطلاق، إنما فيه معنى زائد لا تقوم فيه كلمة فوق، لو قال كلمة (فوق) أو (على) لا تدل على المبالغة في تصليبهم في جذوع النخل. من هنا قالوا: لا يوجد التناوب في حروف الجر، والذين قالوا بالتناوب استدلوا بقوله {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ}، واستدلوا بالآية في سورة الأنعام قال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} قالوا: على بمعنى عند، فنابت هذه عن هذه. ولذلك يقولون: الله في السماء، قالوا: نابت في عن كلمة فوق، الله فوق السماء، هذا لمن يقول بالتناوب. والصواب أن نقول الله في السماء: يعني في العلو المطلق الذي لا فوقه فوق.

فقط هذه النقطة لأن هناك من المشايخ المساكين لا يعرفون الفيزياء، قالوا: أنتم تقولون: الله في السماء وتشيرون إلى فوق، فالآن ثبت أن الأرض كرويّة فأنت عندما تشير إلى الفوق في جانب، فالجانب الآخر من الكرة الأرضية الفوق يشير إلى جهة أخرى، وهذا صحيح، إنسان جالس هنا ويقول: الله فوق ويشير بإصبعه كما أشار النبي ﷺ وكما أشارت الجارية، طيب في الجهة الأخرى من الأرض الذي يشير إلى الله فوق، يشير إلى فوق، لكن هم يقولون أنه يشير إلى تحت وهذا غير صحيح، لأن التحت في الكرة ينتهي إلى مركزها فقط.

---

[٣١] صحيح مسلم: (٥٣٧)

يعني لو أن أحدًا أشار إلى التحت، أين تنتهي إشارته ليتوقف التحت؟ هل يخترق مركز الكرة لينفذ من الجهة الأخرى ليشير إلى التحت مطلقًا؟

طيب لنتصور ونتكلم كلام عاوم؛ لو واحد أراد أن ينزل إلى التحت المطلق، أين ينتهي؟ ينزل، ينزل، ينزل.. حتى إذا وصل إلى جوف الأرض ومركزها، بعد ذلك هل هو ينزل أم يصعد؟

مما لا شك فيه أنه يصعد، إذًا التحت المطلق بالنسبة إليه هو مركز الأرض، فقول القائل من الجهلة –ولو كانوا معمّمين ومشايخ–: "أن الذي يشير إلى الأسفل تلتقي إشارته مع من أشار إلى الأسف من الجهة الأخرى"، هذا جهل؛ لأن إشارة التحت تنتهي مطلقًا –مطلقًا بالنسبة إليه– بالنزول إلى جوف الأرض، عندما يُشير المُشير في أي جهة من مركز الأرض إلى خارجها إنما يُشير إلى فوق.

الكون هو هذه الكرة الأرضية ضمن هذه المجموعة الشمسية ضمن درب التبانة، الأكوان متعددة ومحيط بذلك كله هو السماء، فأينما أشرت أيها الإنسان من أي جهة من الأرض أشرت إلى السماء، أشرت إلى فوق.

إذًا أيها الإخوة الأحبة نحن نعتقد أن الله –عز وجل– في السماء، إذًا ما معنى{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}؟ ذلك لأن اسم الله –اسم الجلالة– لفظ مُشتَقٌّ لا جامد، ولأنه مشتق من المعاني الجليلة العظيمة كان هو الاسم العظيم الذي لا اسم فوقه في العظمة والجلال، لأنه اسم مشتق من التأليه ولا يكون التأليه إلا لمن جمع صفات الربوبية، وصفات الربوبية لا تكون مجتمعة إلا لمن هو إله حق اجتمعت فيه كل صفات الخير.

فلذلك اسم الله ليس جامدًا ولكنه مشتق مأخوذ من التأليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الأسئلة:

- **أحد الطلاب: تأكيدًا لما ذكرته من الكلام الطيب، أن الله –سبحانه وتعالى– لا يُنسب إلى جهة –حاشاه سبحانه وتعالى–، هذا قول جاهل، يقول العلماء: في كل لحظة أو في كل وقت يكون في بقعة من الأرض ثلث أخير من الليل، في الحديث الشريف: (إن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، فيقول هل من سائل..) إلخ الحديث الشريف، فإذا أخذنا بكلامهم، هذا يقتضي أن الله –سبحانه وتعالى– لا يبقى في السماء في لحظة من اللحظات –حاشى له سبحانه وتعالى–، فهذا تأكيد لكلامكم.**

الشيخ: ولذلك هنا ذكرت كلمة، يزعمون أن أهل السنة الذين يُثبتون علوَّه فوقهم، قال: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}، فقال هؤلاء الذين ينفون علوّ الله: المقصود بالفوق هنا فوقية المرتبة وليس فوقية الإطلاق بأنه فوق، فنقول كلمة (مِن) لا يمكن أن تدخل على (فوق) فتدل على المرتبة، أنت تقول للمرتبة: الذهب فوق الفضة، وتقول: الملك فوق الشعب، وتقول: السقف فوق، فجاز لكلمة (فوق) أن تكون مستخدمة للمرتبة وتكون للحقيقة، لكن لا يمكن لكلمة (من) أن تدخل على فوق فتدل على المرتبة، لا يوجد في اللغة، لا يقول أحد: الذهب من فوق الفضة، تقول: الذهب فوق، لكن نقول: السقف من فوق الإنسان، السماء من فوق الأرض، فإذا دخلت (مِن) على تحت وفوق لا تدل على الحقيقة، {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} هذه الفوقية ليست جهة يقابلها إلا الدنو وهي المطلقة، وهي من كل جهة فوق أينما أشرت إلى أي جهة فوق الأرض أشرت إلى العلو، إلى الفوق، وأنت هنا أنت فوق، لو ذهبت إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية تشير إلى الفوق وكل جهة تشير إلى فوق.

هذه الأرض فوقها السماء، والسماء فوقها السماء ومحيط بها الكرسي {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} والعرش محيط بذلك كله، ربنا –سبحانه وتعالى استوى على العرش–، فلا يشير الإنسان إلى جهة فوق الأرض إلا أشارت إلى الفوق المطلق.

أما الجهة فنقول: أن الله لا تحيط بها جهة؛ لأن الجهة إنما تفيد الحصر فيما يقابلها، ولكن لما نقول: مطلق، فليس هناك حصر، لما تقول: "إنسان في هذه الجهة"، من أجل أن تنفي عنه الجهة المقابلة لها.

فنحن نقول: الفوق هو كل جهة فوق الأرض، يقابلها الدنو والسفول والنزول، هذه هي المقابلة لها، لكن لا نقول اليمين المقابل لها اليسار، والله -عز وجل- فوق السماوات وفوق الأرض، ومن قال أن الله -عز وجل- حواه شيء من خلقه هذه بإجماع أهل الملة كافر؛ لأنه حصر ربنا -سبحانه وتعالى-.

والحمد لله رب العالمين وبارك الله فيكم، نسأل الله -عز وجل- أن يعيننا وإياكم.

الدرس السابع

الحمدلله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على حبيبنا وإمامنا وقائدنا وسيدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغُرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدىً إلى يوم الدين.

ما زلنا مع في هذه السورة العظيمة، وكما قدمنا هذه السورة من السور الطوال، بل **هي طولى الطولَيَين** على الصواب، وأجمعوا أن طولى الطولَيَين الأولى هي سورة الأعراف لأنها منصوص عليها، واختلفوا بعد ذلك بالثانية والصواب أنها الأنعام، فإنها طول الطولَيَين وإنها مع طولها نزلت مرة واحدة، في رواية –وإن كان فيها مقال– **نزلت هذه السورة لجلالها ولعظمتها مرة واحدة يحفُّها سبعون ألف مَلَك**، وكيف لا يكون ذلك وفيها خصال ربنا وصفات الله.

ونحن قلنا سابقًا ونكرره هنا أن هذا هو المقصود، وإن لم نُحصِّل هذا المقصود فقد فاتنا عماد الأمر، مقصود هذه الجلسات أيها الإخوة الأحبة هو **إعادة لذَّة القرآن العلمية في قلوبنا وأذهاننا**، وأن تُشرق آيات هذا القرآن على قلوبنا كما كانت تشرق إرادةً وإيمانًا وعملًا في قلوب أصحاب النبي ﷺ، لقد صار بيننا وبين القرآن حواجز وحُجُب، وأعظم حجاب بيننا وبين القرآن هو حجاب اللغة، وليس فقط المقصود معاني الكلمات ولكن المقصود تذوق جمال اللغة.

وهذا هو –كما فصَّلنا في درسين– الإعجاز؛ **فإن العرب أدركت أن هذا القرآن من عند الله لما رأت جلال اللغة فيه فيما لا يقدر عليه بشر**، فأدركوا أن هذا كلام عظيم لا يخرج من إنسان وإنما هو كلام إله، **وأعظم ما في هذا الكلام هو صفات الله**، أعظم ما في القرآن أن تنظر وتتأمل وتتذوق ما يتحدث الرب –جلّ في علاه– في كلامه عن نفسه.

والذي يدرك المعاني هو الذي ينفعل بهذا الكلام، رجل لا يهمه الكلمات الجميلة ولا يفهم المعاني العظيمة في الوجود؛ يعني كلمة الشجاعة عنده ككلمة الجُبن، كلمة البخل ككلمة الكرم، كلمة القذارة ككلمة الطهارة، كلمة الحُسن ككلمة القُبح، هذا لا يفهم كتاب ربنا، لا قيمة له. وإنما الذي يتذوق هذا الكلام وينفعل به عملًا وإرادة حتى يموت في سبيله هو الذي يهتم بالمعاني، **وكلما ارتقى المرء في إنسانيته كلما ارتقى ذوقه للمعاني**، فيمكن له أن يبذل روحه من أجل كلمة، وهذا هو الشهيد، فإنه يموت، يبذل روحه من أجل لا إله إلا الله، معنى، لا يأتيه شيء إلا أن لهذه الكلمة لها جلال وعظمة، لا يحب أن تقع موقعًا تُهان فيه فيمكن أن يموت من أجلها.

هذه قيم المعاني في النفوس لأن الإنسان انحدرت إنسانيته لم يعد يتذوق هذه المعاني، صار تذوقه للدينار، للدرهم، للدولار، تذوقه للمحسوس، ومن هنا فالإنسان لو أبدع في المحسوس يمكن أن يُمدح، ولكن أعظم ما أُعطِيَهُ الإنسان هو البيان المعبر عن المعاني. وللذكر فإن الشرع نهى عن تسمية العنب بال"كَرْم"؛ والسبب أن العنب هو مادة الخمر، والخمر كان عند العرب يُطلِق الكَرِم، فسمي الخمر كرم لأنه يطلقه، فنُهي عن تسمية العنب بالكرم، لهذا السبب.

قال الله –عز وجل–: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ}، العربي كانت له معانٍ، كان له شرف وهو شرف الحَسَب، شرف الانتساب للآباء لما فيهم من أمجاد وما فيهم من خصال وما فيهم من مكارم وفِعال، فكان العربي يتغنَّى بها، فلما أراد الله –عز وجل– أن يسحب هذا الجاهلي إلى أمر قَارَنَه بأمر جليل في نفسه فقال: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ}؛ هذا الانتساب للآباء والتغني بأمجادهم شيءٌ مفطورٌ عليه هذا العربي، وكلما انحدر الإنسان في قِيَمه كلما انحدر تعلُّقه في القرآن، وكلما انحدرت أذواقه كلما تعطلت عنده المعاني؛ لأن الإنسان لو ذهب لسانه لا يذوق الحلو، ولا يعرفه عن المر، ولا يعرف الحامض، ولا يعرف الحار، ولا يعرف البارد، تتعطل حواسه.

وكذلك إذا ماتت ذائقة الأُذُن، وذكر الله –عز وجل–: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} هناك فرق بين "أذن" و"أذن واعية"، فلا بد هذا أن يكون الإنسان على درجة عالية من الذوق والإحساس، إذا وقع الكلام الجميل فهمه

وتفاعل معه، ليس فهمه وتغنى به وذهب، لكنه لأنه كلامٌ جليل، عظيمٌ فقيم، يسقط على النفس فتنفعل معه إرادة.

هذا هو الباب الذي أنشأ الصحابي؛ هذا الصحابي الذي نشأ في القِفار ومشى حتى وصل إلى الصين وحمل هذا الدين وسقطت أمامه الإمبراطوريات والأجناد والجيوش، كله بسبب هذا الانفعال مع هذا القرآن، ولذلك كان يكفي الصحابيّ وهو في أشد حالات ضعفه أن تُقال له آية فتنتفض إرادته كأنه الصقر، كأنه الأسد وينسى كل شيء إلا انفعاله مع هذه الكلمة التي سقطت على قلبه. هذا هو الذي نحتاجه.

اليوم يمر القرآن كما يمر الماء على الصفوان، ينزل المطر على الصخر الجمود القوي فقط يمسُّه مسًّا ويطرب له طربًا، ثم يمضي ولا يعود إليه، لا يُقيمه القرآن تلذذًا في قيام الليل، أين أنت من أن تقوم الليل وتهجر فراشك وأهلك من أجل أن تقوم مع القرآن؟! ليس فقط لأنه حقٌّ وكلام ربنا، لكن لأنه ينفعل به، كما ذكرنا مثال الصحابي الذي رضي أن يموت حتى لا يقطع قراءته لسورة الكهف، هذا هو الباب، ومقصد هذه الجلسات هذا الباب. ما يُقال في هذه الجلسات من حواشي علمية هي على الهوامش ولكن المقصود هو أن نتذوق الكلام تذوقًا علميًا وليس تذوقًا طربيًا، القرآن لا يُحدِث هذا، القرآن لا يُحدث طرب النشوى التي يُحدثها الشعر، ولا يُحدث طرب النشوى التي تُحدثها الخمر، ولا يُحدث طرب النشوى التي تُحدثه الآلات الموسيقية، لا يُحدث هذا؛ **القرآن يُحدث أثرًا قلبيًا له تعلُّق في الإرادة التي تنبعث لتقوم وتغير**، وأعظم ما فيه هو الكلام عن الله، أن الله يتكلم عن نفسه.

وهذا فهمه الصحابة –ليس من عندي–، لـمّا النبيّ ﷺ سأل أُبيّ المنذر: (أيَّ آيةٍ معكَ مِن كتابِ اللهِ أعظمَ ؟)[٣٢]، فهذا صحابي يتذوق القرآن، ويتعامل مع القرآن بأنه ليس على مرتبة واحدة في الحديث، هنا يتحدث عن الحيض وليس في حديث القرآن عن الحيض كحديثه عن الصلاة، ولذلك **القرآن يتفاضل على الصحيح**. فهذا الصحابيّ سُئل أيُّ آيةٍ أعظم؟ فما الجواب الآن؟ على الصحابي أن ينظر أيُّ آيةٍ أعظم في كتاب الله؟ هي الآية التي تتحدث عن الله، ويكون فيها الطول في الإسهاب في الحديث عن الله، فهم الصحابة هذا، فهم أن

[٣٢] صححهُ الألباني في صحيح أبي داود: (١٤٦٠).

هذا القرآن هو رسالة الله إلى البشرية من أجل أن يكشف جلّ في علاه عن نفسه، يَبِين عن نفسه، فالعربي فهم هذا ولذلك قال: (آية في كتاب الله أعظم؟)، قال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، ذُكرت عشرة أخبارٍ في هذه الآية، ولا يوجد في القرآن آية فيها هذه الأخبار عن الله فقط كما في هذه الآية، فهذا رجل يستقصي، يقرأ القرآن ويستقصي، يفهمه.

ولذلك لما الصحابي قيل له: "لماذا تكرر هذه السورة ؟"، وردت ثلاثة روايات عن الصحابي الذي كان يؤم في قباء وكان يُصرّ أن يقرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} قبل كل سورة بعد الفاتحة، فهذا لـمّا سُئِل لِمَ تفعل هذا؟ قالوا: إمّا أن تقتصر عليها وإما أن تأتي بغيرها لكن لماذا تريد أن تجمعها في كل سورة؟ فقال: هذا الذي عندي، إما أن أؤم بكم على هذا الشرط أو لا أؤم بكم، فشكوه للنبي ﷺ، فالنبي أحضره وسأله لمَ تفعل هذا؟ فقال هذا الجواب. هذا هو كل شيء في الوجود، هذا هو الوجود، ليس فقط وجود الأرض ولا وجود الدنيا ولكنه وجود الآخرة كذلك. إن لم نفهم هذا ديننا مغموسٌ فيه، وخُطبنا كماءٍ على صفون لا قيمة لها، نخطب ثم نخرج فنقول: "ما شاء الله الشيخ جميل" كما نتغنى بالموسيقى، الشيخ إذا كان صوته قوي فطَرِبنا له وهكذا!، فقال الصحابيّ: "**إنّي أحبها لأنها صفة الرحمن**".

هذا هو لغز القرآن بل هو لغز الإنسان بل هو لغز الوجود كله، ارمي مالك في الزبالة هذا ليس له قيمة هذا كلّه لأجل الأكل والشرب ثم لبيت الخلاء. ارمي لباسك، اجمع ما شئت، غيرك جمع أكثر، تحلى بما تتحلى، الدّابة قد تتحلى بأجمل مما تتحلى به أنت، افتخر بما تفتخر، إن لم تدرك هذه المعاني فأنت لا شيء!. لئن لم تقف مع القرآن فتنفعل معه، تقرأه فتبكي، يقشعر بدنك، يلين جلدك، تذهب إليه متحببًا، يُقيمك في وسط الليل قائمًا، تقوم ولو بـ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، فإن لم تفعل آيات القرآن معك هذا أنت خسران، أنت من أخسر الناس في هذه الدنيا، والناس أغنياء بهذه المعاني، وهذا الذي صنع الصحابيّ.

أعود وأكرر، نحن فقط نريد أن نتذوق بعض هوامش ما تذوقه الأوائل مع هذه الآيات، والذوق يبدأ بالعلم وإلا بعد ذلك يكون الطرب سماعيًا، فالموسيقى ليست حديثًا لكنها تطرب السماع فقط، فيمكن أن نقرأ القرآن ويُحدث أمرًا معنويًا عظيمًا، ذكرنا ما قاله الروماني المعتزلي وهو أول من قال بالتأثير النفسي للقرآن.

ولكن الذوق الحقيقي الذي تنبعث به الإرادة أولًا أن تفهمه، وليس فقط تفهمه أن تعرف معاني كلماته، ولكن أن تدخل بمقدار ما وصلنا من تذوق لجمال هذه الألفاظ الدّالة التي حوت الكنوز والدرر والجواهر من المعاني، هي ألفاظ ولكن في داخلها مكنون، ولذلك هذا القرآن مكنون؛ بمعنى أن في داخله الجواهر والدرر التي أودعها الله –عز وجل– فيه، وبمقدار سعيك وتعبك وجدك واجتهادك لتحصيل هذه المعاني {اسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}، تقترب من الله، الله يعطيك، ولما أنت تكون مع الله كل شيء لا قيمة له وإنما هو تابعٌ لك.

ملك كان يحب إحدى جواريه من بقية الجواري، فغِبنَ الجواري عليه لماذا تحب هذه الجارية أكثر منا؟، هم الآن كما قال بنو إسرائيل: {وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ} واضح أن الجماعة الذين يريدون الجهاد كانوا تجارًا، وأناس يتميزون في بيئة التجار هذا معه مليونًا وهذا معه مليونان، فالناس مراتب بحسب المال، وهم لما طلبوا ملكًا يُقاتل يعني يُقدّم الذي معه رأس مال أكثر، فهذه قيمهم. ولو كان في مسابقة للجمال تُقدم المرأة الجميلة. ولكن هذا الملك ذكي فأحضر الجواري وأحضر غرفة ملأها بالجواهر وأدخل الجواري على الغرفة، وقال لكل جارية: انتقي ما تريدين من الجواهر، ضعي يدكِ على أيّ جوهرة فهي لكِ، فدخلن الجواري يضعن أيديهن على التحفة التي تحب والجوهرة التي تريد، حتى جاءت هذه ولم تتحرك فقال لها: خذي، قالت لو وضعت يدي على أي شيء في هذه الغرفة فهو لي؟ فقال: نعم، فوضعت يدها على الملك!.

فأنت عندما تكون مع الله ويحبك وتحبه وتحب كلامه، انتهى الموضوع بعد ذلك، لا نتحدث هنا من أجل وعظ، بل هذه حقيقة يعيشها ناس شهادةً، يعيشها ناس عطاءً، يعيشها ناس قيامَ ليل، يعيشها ناس بكاءً، يعيشونها يحسونها يتذوقونها، يعيشونها معانٍ.

فانظر إلى قوله –عز وجل-: {**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ**}.

وقفنا عند كلمة {**اللَّهُ**} هذه الكلمة الجليلة هذه كلمة مشتقة، ومعنى مشتقة أن لها أصل صفة، والأسماء إما أن تكون مشتقة من صفات وإما أن تكون غير مشتقة من صفات، يعني أنت لو قلت: عُمَر، أُخِذ مِن العُمْر، لها أصل، لو قلت: خالد من الخُلد، لكن لو قلت جبل، هذا اسم، معاذ بن جبل، معاذ من العَوْذ أي

الالتجاء، جبل: ليس هناك مصدر لصفةٍ مشتقة، فالمشتقة هي المستخلصة من صفة، فأما الجامدة فليس لها صفة. فكلمة (**الله**) هذه مشتقة، بعض أهل العلم يقول أن الأصل هي المصادر وهؤلاء أئمة أهل البصرى، وبعضهم يقول الأصل هي الأفعال وهم أهل الكوفة، فمن أيّ شيءٍ من الصفات اشتُق اسم **الله**؟ هذا اسم له أصل من المعاني والصفات، وهذه المعاني والصفات لكلمة (**الله**) هي التي تحمل عظمة هذا الاسم، لأنك لو قلت عمر تحمل معنى العمر، خالد تحمل معنى الخلود، وكلما كان المصدر عظيمًا في صفته كلما دل الاسم على المراد، ولذلك لما أراد عبد المطلب ان يذكر لابن ابنه اسمًا جليلًا سمّاه (محمد)، أراد تعظيمًا، فعجيب! قال: "أردت أن يُحمد في الأرض والسماء"، انظر العربي عندما يُسمّي، ليس لأنه اسم جميل ولكنه اسمٌ جميل لأن له معنى. ولذلك العربي كان يُسمّي ابنه اسمًا شديدًا صعبًا ويسمي خادمه اسمًا سهلًا مثل ميسرة، سهل، لكن ابنه حمار، جبل، فقيل للعربي لماذا تسمي ابنك تسمية صعبة خشنة، وتسمي خادمك تسمية سهلة؟ فقال العربي: أبناؤنا لأعدائنا وخدمنا لنا.

والعرب كل لغتهم على هذا، لا يوجد عندهم كلمات ليس لها قيمة، قالوا لعربي: ماذا تُسمّون ماء الطعام عندكم؟ فقال: السَّخين، فقال له: وإذا برد ماذا تسمونه؟ قال: لا نتركه حتى يبرد، ما دام ليس موجودًا فلا ضرورة لتسميته.

فهذا جلال العربية، كلما كان الاسم مشتقًا من صفة جليلة دلّ على حقيقة في اسمه ومراد واضِعِه، كما قال: "محمد، أردت أن يُحمد في السماء والأرض"، فلما رضي ربنا لاسمه جل في علاه (**الله**) دلّ على أن هذا الاسم مُشتق من أعظم ما يوجد في الوجود؛ لأنه هو أعظم الموجود؛ الله، فليس هناك أعظمٌ فوقه، وهو بالغ العظمة مستحقها مستدركها، فالاسم هذا مشتق من أعظم ما يوجد في الوجود؛ هو الاسم الجامع لكل ما يفعله العبد مع إلهه وهو (**التَّألُّه**)، **فالله** هذا الاسم الجليل مشتقٌ من **الإله**، والإله هو الذي أحبَّه عابِدُه كل الحب وخاف منه كل الخوف ورجاه كل الرجاء.

تصور هذا الذي يخافه كل الخوف لا يخاف غيره وهو العبد، ويحبه كل الحب، ومما ينشأ الحب؟ إذا كان المِحِب عظيمًا إنّما دلّ على عظمة المحبوب، فإنه في تمام جماله، في تمام كماله، في تمام إحسانه، في تمام عطائه، في تمام

كرمه، تمام، تمام.. كل الأسماء الحسنى، فقط بعظمة المحبوب. فإذن هذا الإله لا يُعبد إلا هو—لأن العبادة سؤال؛ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}- فإذن هو يسأله.

انظر إلى آلهتهم، افتح سورة الأحقاف، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ} لم يقل: "ما يستجيب"؛ لأن "ما يستجيب" قد تكون بسبب عدم رغبته بجوابه، "ما يستجيب" له هذه ليست دالّة على عجز في أصلها ولكن الثانية لا تدل إلا على العجز، عجز المسؤول، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}، ما معنى غافلون؟ ما مقابل الغفلة؟ مقابلها **القيام**، ولذلك أعظم صفات الله هي: **الحيّ القيّوم**؛ لأن القائم على غيره لا يغفل، فأعظم الصفات التي تُناقض الغفلة هي القيّوم، قال تعالى عن نفسه: {قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، بعض الناس لضعف عقولهم يظنون أن الله قد خلق الخلق وأوجده وقال له: كنّ، فجرى هذا الشيء الذي خلقه على الصفة التي جرى عليه دون أن يبقى قيامه عليها في حال وجودها وصفاتها، يعني الله لمّا خلق الخشب، ذرة خشب، وقال لها: كوني، لم يقل لها: كوني، وبعد ذلك بقيت جارية على صفات الخشب بالأمر الأول، لا، بل هي عندما قال لها :كوني، فوُجِدت على هذه الخِلقة بقيت محتاجة إلى قيام الرب عليها في كل لحظة وآن على الصفة التي خلقها عليها.

هذه ذرات الوجود، عليك فقط أن تحاول أن تُدرك أن كل ذرة ربُّنا قائم عليها بما أوجدها عليه من الصفات في كل لحظة، وإرادته متوجهةٌ إليها بأن تبقى على هذه الحالة، وبعد النظر إلى الذرة انظر إلى الجزء الذي يكوّنها ثم انظر إلى الكون الذي يكونه، **فالله قائمٌ على كل ذرّةٍ في الوجود في كل لحظة**، وإرادته متوجهة وليست غائبة، لم يقل لها كوني وغاب عنها ولم يغفل عنها، بل هو قائمٌ عليها في كل لحظة، فهذا معنى (غافلون).

ممكن نقول شيئًا بسيطًا جدًا، هذا النَفَس الذي يتلجلج فيك، الله قائم عليه، كم حركة قلب؟ في كل حركة قلب الله يأمر القلب بالنبض، وقائمةٌ إرادته في هذا القلب أن تكون، فهل عرفنا الآن ما معنى {وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}؟

{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ} هذا الله جعله ضلالًا، وإذا سمّى الله شيئًا ضلالًا برّأ نفسَه منه.

فإذن لـمّا نقول (**الله**) مشتقة من **الإله**، وهذا الإله لا يكون إلهًا حتى يُحبَّ كل الحب، وحتى يُخاف كل الخوف، وحتى يُرجى كلّ الرجاء، فإذا اكتملت هذه المعاني في أحد وتوجه العابد إليه كان مألوهًا.

هذه بعض النظريات العربية الرائعة، ابن جنّي في (الخصائص) قال: "كل كلمة بُنيت بحروف مستعملة.."، فالكلمة منها المستعملة ومنها المهملة مثل: (زيد)، لو عكستها: (ديز)، غير موجودة، لو قلت: (يمّ)، وعكستها: (ميّ)، تُستخدم وهي صحيحة، ولو قلت: (عين) أو (نعي)، فهي مستخدمة. يقول ابن جنيّ: "أن الكلمة إذا كان جذرها واحدًا في تعدُّد الحروف كان المعنى قليلًا"، مثال ذلك قال: إذا اجتمع حرف الجيم مع النون دلّ على الخفاء، فأنت تقول جنيّ: خفاء، تقول جنون: خفي العقل، تقول جَنَّ: خَفِيَ، تقول جنّة: كثر ما فيها من أشجار خفي ما فيها، وهكذا، فهو يقول هذا، وأنت حين تنظر إلى كلمة **إله** أينما وجهتها دلّت على الإله، فهي مأخوذة من الإلَه يعني المعبود، وهي مأخوذة من الوَلَه يعني الحب، ومأخوذة من الإلْه، والإلْه هو الحيرة. فقالوا هو إلَهٌ معبود وهو مألوهٌ من الوَلَه لأنه محبوب ولو تفكرت في أي أمرٍ من أموره من أسمائه وصفاته وفعاله ومُلكه لن يقع في عقلك إلّا الحيرة، فدلّ على الكمال، هذا كله لهذا الاسم الجليل **الله**.

وهذا الاسم عند بعض أهل العلم هو الاسم الأعظم، ويليق به، فإنّ كل الصفات التي ذُكرت في القرآن وفي السنة أو أُخبرت عن الله مِن خَلقه –العلماء يقولون: باب الإخبار أوسع من باب الإثبات– فكل ما أُخبر عن الله –عز وجل– لا يمكن أن يخرج عن كلمة (**الله**)، الذي خلق السماوات والأرض، الذي يُحب كل الحب وغيره لا يستحقه في هذا المعنى، ولذلك ما من صفةٍ لربنا —جلّ في علاه– إلّا وهي داخلةٌ من باب التضمن واللزوم في اسم الذات واسم العَلَم (الله)، فإن الإله لا يمكن أن يكون أعمى، لا بد أن يكون بصيرًا، لا بد أن يكون سميعًا، لا بد أن يكون قديرًا، لا بد أن يكون الصمد، ما معنى الصمد؟ نفس معنى إله، قال ابن عبّاس: "الصمد هو السيد الذي كَمُلَ سؤدده"؛ لأن الصمد أصلها من المُصْمَت، والمُصمت هو الذي لا جوف له، وإذا كان الشيء لا جوف له لا يكون محتاجًا، لا يأكل ولا يشرب، فلمّا كان الصمد ما لا يحتاج لواحد

فأُخذت من المصمت، والفلاحون يقولون: "صمدنا العروس"، وأصلها من أن الملك كان يُصمَد، صُمد الملك، والناس الآن يصمدون العروس فيضعونها أمامهم ويرقصون أمامها وينظرون لجمالها، فكان قديمًا يُصمد الملك أمام الناس ليقضي لهم الحوائج، فإذا خرج الملك للناس وأُجلس لقضاء الحاجات قيل: صُمِد الملك، فمعنى الصمد: أنه لا يحتاج أحدًا والكل يحتاجه، هو لا يحتاج بسبب أنه مُصمت وهو الكل يحتاج إليه.

فقوله -عزَّ وجل-: {وَهُوَ اللَّهُ} وهذا لا يخالف فيه مسلم أن الله ليس بذاته في السماوات والأرض، وإنما المقصود هنا قال -عزّ وجل-: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} فأُقيم الاسم مقام المعنى، يعني {وَهُوَ اللَّهُ} أي وهو المألوه في السماوات والأرض، هذا المقصود وهذا أجلُّ في المعنى من أي معنى آخر، وبعض أهل العلم ركض إلى هذا المعنى، كما ذُكر عن الزجَّاج ونقله ابن عطية وقال: "المقصود تعلُّق أي صفةٍ فيه"، والمقصود ماذا؟ يعني الله قدير، هل الله قدير في السماوات والأرض؟ نعم، لو قال الله سميع، سميع في السماوات والأرض؟ فهذا معنى جليل، قال ابن عطية لكلام الزجّاج: "وهذا أجمل التوجيه"، نحن قلنا أن ابن عطيّة هو مفسّر أندلسي، وهو إمام عظيم في البلاغة، وهو ينافس المشارقة في الزّمخشري -الزّمخشري من المشارقة-، لكن الزمخشري في تفسيره يهتم بالمعاني وابن عطية من المغاربة يهتم بالبديع، وهذان من مكونات علم البلاغة: البيان والبديع والمعاني، هذه أقسام علم البلاغة.

فقوله {وَهُوَ اللَّهُ} في السموات والأرض أي وهو المألوه المعبود، {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ}؛ أي يستحق العبادة ولذلك ما من عبادة حق تقع في الوجود إلا اذا كانت متوجهة إلى الله، فقال بعد أن فرغ ربنا -عز وجل- من ذكر السماوات والأرض وتنوُّع الأحوال فيها.

القرآن فيه كثير من السور التي يهتم **بتنوع الخلق ووحدة الحق**، تكلمنا عن سورة فصلت، ما الخيط الجامع لها؟ الحديث عن مراتب المُنكرين للقرآن وتنوّع أحواله، فإذا أردت أن ترى هذا الأمر وهو تنوع الخلق، قلنا الخلق لم يجري على شيء واحد، شيء وهذا يدل على القدرة، ولكن القرآن يقرر وحدة الحق، الحق واحد، فتجد هذا في سورة الشورى، والذي يقول لك أن الله نوَّع الخلق وبالتالي هي حجة لتنوع الحق، هذا ضال، فالحق واحد ولذلك قلنا {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا} قال ربنا -عز وجل-: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي} كم صراط لله؟ واحد،

ودائمًا كلمة السبيل الحق لا بد أن تُنسب إلى الله، والصراط لا يكون مطلقًا إنما نسبة إلى الله أو الاستقامة، الصراط المستقيم، أو الصراط الله، لا يُطلق هكذا فقال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} سبل الباطل كثيرة، ولذلك لما قالوا له {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي **ضَلَالٍ**} ماذا رد عليهم نوح؟ {يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي **ضَلَالَةٌ** وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وقوله -عز وجل-: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} يعني هو المألوه المستحق للعبادة في السماوات والأرض، طيب هذه السماوات رأيناها سريعًا {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، ثم جاء ليقول {هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ} فذكر ربوبيته في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} هذه ربوبيته، أنه هو الذي خلق وأَوْجَد، وذكر إلهيته في قوله: {هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} فهذا هو تمام التوحيد، فلذلك **سورة الأنعام هي سورة التوحيد،** كما ذكرنا، أعظم ما فيها ذكر التوحيد في كل أنواعه، سنرى توحيد الأسماء والصفات، سنرى توحيد الشرائع، سنرى توحيد الحب والولاء في هذه السورة، وهذه سورة مُفصِّلة لهذه الأنواع، فبعد أن ذكر ربنا —سبحانه وتعالى– قدرته وعظمته وذكر الإنسان، جاء إلى ما ينبغي على الإنسان، قال: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}. لماذا لم يستخدم كما في الآية الأخرى {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ} لماذا قال {هُوَ اللَّهُ}؟ قال هذا لقُرب العهد بتعظيم اسمه، في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ} فلما كان قريب العهد في ذكر اسم الله وقد عُظم وامتلأ به القلب، جاء -سبحانه وتعالى- فقال: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} من أجل أن يبني على ما مهَّد له وذكره.

قال -سبحانه وتعالى-: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}، تقدَّم الكلام عن السماوات والأرض، وللعلماء مقالات أخرى نمر عليها.

قوله: {**يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ**}.

السر هو مقابل الجهر، والسر قد يكون مطلقًا فلا يعرف به إلا واحد، وقد يكون نسبيًا يعرفه ناس دون أن يعرفه غيرهم، والله -عز وجل يعلم- السر كله، بل قال -سبحانه وتعالى-: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} وأخفى من السر هو قبل أن ينشأ القول في قلبك يعلمه، فقوله: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، فلو قلنا أن السر هو حديث بين اثنين، فيكون الأخفى هو قبل أن يكون بينهما، إذا كان هذا عن السر، وهذا هو معناه الظاهر في الكلام، ولكن كذلك السر لو أنه لا يعلمه إلا واحد لكان معنى الأخفى ما هو قبل معرفة صاحبه له، لا بد من مراعاة هذا.

قوله -سبحانه وتعالى-: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} وفي العلم هنا لم يستخدم أي واسطة، الكتابة استخدم واسطة الملائكة يكتبون {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ}، وفي القرآن إذا جاء الفعل بصيغة الجمع دلَّ على العظمة، كقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} فلما كان المُنزَل عظيمًا استخدم له لفظ الجمع، وقوله {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ} هذا لا بد فيه من شيء آخر وهو الله والملائكة هذه صفة الجمع، ولذلك جاء للعلم ولم يذكر واسطة {**يَعْلَمُ** سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}، {قَدْ **سَمِعَ** اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} لم يذكر واسطة، ولكن حين تُذكر الواسطة في الأحاديث مثل -هذا المجلس نسأل الله أن يكون محفوفًا بالملائكة- وفي الحديث : (إنَّ للهِ ملائكةً يطوفون في الطُّرُقِ يلتمسون أهلَ الذِّكرِ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون اللهَ تنادَوْا: هلُمُّوا إلى حاجتِكم. قال: فيحُفُّونهم بأجنحتِهم إلى السَّماءِ الدُّنيا، قال : فيسألُهم ربُّهم -وهو أعلمُ منهم- ما يقولُ عبادي ؟..)[٣٣]، هذا الحديث لماذا؟

فلماذا يسأل الله؟ تنويهًا وعظمة.

نتجه إلى الشعر، قال المتنبي -وإن كان شعره لا يُحتجّ به باللفظ ويُحتج به في المعاني-، قال:

وكثيرٌ مِنَ السؤالِ اشتياق ... وكثيرٌ مِنْ ردّه تعليلُ

---

[٣٣] صحيح البخاري: (٦٤٠٨).

قال: "أطويل طريقنا أم يطولُ؟" هو يعرف الطريق لكن يسأل بسبب الشوق، فذِكر السؤال ليس فقط من أجل المعرفة، فكثير من السؤال اشتياق، كي يقطع الطريق أو ينبه بالأمر أو ينوه عليه عظمَة فهو اشتياق. ومن حديث السؤال وطرب الأذن، فأنت تعرف أن زوجتك تحبك ولكن تحب أن تسمع، فأنت تزيد عن معرفتك أنها تحبك أنك تُحب أن تسمع. كان أحدهم يحب شعر حسن بن هانئ -أبو نواس- فكان يقف على الطرقات ويشرح شعر أبي نواس، وأبو نواس شاعر عظيم، فوقف عليه أبو نواس يومًا، أبو نواس هو الذي قال الشعر ولكن يريد أن يسمع كيف فهمه هذا الناقد، فقال للناس الحضور أمامه في المجلس: تعرفون لماذا قال الحسن هذا البيت؟

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرًا إن أمكن الجهرُ

قال: حتى يجمع بين لذة النظر ولذة المذاق ولذة السماع، قال له الحسن: قبّحك الله وما خطرت على بالي!، وهذا من بلاغة العربية، أحيانًا يكون هناك معانٍ يبدعها المرء داخل كلامه.

وبهذا نقف وبارك الله فيكم، والحمدلله رب العالمين.

▪ أسئلة:

١. هل علم الله كشفي أم تأثيري؟

يعني إذا علم الله شيئًا هل يؤثر على المعلوم أم أنه فقط يدل على علمه بمعنى العلم وهو كشف الشيء في نفس عالمه؟ بلا شك يقول أهل العلم: "العلم سابق وليس سائقًا".

٢. هل القرآن قطعي الثبوت وقطعي الدلالة؟

القرآن قطعي الثبوت يقينًا لأنه ثبت عن طريق التواتر، وشرط معنى التواتر في القرآن أنه قرأه أحد القرّاء المُعتَمدين وأنه يوافق لفظ المصحف ويوافق وجهًا من وجوه العربية، هذه شروط التواتر، فالقرآن وصلنا متواترًا

فهو قطعيّ، ولذلك الذي ينكر حرفًا منه أنكر قطعيًا أو كما يسمونه معلوم من الدين بالضرورة أي ما لا يمكن إنكاره. العلم يُقسم إلى قسمين: علم نظري وعلم ضروري، العلم الضروري هو الذي لا تحتاج فيه إلى دليل، مثل: أنك تجلس الآن في المسجد، هذا لا يحتاج إلى دليل، ما الدليل أننا في النهار؟ هذا من العلم الضروري اليقيني، الآن من العلم اليقيني أن محمدًا هو رسول الله، لا أحد يسأل عن الدليل. فهذا معنى الضروري: ما لا تستطيع العقول دفعه ولا تطلب له دليلًا.

يُقال: ما أنكر الناس من المعلوم بالعلم بالضرورة يعني أنكروا المقطوع به وبذلك يخرجون من الإسلام، فإذا أنكر المرء حرفًا من كتاب الله يخرج من الدين، إذا ثبت لديه.

٣. معنى قوله: "ظنيّ الدلالة"؟

هذه تحتاج إلى شرح ولكن في القرآن ما هو ظني الدلالة.

شرحنا لكم الفرق بين النص والظاهر، ما معنى ظاهر؟ قلنا يوجد معنى آخر، يعني الآن اختلف أهل العلم في قوله {ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} القُرء عند العرب هو الظهور، وتأتي بمعنى ما يفيض ولذلك هو من القَرء، والقِرى هو إظهار طعام الضيف، فعندما يفيض حيض المرأة يسمى قُرء، وعندما يغيض حيض المرأة يكون طهرًا، وهنا نكتة:

تناظر الإمام الشافعي مع أبي عبيد القاسم بن سلّام، كان الشافعي يقول: إن القُرء هو الحيض، وكان يقول أبو عبيد القاسم بن سلّام أن القُرء هو الطهر، فتناظرا فكل واحد أخذ بقول الآخر وغير مذهبه، فصار الشافعي يقول: القُرء هو الطهر، وصار أبو عبيد يقول: القُرء هو الحيض.

٤. كيف يكون علم الله –سبحانه وتعالى– سابقًا وليس سائقًا؟

يعني علم الله لا يسوقك للفعل، أنا أعلم أن فلانًا الآن سيفعل كذا، هذا ليس تأثيرًا من العالِم على صاحب الفعل، لكن هل الله الجبّار؟ نعم، هل الله يوفّق؟ نعم، هل الله يهدي؟ نعم، هل الله يحجب الخير عن الذي لا يستحقه؟ نعم، لكن هذا ليس له تعلق بالعلم، له تعلق بالصفات، يعني عندما نقول الله السميع، هل يجوز أن تقول أن السميع هو البصير؟ لا، السميع ما تعلق بالمسموعات والبصير ما تعلق بالمبصَرات والمرئيات فلا يجوز أن تقول هذه مكان هذه.

بارك الله فيكم والحمدلله رب العالمين.

الدرس الثامن

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام المرسلين، سيدنا وحبيبنا وإمامنا وقائدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كنا مع قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}.

هذا باب في البلاغة يُسمى **الالتفات**؛ الالتفات هو الخطاب الذي يتحول فيه المتكلم من حديثه من الغيبة إلى الحضور، ومن الحضور إلى الغيبة، وهذا في أول سورة في القرآن في سورة الفاتحة.

والالتفات كما ترون كأن الرجل يتحدث في جهة ثم يلتفت إلى جهة أخرى، فهو يتحدث إلى حاضر ثم يلتفت إلى حديث الغائب كأنه ينقلب، أو من جهة الغائب إلى جهة الحاضر وهكذا. فأنتم ترون في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ثم انقلب: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، فكان لأحده كلامًا (خطابًا) عن الغائب، الضمير الغائب (الحمد لله رب العالمين)، ثم انقلب الحديث إلى (إياك)، وهذا موجود بكثرة في القرآن، ويسميه علماء البلاغة الالتفات.

ومنه: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} خطاب لهم، {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} هي (بكم) لكن انقلب الحديث من الحاضر إلى الغائب، وهذا فائدته التنوع، حتى يبقى الذهن حاضرًا.

وعلماء البلاغة لا يرضون الشعارات العامة كما نفعل نحن، فالشعارات العامة يجب أن تُحلَّل، كل شعار عندما يُطبَّق فله معنى في تطبيقه -وهذا ينبغي أن نعتني به-؛ فعندما يأتون إلى ما يسمى بالحرف الزائد {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا} المفترض (حتى إذا جاءوا)، لماذا (ما)؟ علماء النحو يقولون: هذا زائد، وطبعًا القرآن ليس فيه زائد، مثلًا {لَيْسَ كَمِثْلِهِ} الكاف يقولون أنها زائدة، لكن هذا لا يقبله علماء البلاغة، يقولون: كل زيادة تأكيد.

هذه الكلمة الشعار الكبير لا يقبلونه، لا تأتي زيادة في القرآن إلا ومقصود بها التأكيد، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} تأكيد، (ليس كمِثلك رجل) قَطْعٌ للمِثليَّة، ولكن هذه لا يقبلونها إلا بأن تُفسَّر الجملة على معنى خاص في هذا الشعار الكُلي، وهذا مفهوم.

مثلًا قاعدة سيبويه التي في (الكتاب)، هذه قاعدة قال علماء البلاغة: تزول الجبال ولا تزول؛ أن العرب تُقدِّم ما يجب الاعتناء به، عندما يقول حضر: عمر وخاله، لماذا قدَّم عمر؟ للاعتناء. عندما يقول: {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} هذا اعتناء، يعني السماوات مُعتنى بها في هذا الموطن، لكن وردت الأرض قبل السماء كما في سورة (يونس)، ووردت الأرض قبل السماء كما في (العنكبوت).

علماء البلاغة لا يقبلون هذا الكلام، يقولون نعم هو للاعتناء لكن لماذا؟ هنا يأتي دور العالم والباحث والمهتدي، لا يكفي أن يكون عالـمًا مع القرآن، لا بد أن يكون مُهتديًا وقلبه فيه الصفاء من ذكر الله ومن العبادة ومن الابتعاد عن المعاصي، لأن القلب مرآة؛ فكلما كانت هذه المرآة مصقولة ونظيفة انطبعت عليها المعارف بوضوح، وكلما كانت هذه المرآة مقعَّرة أو محدَّبة وليست مستوية، أو لم تكن مصقولة ثقلًا جيدًا أو عليها الوسخ والكدر والران، فهو ما قال: القَفل، والقفل هو أشده كما قال قتادة، ولذلك الران يُزال، ولكن القفل انتهى.

فيجب على القلب أن يكون مهتديًا ليهتدي إلى هذا المعنى في القرآن، لماذا قدَّم هنا الأرض على السماوات؟ هذا له معنى يجب أن تعتني به، إذا لم تعرف ارجع إلى العلماء وقد يصيبوا، وهذا باب يتناطح فيه الناس، لا يأتِ عالم يقول: هذا هو القول وانتهى، الباب لا يُغلق، في علم البلاغة وعلم اكتشاف أسرار القرآن لا يُقال فيه: "ما ترك الأول للآخر شيئًا"، بل يُقال: "كم ترك الأول للآخر شيئًا". ولا يُقال في هذا العلم -علم الالتفات إلى المعاني القرآنية وحروفه وكلماته ونسقه وتركيبه وتقدمته وتأخرته-، لا يُقال عنه هذا من علوم التي احترقت، بل لم تنضج، فما زال المضمار مفتوحًا، ما زال الميدان يتسابق فيه الناس. فمثلًا (اللعب) دائمًا يأتي في القرآن قبل (اللهو) إلا في سورة يونس، لماذا؟ هذا له مقصد، نحن فقط نُلقي الإشارة، وأنت دورك يا طالب العلم أن تبحث عنها وأن تكتشفها، وأن تعرفها.

ذكرنا لماذا يقدم السماوات عادة على الأرض، ولكن هناك لفتة في الآية التي تُقدم فيها الأرض على السماوات، يجب أن تعتني بها. اللعب يُقدم على اللهو لماذا؟ لأن هذا هو حياة البشر، يكون أمرهم إلى اللعب أولًا، ولا يُقال عن الطفل الصغير يلهو -أي يترك شيئًا مهمًا-؛ لأن الصغير ليس عنده شيء مهم، لأن اللهو هو التهاء فيه التفات، فاللهو يُعاتب عليه العظيم الكبير، واحد ترك الصلاة فلَهَا، واحد ترك خدمة أهله للعب، فهذا لهو، لكن الصغير في بداية حياته لعب، فهذا هو الأصل، أن اللعب بعد ذلك يكبر فيكون اللهو. لكن لماذا يقدم اللهو على اللعب؟ ينبغي أن ترى لماذا في هذه الآية قُدم اللهو عن اللعب. وهكذا.

والقصد في هذا أن الكلمات والشعارات التي يضعها العلماء لا يقبلها أهل البلاغة، لا بد أن يدخلوا في الفرع ذاته ليناقشوه، ولذلك لما وضع الإمام الجرجاني كتابه (أسرار البلاغة) فجاء بلديُّه الزمخشري وطبَّق هذه الأُسس على القرآن، و(الكشَّاف) -وهناك كشَّافان، الكشاف القديم والكشاف الجديد، هذا تجدونه في بعض الكتب وهي قليلة تكشف هذا الأمر، لأن الزمخشري هو جار الله، يعني جاور في مكة، فُسمي جار الله- فأول ما كتب سورة البقرة ثم خرج، وأهل مكة تعلقوا به.

وللناس في التعلُّق مع العلماء قصة، ولا بأس أن نمر عليها للزهد؛ الإمام عبد الوهاب المالكي هذا إمام عظيم، على الرغم أن ابن حزم لا يحترم أحدًا إلا القليل، فهو يحترم عبد الوهاب المالكي ويرى أنه أعظم فقيه مالكي من الأوائل، وهو قاضٍ، لم يكن قاضيًا أولًا ثم ذهب إلى مصر فيُسمى القاضي، فمفاتيح كتب المالكية إذا قيل القاضي فالمقصود به عبد الوهاب المالكي، نحن نفسِّر حتى نفهم القصة. هذا عبد الوهاب المالكي كان في بغداد فهو مشرقي، ومذهب المالكية فيه المشارقة والمغاربة، فكان في بغداد، وبغداد قديمًا متَّهمٌ أهلها بالبخل، فمكث فيها عشرين سنة ثم خرج منها. فقالوا له لماذا تريد الخروج؟ قال شيعت رجلًا البارحة -وجد الناس يمشون في جنازة فمشى معهم طلبًا للأجر، (من شهِد الجِنازةَ حتَّى يُصلَّى عليها فله قيراطٌ، ومن شهِدها حتَّى تُدفنَ فله قيراطان)[٣٤]- فسأل من بجانبه قال له: من الرجل؟ قال له: غريب، متى دخل بغداد؟ قال: من ثلاثين سنة، -على فكرة الوحيدون في العالم الذين يضعون أسماء قراهم وبلدانهم على مقابرهم هم الفلسطينيون

(٣٤) صحيح مسلم: (٩٤٥).

فقط، وإن لم تصدقوا جولوا في المقابر وابحثوا في كل مقابر الدنيا!-، المهم خرج من بغداد فشيَّعه الناس، هذه على قضية تعلق الناس بالعلماء. فلما خرج جعلوا يقولون له: يعز علينا فراقك يا عبد الوهاب، فقال: يعز عليكم فراقي؟! والله لو وجدت في بلدكم رغيفين في كل يوم ما خرجت، رغيف في الصباح ورغيف في المساء!. فخرج وصار ثريًا، وصار قاضيًا في مصر وفُتحت له الدنيا.

نرجع، الزمخشري لما أراد أن يخرج قال له: لا، لا بد أن تجلس حتى تُتِم تفسير القرآن على هذا النَّسَق؛ وهو تطبيق أسرار البلاغة على القرآن، والزمخشري مثال العلماء يقولون:" تفسير الزمخشري مثل الشعير"، تعرفون الشعير مأكول ومذموم، ففي الحقيقة كلهم يأخذون من الزمخشري، وما تسمعونه مثلًا من كلام ابن القيم، كلام ابن كثير، كلام ابن تيمية في المثل الناري والمثل المائي كل هذا من عمهم الزمخشري!، فلا يستطيع طالب العلم أن يستغني عن هذا الكتاب وعلى ما فيه من الاعتزال، والذي حاول البعض أن يُنقّيه فلم يستطِع، فبقي فيه ما فيه. وأفضل مختصر له البيضاوي على ما فيه من اختصار مُخِل.

فالقصد أن الالتفات هذا من البلاغة، لماذا يقع الالتفات؟ قلنا من أجل ألا تقع السآمة والملل في أن الخطاب يجري على نسق، فانظر إلى قوله: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} هذا يجعلك تقف، جريان الشيء على وِفق وتيرة واحدة يمنع الفكرة، والدليل الشمس؛ أكبر مخلوق في الوجود الإنساني في الأرض هي الشمس، لأنها تمشي كل يوم لا أحد ينتبه لها، ولكن لو تغيب خمسة دقائق فقط انظر إلى العالم كيف سيتحول!، ولذلك جريان الشيء على وفق السنة المعتادة منع التفكُّر، فالقرآن يريد أن يمنع هذا، يريد أن يقول لك: قف هنا شيء انتبه، وهذا معنى الآية.

فلما قال -سبحانه وتعالى-: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} وهذا التفات؛ لأنه قال قبله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ}.

يقول السائل: لماذا قال: (تمترون) وقال: (يعدلون)؟ خطاب المرية جاء لنا جميعًا، وخطاب العدل جاء خاصًا (يعدلون) خطاب عن آخرين؛ ذلك لأن الشرك لا يشترك فيه الناس جميعًا، فهو مَعيب أن يُنسب إليه أي إلى جميع الناس، وإنما يُنسب إلى خاصة وهم المشركون، لكن المرية والنقاش حتى إبراهيم -عليه السلام- كما قلنا

في الصحيحين: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)، قال: {لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} فالقلب يدور فيه من الحوار، فالامتِراء أي الجدال والمِراء يقع لجميع الناس ولأغلبهم، فجاء الخطاب إلى الجميع.

لكن هنا نحن نرى وهذا من الالتفات في القرآن، يأتي مرات في السموات والأرض ومرات يأتي في السموات وفي الأرض، لماذا هذا؟ للدلالة على أن الفعل ليس واحدًا فيهما، بل فيه اختلاف، والاختلاف في هذا الباب من القرآن عظيم، -أنا لا أعرف من تكلم فيه، ولكن أرجو أن يكون إصابة مني-.

لماذا يستخدم القرآن كلمة (الظن) بدلًا من (اليقين)؟

كل المفسرين فيما قرأت لهم، وأرجو أن أكون قرأت أغلب المطبوع، يقولون بأن الظن يأتي بمعنى اليقين، هذا غير مقبول، لا بد هنا من معنى، لماذا لا يقول اليقين؟ {الَّذِينَ **يَظُنُّونَ** أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} هنا مكان مَدْحِي لماذا يأتي بكلمة (الظن) التي هي في كل معانيها أعجز للدلالة عن اليقين في قلوب هذه الطائفة من المؤمنين، أنهم كأنهم يرون الآخرة رأي العين، ويأتي بكلمة الظن، فيقولون: الظن بمعنى اليقين، هذا كلام غير مقبول. هو على معنى اليقين لكن لماذا استخدم كلمة الظن؟ استخدمها لأمر، وهو أن الفعل فيه ظن، من جهة قلوبهم يقين، ولكن من جهة معرفتهم بكل أحوال الساعة فيه ظن، والدليل أنهم لا يعرفون وقتها، فكان لا بد من ذكر كلمة (الظن) الملائمة للفعل كله، وليس فقط لمجرد فعل القلب في تصديق الآخرة، فإن الآخرة أنت تظن بها، وأنت على يقين أنها ستقع، لكن لو قيل لك متى تقع؟ لا تعرف، إذًا أنت على ظن، أنت الآن على ظن أنها ستقع قريبًا، (بُعثت أنا والساعة كهاتين)، متى تكون؟ على ظن.

فلذلك استخدام الكلمة في القرآن له معانٍ، ولا ينبغي الوقوف عنده فقط على ما يُقال من كلام عام، لا بد أن تتأمل فيه.

مثلًا كلمة (**عسى**)، يقول ابن عباس: "عسى مُوجِبة في القرآن"، قال بعضهم تعليقًا على الكلمة: "إذا وقعت من فِعل الرب". ما معنى موجبة؟ يعني أنها يقين، وعسى هي من حروف معاني للتَّرجي. لكن هي في القرآن

ليست على فعل الترجي ولكن على جهة اليقين، فلماذا؟ تأملت (عسى) في القرآن فوجدتها كلها واقعة على معنى، وهو أنها مترتبة على فعل الغير؛ يعني فعل الرب {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ}، فهي مترتبة على فعله أن يرحمكم، وهذا كثير، فهي مترتبة على غيرها، فإذا وقع غيرها كانت موجبة يقينًا. إذًا هي مناسب أن نقول عسى، ولا يقول لفظة غيرها. لأن التخلُّف من فعل الرب أم من فعل الفاعل الذي ترتَّبت عليه كلمة عسى وفعلها؟ فهذا ينبغي أن ننتبه له.

فلماذا قال: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}، ومرات في القرآن يقع: (السموات والأرض)، والجواب أن الفعل يختلف؛ ففِعل ما يقع في السماء غير ما يقع في الأرض. نحن قلنا: {وَهُوَ اللَّهُ} معناها يُعبد، هل عبادة الله في الأرض هي عبادته في السماء؟ هل هي نوع العبادة؟ قطعًا لا، فتغاير الفعل؛ فجاء هذا الفصل {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ} ما قال: (والأرض)؛ ذلك لأنه إله في السماء على معنى، وإله في الأرض على معنى، وهذا الذي لم يفهمه الملائكة.

أعظم ما يُبتلى به العبد العابد الولي الصالح التقي هو قضية القَدَر، الشرع يُفهم، الشرع قلَّما يعترض عليه العابد، يعني الله أمره بالصلاة فيفرح، الله أمرنا بالزكاة مفهومة، لا يعارض فيها العابد التقي، لكن متى يقع الاعتراض؟ على الأقدار، ولا تُفهم، ولذلك أعظم فتنة وقع فيها الصحابة في الحديبية، ما فهموا هذا الفعل، ووقع في الصحابة شيء كثير من هذا. بل إن نوح -عليه السلام- قال: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}، فالأقدار هي مشكلة العالم، وما من أحد إلا سيُبتلى بأن لا يفهم في شيء، فعليه أن يقول: "الله أعلم، وسلمت أمري لله".

ولذلك في الحديث: (وإذا ذُكر القدر فأمسِكوا)[٣٥]، وهذا من معاني الحديث، -وهذا لم يقله أحد، وأرجو أن أكون قد وُفِّقت إليه-. طبعًا هناك للعلماء تفسير آخر لهذا الحديث، لا نريد أن نقف عنده، لأن درسنا ليس عن القضاء والقدر ولا عن العلم الإلهي. فمن معاني هذا هو هذا؛ وهو أن العبد يُبتلى بأقدار لا يفهمها،

---

[٣٥] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (٥٤٥).

ويُسلِّم لها، لماذا هذا؟ لا ندري، وعمر -رضي الله تعالى عنه- بقي يستغفر ويتصدف على اعتراضه على الحديبية، لأنه لم يفهمها، حتى نزلت السورة فصدَّقوا أنها فتح، وكانت هي سبيلًا لفتح مكة كما تعلمون.

فالملائكة -على قُربها من الله- لم تفهم لماذا يخلق اللهُ مَنْ يعصيه، ولذلك قالوا هذه الكلمة ليس اعتراضًا كما يقول بعض المفسرين وحتى بعض المعاصرين، وأخطأ فيها بعض القدماء، قالوا: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} ليس اعتراضًا، الله -عزَّ وجلَّ- مُتكبِّر لا يقبل الاعتراض، نوح -عليه السلام- أخذ ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو يدعو إلى الله، ولم يعترض {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي}، ومع ذلك قال له: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} هذه تُقال لمن؟ للحبيب، لأولي العزم من الرسل، وأول أولي العزم من الرسل الذي مكث ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو يدعو إلى الله، ويصبر على أذى قومه، ويناجي ربه ويعبده حق عبادته، ثم يقول له: {فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، الله -عزَّ وجلَّ- عظيم متكبر، (العزة إزاري، والكبرياء ردائي). أيهما أعظم الإزار أم الرداء؟ الرداء لأنه مظهر علوي، والكبرياء رداء الله، فهذه لا يُنازع فيها.

الله -عزَّ وجلَّ- يحب أن تكون عبدًا، ما معنى عبد؟ تقول عبّدت الطريق، ممنوع الاعتراض، يعني الطريق غير معترضة، ما فيها حفر، ما فيها مطبات، ما فيها حواجز، مُعبَّدة، فالله لا يحب لا الحفر ولا العوارض ولا الحواجز ولا المطبات، يجب أن تقبل أقداره بالصبر والتوكل كما أنك تقبل شرعه، وكلاهما حكمه، وكلاهما في سورة واحدة وهي سورة يوسف، الحكم الإلهي والحكم الشرعي، بقول يوسف -عليه السلام-: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}، ماذا يقابلها؟ {أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، ويعقوب في الحكم قال: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} هذه تقابل الحكم، وهناك الصبر والتوكل، وكل له مجال.

فلماذا الملائكة لم تفهم هذا؟ لأنهم لا يعرفون الله حق معرفته، ونحن لا نجزم حق معرفته كما يعرف نفسه، هم يعرفون من أسماءه القدوس، ما موجب القدوس؟ أن تقول: سبحان الله، ما موجب اسمه العظيم؟ أن تقول: سبحان الله، ما موجب اسمه المنَّان؟ أن تقول الحمد لله، هل نحن نعرف كل أسماء الله؟ نحن لا نعرفها، لأن هناك أسماء وصفات لا نعرفها، لأننا لا نستطيع أن نتعبَّد بها، خُلقنا على هيئة لا نستطيع أن نتعبَّد بهذه

الأسماء. فالملائكة مخلوقة على هيئة لا تستطيع أن تتعبد في جميع أسماء الله، وذلك أنهم لا يستطيعوا التعبد باسمه الغفور؛ لأنهم لا يعصون الله، فلماذا يقولون: أستغفر الله؟ وعُرضت الأمانة عليهم فهم مبرؤون من أي ذنوب أو أعمال غير الطاعة.

فقولهم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} هذا ليس من قبيل الاعتراض، هذا من قبيل الاستفهام، فالله قال: {إِنِّي أَعْلَمُ}؛ أعلمه ومن أجل هذا خلقكم، في الحديث: (والذي نفسي بيدِه! لو لم تذنبوا لذهب اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون اللهَ ، فيغفرُ لهم)[٣٦]، إذًا الله خلقك لتُذنب، الله خلقكم لتعصي، من أجل أن تتحقق المغفرة بعبادتك لله بالاستغفار، **ولذلك الاستغفار هو أعظم العبادات بعد الحمد**، وفي الحديث تشبيه فرح الرب باستغفارك تشبيهًا لم يأتِ قط لأنه لهذا خلقك، ما ورد أبدًا لا في قرآن ولا سنة تشبيه فرح ربنا كما ورد فرحه في سماعه لاستغفار عبده!. فقال الرسول ﷺ: (أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه ، حين يتوبُ إليه ، من أحدِكم كان على راحلتِه بأرضِ فلاةٍ، فانفلتت منه، وعليها طعامُه وشرابُه، فأيس منها، فأتى شجرةً. فاضطجع في ظلِّها. قد أيس من راحلتِه. فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمةٌ عنده. فأخذ بخطامِها. ثم قال من شدةِ الفرحِ: اللهم! أنت عبدي وأنا ربُّك. أخطأ من شدةِ الفرحِ)[٣٧]، الله يُشبِّه فرحه بخطأ، ولـمَّا يُخطئ المرء يفعل ما لا يريد من المبالغة، وهذا شيء لا يُقال الله أخطأ، ولكن المقصود أثره، وذلك أن الله يعطي على المغفرة ما لا يمكن أن يعطي على غيره، والدليل: {يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}.

ابن القيم في (مدارج السالكين) قال :"هنا كلام يخطر على القلب لا أستطيع أن أكتبه" معانٍ، وهذا دلالة الإخلاص.

عدو أهل السنة مَن مِن المعتزلة؟ الجهم، هذا خطيب المعتزلة، حتى لـمّا يقبض على عنق الإمام أحمد لا يكاد يُفلته، لكن لما يأتي للشافعي يقول: "قرأت كلام النَبَغة -أي البلاغة والنُّبوغ- فلم أرى أحدًا أجملُ لفظًا كأنه ينثر الدر ككلام الشافعي"، هذا العظيم في بيانه يقول: " يخطر على بالنا أمور لا نستطيع أن نبين عنها

---

(٣٦) صحيح مسلم: (٢٧٤٩).

(٣٧) صحيح مسلم: (٢٧٤٧).

بألسنتنا"؛ ألسنتنا تعجز عن هذه المعاني في القلوب.

فالله خلقنا لهذا، فالإلهية التي في الأرض غير الإلهية التي في السماء، فقال سبحانه: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ} هذه لها معنى، {وَفِي الْأَرْضِ} هذه لها معنى آخر، لو جُمع بينهما لكان فيه اشتباه، كما قال العبد: "ومن يعصِهما" هذا فيه اشتباه يجب الابتعاد عنه، والقرآن لا يقع في هذا أبدًا.

قال سبحانه: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}، من أجل الإحاطة بفعل العبد ذكر السِّر، والسر قد يكون عملًا وقد يكون قولًا، ولكن أول ما يتبادر إلى الذهن أن السر هو الأقوال التي تدور بين الناس، ولـمّا كان الإنسان ما يُسر في قلبه القول، وما يسر في قوله، فلا بد أن يُذكَر عمله فقال: {وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}؛ والكسب: هو ما أخذه الإنسان نتيجة فعله، ويسمى الفعل ذاته كسبًا، يعني هل الصلاة كسب؟ نعم، هل إصلاحك لشيء تالف كسب؟ نعم، النتيجة المترتبة عليه كسب وهو المال، يعني أنت تُعطى الأجرة على الإصلاح فهذا كسب، ومن الكسب فعلك، فالفعل كسب، وما يترتب على الفعل هو من الكسب.

الآن هذا حديث عن إلهية الرب وربوبية الإله، -وهذه من الأبجديات، وأنا قلت شيئًا من بناء السورة القرآنية- . ومن أعظم ما يجب أن تتعلَّمه في هذا الباب هو أن ترى تركيب السورة في الخطاب عن تكوين الله الذي يترتب عليه إلهية الله، بمَ استحق الله -عز وجل- الإلهية؟ بالربوبية، يعني لماذا أنت تدعوه؟ لأنه الغني، هذا من ربوبيته. لماذا أنت تشكره؟ هذا الشكر من تعبُّدك، دعاؤك هذا من تعبدك، فأنت تشكره لأنه ربٌّ لك، هو الذي أعطاك ورزقك وأمدَّك، **فالإلهية مترتبة على الربوبية، واستحق كمال الألوهية لأن له كمال الربوبية**.

من أجل هذا السورة القرآنية مركَّبة للحديث عن هذين الأمرين، فأنت تعجب كيف يضع القرآن -وقضايا الإلهية كثيرة منها الحديث عن الرسالة-، لماذا يضع هنا كلامًا عن عظمته وعن فعله وعمَّا يُجريه من النِّعم، ثم يأتي كلام عن إلهيته؟ وأنت لا تدري، حتى إن بعض المفسرين يُخطئ كيف ينقلب هذا حديثا عن ألوهيته وهو لا يدري.

واحتجاجنا كثير بسورة النحل وهي بلا شك كما سماها ابن القيم (سورة تفصيل النِّعم)، فانظروا إلى عجب مزج قضية الإلهية مع قضية الربوبية، هذا يجب أن تنتبه له في بناء السورة القرآنية، في سورة النحل في أول صفحة -وهذا كثير وفي البقرة كذلك، ولكن أنا أتيت بملحظ مهم جدًا اخترت النحل لمقصد-، انظر إلى ذِكر النعم الإلهية: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ}، {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، {خَلَقَ الْإِنْسَانَ}، {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا}..

القرآن لا يذكر النِّعم إلا وفيها مقصد الجمال مع مقصد العدل؛ فالقرآن كتاب العدل والفضل، ليس فقط في الأحكام كقوله: {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ} هذا في الأفضلية في الأحكام، كذلك في الخلق والتقدير يكون ذكر العدل والتمام مع ذكر الجمال والمزيِّن، انظر ماذا قال عن الأنعام: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ}؛ هذا مقصد أوَّلي هو مقصد العدل، ويقول بعدها: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} هذا شيء آخر! ليس فقط تأكل وتشرب ولكن أيضًا فيها جمال وزينة إلى آخره، وهذا ليس مما يُعاب، **وإذا ذكر أمر في القرآن على جهة المِنَّة الإلهية دلَّ على جوازه**، وهذه قاعدة أصولية وليست قاعدة بلاغية، فما معنى المنة إذا لم يكن جائزاً؟! فحين يقول: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ} فهذا من باب المنة والعطاء، ويدل على الجواز، هذا باب أصولي يذكره الأصوليُّون في كتبهم.

نرجع إلى ما نحن فيه، الحديث عن الربوبية، عن الخلق الإلهي، فورًا وإذا القرآن خرج بشيء آخر، انظر إلى قوله: {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}، عن ماذا يتحدث هنا {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}؟ يتحدَث عن شرعه، هذا ليس حديثًا عن خلقه. ويظن البعض أنها حديث عن النعم، أنها وصف لما خَلَق {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}؛ يعني لو لم يقرأ المرء في كتب التفسير لظن أنها ضمن السياق وهو حديث عن النعم، وهذا ليس حديثًا عن النعم بل هو حديث عن الشرع، وحديث عن القرآن، وحديث عن قصد السبيل، أي السبيل الذي يوصلك إلى مقصدك وهو القرآن، وهو الشرع. {وَمِنْهَا جَائِرٌ} أي الذي يخالف قصد السبيل، هو حديث آخر، رأيتم كيف تُبنى السورة! فإذًا هذا هو تركيب السورة.

اذهبوا إلى سورة الروم مثلًا، وسورة الروم كذلك هي سورة النعم، اذهبوا إلى آخرها لتروا كيف يُوضع موضوع الرسالة والإلهية في خلال الحديث عن قدرة الله؛ لأن هذا هو الموجِب، بمَ استحق ربنا العبادة؟ لأنه هو الرب.

انظر هذه الآيات، انظر هذا الموضع، تأمله اسرح بذهنك مع هذا العطاء الإلهي!، الحديث عن الرسالة يتعلق بالشرع: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، ثم جاء: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا} انظر إلى هذا الموطن بين علمين من أعلام المِنَّة الإلهية في قوله بعدها :{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ}، عاد لذكر النعم.

حديث عن الخِلقة والعظمة وعن المنة الإلهية يتخلَّلها حديث عن الألوهية، السورة القرآنية بناؤها هكذا، ما من سورة من السور التي تُفصِّل، حتى السور القصيرة {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} لا بد يعقبها حديث عن الشرع، {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} ، {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}، فيها كلها بعد ذلك تجد حديثًا عن شرعه، هذا لا بد أن تفهمه، هذا يجب أن يفتح لديك علمًا عظيمًا في كيفية تناسق السور، وسورة الأنعام غنية بهذا، القرآن لا يقول سؤالًا وجوابًا، ولا يضع عناوين جانبية؛ لأن القرآن يمتحن قارئه، يريد منه أن يُعمل عقله، لا ينفع هذا القرآن أن تهذُره هَذْر الشِّعر.

قال -سبحانه وتعالى- بعد أن تحدّث في هذا المطلع الجليل، وقلنا أنَّ أجلَّ ما في السورة مَطلعُها، لأنها هي التي تريد أن تَجْبَهَك في عِظَم ما تقول وما تتكلم، مع ما في هذا المطلع من الجلال الذي يغشى القلب عظمة، والجمال الذي يغشى القلب متعة، الجمع بين العظمة والمتعة هذا هو شأن القرآن.

هناك كلام تتمتع به وهو كالعلكة، هناك بعض العلوم كالعلكة؛ بداية ما تأكلها تكون حلوة ثم تصير بلا طعم، بعض الكلام هكذا، وبعضه بلا طعم من بدايته.

قوله تعالى بعد أن ذكر ما ذكر، وهذه مقدمات للعبادة: {وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}، {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}، فألقوا بأسماعكم وانتبهوا مع من تتعاملون، وأنه -سبحانه وتعالى- لا يخفى عليه شيء، الآن جاء دوركم، جاء أمر العبادة وهي فِعل العبد تجاه ربه.

قال: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}.

قلنا أن هذه السورة سورة مكية فالحديث عن واقع موجود تتحدث عنه الآيات القرآنية بمن تتحدَّث معه وهم يسمعون.

قوله هنا: {آيَةٍ}؛ الآية أصلًا هي الدلالة، والشيء لا يكون دليلًا حتى يكون بيِّنًا؛ الشيء قد يكون خفيًا ولكن الآية يجب أن تكون بيِّنة واضحة، وكلما كانت الآية عظيمة كانت دامغة يراها الصغير والكبير، وكلما كانت آيات القرآن دامغة كانت عظيمة –وهنا المقصود الآية الشرعية–، ومن هنا قالوا أن (الآية) معناها الشيء العظيم، والأصل أن يُقال أن الآية هي الدلالة، ولما كانت آيات القرآن لها دلالات عظيمة دلَّت كلمة (الآية) على العظمة.

والآية إما أن تُقال عن الآية التشريعية؛ مثل آيات القرآن، هذه كلام الله. وإما الآية: الخلق، كما قال أبو العتاهية:

وفي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه الواحِدُ

فما خلق الله –عز وجل– من آيات هي دلالة عليه وهي عظيمة في بيانها تقطع حجة المخالف.

لسنا في بيان علوم القرآن، لكن الآية معروفة، هذه التي بيت أيدينا، وتقسيم القرآن بآيات هذا بحسب النزول. ويقال عن مجموع الآيات (سورة)، والسورة نفس الشيء. وقال بعض أهل العلم: "أُخذت سورة، يقال: له سَوَر أي له شدة"، نفس معنى آية، أي عظيمة.

وقالوا: سورة من السور والإحاطة، ذلك لأن سورة القرآن تكون محيطة لعلو وعظمة وجلال وعلم الشيء الكثير. وقيل: من سور الشيء أي من مرتبته؛ لأن السورة تترقَّى شيئًا فشيئًا. فهذه معاني السورة الثلاثة عند أهل العلم.

قال: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}، هذه حالة من حالات تلقي الكفار للقرآن وهي **الإعراض**. الصورة الثانية هي التي في مطلع سورة الأنبياء، قال ربنا –سبحانه وتعالى-: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} ذكر **الغفلة**، ولم يكررها، كما قلنا القرآن يؤسِّس ولا يُكرِّر، فقال بعدها: {يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} أخذوه على جهة اللعب والاستهزاء، كما قال في سورة الأنعام: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ}، لا يكفي أنهم ينأون عنه ويبتعدون كذلك ينهون عنه.

والقرآن نوَّع ذِكر الإعراض، **والإعراض يُطلق على معنيين**؛ إما الإعراض عن السماع ابتداءً، كما قال المنافق للنبي ﷺ في المدينة: "اجلس في مسجدك، فمن جاءك علَّمته ومن لم يأتِكَ لم تعلِّمه، ولا تغشانا في أسواقنا ولا في أماكننا ولا في بيوتنا"، هذا إعراض، لا يريدون السماع.

والإعراض يأتي كذلك بعد أن يعرف الحق فلا يقبله.

فالآية أولًا إما أن يأتيهم يقرأها فيضعون {أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}، ما قال: (رؤوس أصابعهم) وهذه من البلاغة القرآنية، هذا من إطلاق الكل على الجزء. فهؤلاء لا يريدون أن يسمعوا مخافة أن يتأثروا به أو أن يقع في قلوبهم وهم لا يريدون لقلوبهم أن تخرج عن إرادتهم، هو لا يريد لقلبه أن يحب من يبغضه، ولا يريد لقلبه أن يستمع لمن لا يحب الاستماع له، هذا منتهى الإعراض، قالوا: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}.

من أعظم ما في القرآن لأهل الدين هو كشفه لأعداء الدين، ما من أمة تعرف أعداءها كما يعرف أهل الإسلام أعداءهم إذا أخذوا بالقرآن، نحن دائمًا نحسن الظن بأعدائنا لأننا لا نرجع للقرآن! الناس كلهم يُعطون الأعذار والقرآن يقول: ليس هناك أعذار. نحن نقدم الأعذار دائمًا لأعدائنا؛ يقال لك: أنت لم تتعامل معه بحكمة، أنت كان دليلك ضعيفًا، أنت كذا، أنت دائمًا الملوم، وكان هذا الشعور يعتري سيد الخلق محمدًا ﷺ {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ}، فقال له: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} كما في الأنعام، فليست المشكلة منك، ليست المسألة أنهم لا يسمعون، وليست المسألة أنهم يجهلون الحق بل هم يعرفونه، فهو يكشف حقيقة

الأعداء كشفًا بيّنًا، ونحن أبعد الناس عن هذا في هذا الزمان، القرآن يقول: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}، ما قال: (مبصرين)، وأول ما يخطر على بال القارئ أنها زيادة معنى؛ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، زيادة حرف الصاد هذا المُسَهَّل فجاء دلالة علة أنهم تغلغلوا في الحق حتى أدركوه ربما أكثر من أهله، فقال: (مستبصرين). وما قال الله: (وهم يصرخون) قال: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ} فدل على غاية الصراخ والتعظيم، كلما عظمت الشيء زدت على مبنى الكلام حروفًا ليدل على العظمة المناسبة له.

وبهذا نتوقف، وبارك الله فيكم، والحمدلله رب العالمين.

الأسئلة:

١. [سؤال غير مسموع].

الجواب: انظر إلى آيتين من آيات القدر، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ} هذا عن ذكر الخلق، ثم يأتي بعدها ذكر: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}، هل عاد إلى السياق؟ نعم؛ فذكر موطن الرسالة –وهي من مواطن الألوهية– بين آيتين عظيمتين في ذكر القدر يدل على هذا، ليس فقط الالتفات في الخطاب ما بين الحضور والغياب، ولكنه التفات في ذكر قضايا القدر –والمقصود به الخلق، كما ذكرنا أن القدر أربع مراتب؛ العلم، الإرادة، الخلق–، فذكر آية من آيات التشريع التي تتعلق بالرسالة: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} بين آيتين هذا التفات من أجل أن يهتم القارئ لهذا ويلتفت إليها، وكما قلت لكم هذا بناء السورة القرآنية في ذكر الأمرين؛ أمر القدر أي الخلق الذي هو موجب للأمر الآخر وهو الإلهية.

والقرآن لا يَفْجَؤُك، لكن الناس يظنون أنهم يفاجأون، القرآن يُمهّد ولكن الناس ينسون، يعني عندما جاء قوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ}، هذا نسخ وتغيير للقِبلة، ولكن هل فاجأهم بها؟ من أي

آية بدأت قضية تغيير القبلة في سورة البقرة؟ من قوله: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، ومن قوله: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا}، وهكذ.

متى تأتي قصة مريم في القرآن ، في سورة مريم وسورة آل عمران؟ بعد ذِكر زكريا، بعد أن مهَّد لها. والشيء بالشيء يُذكر، لماذا قدَّم زكريا –عليه السلام– عجزه على عجز زوجته في سورة آل عمران، قال: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ}؟ وفي مريم قال: {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} لأنه قدَّم أنه عجوز في أولها، قال: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}، فهو أديب، وقلنا أن الكلام يدل على مستوى الإنسان، وأدبه أن يُقدِّم نفسه دائمًا على زوجته. فلأنه في مريم قدَّم ذِكر نفسه أنه عجوز ذكر زوجته أولًا، ثم ذكر نفسه مرة ثانية.

مثلًا لماذا قال في البقرة: {وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ}، وفي سورة الحج ذكر: {لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ}؟ لأنه ذكر العكوف قبلها: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}، فلا ضرورة لتكراره.

فقضية التمهيد في القرآن مهمة، أن يأتي رجل شيبة كبير لا يُماء –لا يستطيع أن ينشط للمرأة–، وزوجته عاجز، فأن تلد هذا لا يتهم به أحد، المرأة من يشتهيها وهي عجوز حتى يأتيها، فهذا قدَّمه القرآن حتى يقول: أنتم تصدقون هذا العجب، فالله يخلق لكم من غير زوج. فالقرآن يُمهِّد ولا يفاجئ، لأنه يريد الحجة البالغة على الخلق.

٢. [سؤال غير واضح]

الجواب: في الحقيقة أنا مع سيد –رحمه الله– لماذا يُذكر هذا، والربا جاء مفاجأة، سيد –رحمه الله– وقف عند هذه الآيات لماذا تُذكر آيات الربا في سياق خبر أحد، والسورة ترون فيها جزء كبير عن غزوة أحد، وأنا بفضل الله شرحت هذا في كتابي (صبغة الله الصمد) ولم أتطرق لهذا لأني آليتُ ألا أذكر في الكتاب شيئًا قد سُبقت إليه، لأن المقصود هو ذكر مغازي النبي ﷺ وسراياه في القرآن، وسورة آله عمران حديث عن غزوة أحد،

فأتيت إلى هذا الموطن ولم أتكلم عنه، ولكني أعتقد بكلام سيد وهو ذِكر أهمية بناء المسلم في طاعته في النصر والهزيمة.

فلماذا يُذكر الربا هنا؟ على قاعدة لا بد من الاهتمام بأن أمر الربا أمر عظيم فلا بد أن يُذكر في السياق العظيم، هذا واحد. والشيء الثاني –وهذه مني وليست من سيد-: لأن القرآن يريد أن يقول لكم: هذه المعاصي التي تُحقِّق الهزيمة، كما أن الهزيمة في المعركة تكون بسبب المعاصي التي تكون في المعركة، ماذا قال قبلها؟ {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا}، فيمكن للمرء أن يذهب ذهنه إلى أن الكسب هو ما حدث في وسط المعركة، وينسى أن المصيبة المخبأة منذ سنين وهم ماكثون عليها لم يحدث بها الهزيمة في هذا الوقت.

يعني لو واحد قال لكم: مبارك سقط بدعوة امرأة عجوز في غزة، لن تصدِّقوا، ولكني أصدِّق، وأرى أنه سقط بسبب دعوة امرأة عجوز، ولكن الناس لا يُدركون إلا ما كان مرتبطًا على طريقة مباشرة.

من أجل ذلك جعفر البرمكي الذي كان ذكيًا عظيمًا، وأخوه الفضل أعظم منه، قال: "يا أبي لماذا صرنا لهذا الحال؟ وقد كنا كل شيء في بغداد في دولة الإسلام، فكيف صرنا إلى السجن؟!". هؤلاء كانوا وزراء هارون الرشيد، وكانوا يعطون العطاء أكثر من هارون، ويتخفَّون بالقليل حتى لا يُغضبوه. فقال له: "يا بُني لعلها دعوة مظلوم، سُمعت في الليل وغفلنا عنها"!

فلما يقول القرآن: {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا}، في سياق غزوة أحد، فيذكر الربا ربما أنكم سقطتم بسبب أكلكم الربا.

٣. سؤال: ... قوله تعالى: {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}.

الجواب: أُعطيك فائدة أخرى غير التي ذُكرت، العرب إذا نوَّعت الخطاب فهو لمعنى زائد؛ فالعرب لا تُطلق (سنة) إلا على العام الشديد، ولذلك لا يُقال: "عام أجدب"، بل يُقال: "سنة جدباء"؛ لأن السنة لا تكون

إلا للعام الشديد، فقال: {أَلْفَ سَنَةٍ}، ولما ذكر ما فاته قال: {إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}، فهو عام فقط لإطلاق معنى الزمن، لكن لما كان الزمن حاوٍ للمشاكل والمصائب قال: (سنة).

أما هم يقولون، وقالها القدماء: ألف سنة بالسنة الميلادية، وخمسين عامًا بالسنوات الهجرية.

٤. مداخلة: ...عند أهل البلاغة في رأيهم أنها ألف وخمسون سنة؛ لأن السنة تدل على وقت من الزمان فيه صعوبة وبلاء، والعام فيه رخاء، فهي ألف سنة كاملة فيها الدعوة إلى الله، والخمسين هي زيادة، فلا تستطيع أن تقول: "أكلت أربعة برتقالات إلا تفاحتين"، لكن في الزيادة تقول: "أكلت أربعة برتقالات زائد تفاحتين"، ففي رأيه الألف سنة كاملة هي في الدعوة إلى الله، والخمسين هي في فترة عدم الدعوة، فهي ألف وخمسون سنة.

هو الاستثناء إما يكون كاملًا أو مفرَّغًا، طيب جزاه الله خيرًا.

الدرس التاسع

الحمد لله، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما أمر، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وخير البشر محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم آمين، آمين.

كنا مع قوله تعالى:{**وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**}.

ومن المهم أن نعلم كيف رُتِّبت القضايا باعتبار الأهم في هذه السورة، فبعد أن ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- ربوبيته، هو الذّي خلق، وهو الذي أجرى الأحوال المتقلِّبة في هذه الخِلقة من الظلمات والنور، وبعد أن بين حقه في العبادة ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، فبيَّن إلهيته وأن الواجب على العبد أن لا يَعدِل عن عبادة ربه إلى عبادة غيره، وأن لا يجعل مع الله -عز وجل- عِدلًا أي شريكًا، فبعد أن تكلم عن هذه القضية، وتكلم بعد ذلك -سبحانه جل في علاه- عن أمر الغيب والمحاسبة بقوله :{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} على ما قاله بعض أهل التفسير من مقصود أن الأجل الذي عنده هو بعد الموت، وهناك أقوال كثيرة في هذا. وبعد أن تكلم عن ما يمكن أن يكون في أمر الغيب من مراقبته -جل في علاه- وتحذيره في أنه يعلم السر ويعلم الجهر ويعلم العمل ويراه، فذكر أمر الآخرة وما فيها، ثم جاء إلى أمر الرسالة.

انظر في هذه الآيات اليسيرة القليلة العدد في حروفها، لكنها استوعبت أعظم القضايا وأجلَّ الأمور لمن استوعبها، ربما يمر عليها الإنسان العادي فلا يراها تتحدث إلا عن قضية، أو يرى أن القرآن مكرَّر ليس فيه تلك اللفتات التي تدل على تأسيس العلوم وعلى بيان القضايا الجليلة، لا بد أن ننتبه لها.

من أجل هذه مثلًا لما قلنا بأن (الحمد لله رب العالمين) هذه الكلمة تستوعب كل المحامد في الوجود فهذه تحتاج إلى تفكر، فمن غير التفكر والنَّبْط –أي استخراج ما في داخل هذ الكتاب– فلا يحصل لك التدبر، لا يحصل لك الارتقاء، (اقرأ وارتقِ) هذه منزلة تتعلق بالعلم.

فبعد أن فرغ –جل في علاه– من هذه القضايا على جهة الإجمال، كما رأيناها كأنها أمواج سريعة ملتصقة وراء بعضها البعض، وكل واحدة متعلقة بالأخرى، جاء قوله –سبحانه وتعالى–: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ} تأتي مرات في القرآن من (آية) ومرات من (آيات)؛ والفرق بينهما أنه إذا جاء قوله تعالى:{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ} فهذا دلالة الاستغراق، يعني جميع الآيات، وإذا جاءت (من آيات) فهي دالة على التبعيض؛ أي بعض الآيات.

وهنا يريد أن يبيّن ربنا –سبحانه وتعالى– مقدار عَنَت وتكبُّر ورفض الكافرين للحق، لأنهم لو أتتهم كل الآيات فإن حالهم هو الإعراض، وسنرى في هذه الآية والتي تليها مراتب الذين يتعاملون مع آيات الله بغير إيمان، سنرى ثلاث مراتب كل واحدة تلحق الأخرى بطريقة عجيبة تدل على أن واضع هذا القرآن وأن متكلِّمه هو الله –جل في علاه– لا غير، فقوله: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ} أي لو أتتهم كل الآيات. لأن (مِن) عند أهل حروف المعاني تأتي بمعنى البيان، وبعضهم أخذ قوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} بمعنى ولتكونوا أنتم أمة، وجعلوا (مِن) هنا بيانية تبين ما بعدها لاستغراق صفة التي تليها. وتأتي بمعنى التبعيض، مثل: أكلت من الطعام، فهذه بمعنى بعض. فأنت إذا جاءتك (من) وراءها كلمة (آية) فاعلم أنها بيانية، بمعنى الاستغراق؛ أي استوعبت جميع أفراد المذكور وهو هنا الآية.

{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} ونحن قلنا أن هناك مراتب للإعراض؛ هناك التعامل باللهو كما رأينا في سورة الأنبياء: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} هذه مرتبة، {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} هذه مرتبة أخرى، فالإعراض شيءٌ آخر يقابله وهو أعظم منه في الجرم وهو اللهو عند السماع. الإعراض؛ يدعوك لتسمع فتقول: لا أريد أن أسمع منك، هذا كفر الإعراض، والكفر أنواع كله يؤدي إلى عدم تصديق الرسل وعدم اتباع أوامرهم. والكفر كله إعراض ولكنه يتنوَّع، وكله يبدأ بالإعراض لكنه يرتقي، كما سنرى أنه قال: (أعرض، كذب، استهزأ)، كما سنرى في الآية التي

تليها. وكما قال الأعرابي للنبي ﷺ: "إن كنت نبيًا فأنت أجلُّ من أن أسمع لك، وإن كنت كاذبًا فأنا أجلُّ من أن أسمع منك" أغلقها، هذا لا يريد أن يسمع، هذا هو كفر الإعراض، لا يسمع منه، يدعوه فيُعرض عنه.

كما قال النبي ﷺ عن الثلاثة الذين دخلوا وهو جالس مع أصحابه، ولم تكن سنته مع أصحابه هذه الذي ترونه من التوزُّع -ولا بأس بهذا اليوم يكفي أن الناس يجلسون في المسجد-، فكان من سنته إذا جلس النبي ﷺ إلى أصحابه أن يجتمعوا، فدخل رجل فوجد فُرجة فجلس فيها، وجاء آخر فجلس خلف الصف بعيدًا، وجاء ثالث فلم يرَ فرجة ولم يرَ مكانًا فنظر إليه ثم خرج، فقال النبي ﷺ: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟) يريد أن يخبرهم مقامات هؤلاء، (أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)[٣٨]؛ وهنا الإعراض في هذا الحديث ليس إعراض الكفر؛ لأن الكلمة لها مراتب في المعاني، فالكافر أعرض إعراضًا كليًا، لكن هذا الرجل لم يعرض إعراضًا كليًا قد يكون مسلمًا ولكن أعرض عما حضر من الخير الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: (أعرض) فهذا هو الإعراض أن لا يريد أن يسمع، فهؤلاء مع هذه الآيات كانوا المعرضين.

ما المقصود بالآية؟ قلنا أن الآية الشيء العظيم؛ لأنها دليل، والآية كذلك تدل على الطريق، تدل على الشيء الذي تحتها، ولا يكون الدليل الذي يستغرق هذا الاسم إلا إذا كان بينًا، واضحًا جليًا، ومن هنا قالوا أن الآية هي الأمر العظيم، والذين يقتصرون على تسمية الشيء بأثره، وهذا من فنون العربية أنهم يسمون الأشياء بأسماء متعددة، مثلًا أنهم يسمون الشيء بما سيكون، كما قال رجل في رؤياه: {قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} هو يعصر عنبًا، ولكن لما كان مقصود هذا العصر إن يُحصِّل من هذا العنب خمرًا قال عن العنب بما سيُحصِّله وهكذا، أو تسمية الشيء ببعضه كما ضربنا المثال سابقًا {أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} هو لا يضع إصبعه كله وإنما يضع رأس إصبعه وهكذا. وهذا أسلوبٌ في العربية من بلاغتها، ولماذا يستخدمون هذا؟ هذا فنٌّ آخر، لماذا قال: (أصابعهم) ولم يقل: (بعض أصابعهم)؟ هذا مقصود، لما أراد التغليظ على مقدار ما يسمعون من إغلاق آذانهم من السماع قال: (أصابعهم)، من أجل أن يُدلِّل على الفعل، فأتى بالجزء الإنساني -وهو إصبعه- كاملًا

---

[٣٨] صحيح البخاري: (٦٦)، صحيح مسلم: (٢١٧٦).

من أجل أن يدل عليه. وهذا يستخدمه العربي ليس فقط للتفنُّن، ولكن هو في نفسه معانٍ، ولذلك قلنا أن العربية عظيمة لوجود هذه المواد التي استخدمها العربي، فجاء القرآن واستخدمها ليُدلِّل على إعجازه.

فقوله: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}؛ الآية دليل فإما أنها دالة على ما يريد الله من أحكامه وشرعه وأوامره، فهي آية قرآنية، دالة عمَّا يريد ربنا من عدله في الأحكام والشرائع والأوامر، فقد تكون **الآية تشريعية**. وقد تكون **الآية تكوينية**؛ الله –عز وجل- خلق السماوات هذه آية، خلق الأرض آية، خلق الرياح آية، خلق الظلمات آية، خلق النور آية، فكل ما في الوجود هو آية؛ لأنها دليل على خالقها، كما ذكرنا بيت الشعر المشهور:

وفي كـــلِّ شـــيءٍ لـــه آيـــة تـــدلُّ علـــى أنـــه الواحِـــدُ

والآية الكونية في هذا الباب هم يرونها، ولكن المقصود صدق النبي، إن لم يكن المقصود الآية التشريعية –وهذا الذي عليه أغلب المفسرين-، فيكون المقصود بقوله (آية) التكوينية؛ أي المعجزة التي تظهر على أيدي الأنبياء فيما هو خلاف السنة الجارية، مثل: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} فالقمر انشق، قالت العرب: نريد دليلًا على صدق نبوتك، فالله –عز وجل- أمر أن يضرب بيده على القمر فانشق إلى قسمين، صار كل قسم إلى الجبل المقابل له، هذه آية، مثل ما حدث مع موسى-عليه السلام – في عصاه، هذه آية. فالمقصود بالآية هنا التكوينية؛ الآية المعجزة.

وهنا لا بد أن نفرِّق لطلبة العلم بما هو خلاف موجود في أغلب كتب ما يسمى (كتب العقائد والكلام)، **ما الفرق بين المعجزة وبين الكرامة أو بين الإهانة؟**

الإهانة هي أن يقول مدَّعي الصدق أو مدعي النبوة أو مدعي الخبر بأنني أنا جئتكم بهذا الخبر من عند الله، ودليل ذلك أني أصنع لكم المعجزات، كما صنع مسيلمة، قيل كان يضع يده على رأس الطفل فبدل أن يُشفى يسقط شعره؛ يُهينه الله، فهذه تسمى إهانة وهي أن يأتي الأمر على ضد مطلوبه.

والمعجزة التي تقع على يد الأنبياء.

الفرق بين **الكرامة والنبوة** -وأمر الكرامة مشتق من المعجزة-، فالرجل الصالح تظهر على يديه الكرامة أنه مُتَّبع للنبي ﷺ، وبعض الناس يظن أن الكرامة دليل الصلاح الأعظم، يعني كلما ازددت صلاحًا وقربًا من الله فحينئذ تظهر لديك الكرامات، وهذا غير صحيح. الحقيقة أن الكرامة لا يحتاجها المؤمن، وسنرى عند ذكر الآيات التي طلبها الكفار من النبي، وسورة الأنعام مليئة في هذا الباب وهو الرد على كفار قريش في طلبهم من الآيات الكونية من النبي ﷺ، فقطعها كما قال في سرة الإسراء: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} فالله -عز وجل- أوقف آيات الإعجاز التي بها يتم اصطلام الأمم وتدمير الأمم؛ كانت الأمم السابقة تطلب المعجزة التي يتعلق بها إيمانهم أو كفرهم، فإن كفروا دمَّرهم، كما فعلوا مع الناقة، فهذا انتهى وقُضي أمره.

أخذنا هذا من قوله تعالى في سورة القصص: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ}، بعد موسى-عليه السلام- انتهت سنة الله في تدمير الأمم بسبب الآيات التي بها يتعلق الإيمان والكفر، وصار بدل تدمير الأمم بالآيات العظمى كالإغراق والصعق والحاصِبَة، الحاصبة بعض عذاب قوم لوط، يعني رُوموا بالحصى أي بالحجارة وكذلك جعل عاليها سافلها، فمرات يُعبِّر عن بعض الفعل كما في سورة القمر{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا} أي من الحصى وهو الرمل الشديد، لأن الله بعد أن قلب ديارهم وقراهم ألحقها بحجارة من سجيل أي من نار.

فهذا انتهى، وأبدله الله بالجهاد، ولذلك أول أمة فُرض عليها الجهاد في تاريخ النبوة والبشرية هي أمة موسى، لم يكن هناك جهاد قبل أمة موسى -عليه السلام- {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} نتكلم عن المؤمنين. وكذلك هذه الأمة ليس فيها آيات يتم بها تدمير هذه الأمة.

هذه الآيات الكونية المعجزة وقف بعض أهل العلم وقفة حائرة، بين ما يسمى الاستدراج وبين المعجزة وخلطوا وخبطوا فيها، نأتي على أهمها: قالوا أن الاستدراج هو أن يُظهر الله -عز وجل- على يدي مُدَّعي النبوة أو

الكاذب أو الفاسق أو الفاجر بعض خوارق العادات استدراجًا له، لما يرون من أن بعض الكذبة البوذيين عُبَّاد النار أنهم يفعلون بعض خوارق العادات -ولا يصح قول المعجزات-، يرونه يطير في الهواء، يمشي على الماء.. إلخ.

فقالوا كيف نوفِّق بين هذا وهذا؟ فقالوا هذا استدراج. وهذا غير صحيح؛ والصواب أن المعجزة والكرامة أمرُ خارق لأصل السُّنة ولا يمكن تفسيره على جهة السُّنة، كيف؟ هل يمكن في سنن البشر أن يأتي رجل فيضع يده في الماء فيخرج الماء من بين أصابعه حتى يرتوي منه الجمع الكثير السبعمائة والثمانمائة والألف؟! هل هذا يُعقل في سنن الوجود؟ لا.

الطائرات الهوائية هل تُعقل؟ يمكن أن يأتي أحد ويحملك في الهواء، واحد يمشي على الماء ممكن يضع تحته مادة ما كما يوضع السفينة أو الخشب فيمشي على الماء، فلذلك الاستدراج كله يخضع لمعونة ما لا نراه في عالم السُّنن المادية في ما نراه لكنه موجود في عالم الوجود وذلك لاستخدام الجن وما شابه ذلك من الشياطين، فهذا يمكن وقوعه، وتُفسَّر تفسيرًا سننيًّا ولكن ليس من خلال الورق والخشب والحديد والإنسان، ولكن من خلال خلق آخر وهو الجن والشياطين، يمكن أن يقع هذا. يعني عندما ترى رجلًا يأكل النار فهو يمكن أن يضع في فمه شيئًا ما يمنع من إحساسه بالنار، ويمكن أن يُعينه الجن، هذه أبواب نحن لا نعرفها أهلها يعرفونها، أهل الجن والشياطين يعرفونها.

ويمكن أن يتعاونوا معهم كما قال الله -عز وجل- في سورة الأنعام: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} قدَّم الإنس، ونحن قلنا أن العرب تُقدِّم في كلامها ما ينبغي الاعتناء به، فلما قدم الله -عز وجل- الإنس على الجن دلَّ على أن شياطين الإنس أقوى من شياطين الجن في الإيحاء والقوة العلمية، لكن في القوة البدنية الله -عز وجل- يُقدِّم الجن، قال: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}، {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ} القوة البدنية. بعض الناس يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وفي الحقيقة أعوذ بالله منك!، والدليل في رمضان، ها نحن في رمضان الشياطين مصفَّدة من أين يأتي كل هذا الشر؟ من الإنس، قال الله تعالى: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} فالإيحاء من الإنسي إلى الجني أكثر من إيحاء الجني للإنسي، هكذا تُقرِّر الآية.

والمقصود بأن هذا ليس استدراجًا وإنما هو استخدام لأساليب لا نعرفها، لما نقف نحن أمام ما يسمى الساحر الذي يلعب بيديه وبفنونه فنحن نرى، هو يستخدم السنن الكونيّة التي نعرفها من أجل خداع أبصارنا، وكذلك الجني له قوة ما. عمر –رضي الله عنه– كما روى ابن أبي شيبة في مصنّفه قال: "إذا تغوّلت الغيلان فكبّروا"، ما هي الغيلان؟ الغيلان هي سحرة الجن، الجن فيهم مؤمنون فيهم كفار، والكفرة فيهم سحرة، "إذا تغوّلت الغيلان"؛ إذا بدأت تلعب بكم، كيف تطردوها؟ فأذِّنوا يعني كبروا.

فالمقصود بهذا أن الاستدراج ليس خارقًا للعادة، هو فن لا تعرفه ولكنه ضمن السنة التي قدَّرها الله في الوجود، ولكن المعجزة والكرامة لا يُمكن تفسيرها بحسب سنن الوجود. رجل جالس فيأتيه مندوب الطاغية في اليمن ويقول له: "أنا أرسلني إليك سيدي لأجلبك"، يقول ذلك للنبي ﷺ، لما أرسل رسالة إلى كسرى يدعوه بها إلى الإسلام فمزّقها، فدعا عليهمْ رسولُ اللهِ ﷺ: (أن يُمزَّقوا كلَّ ممزَّقٍ)[٣٩]، فهذا الطاغية الفارسي أرسل لطاغية أصغر منه تابع في اليمن قال: "أرسل رجلين إلى هذا الرجل في جزيرة العرب الذي يدّعي أنه نبي وأحضره لي"، فجاء هذان الرجلان إلى النبي ﷺ معهما الرسالة، وكانا حليقين، فقال: (من أمركما بهذا؟) قالوا: "ربنا"، قال: (أما أنا فربي أمرني بهذا) أي اللحية، قال: (ماذا تريدون؟) قالوا: سيدنا أمرنا أن نحضرك، فقال: (إن ربي قتل ربكم)، يعني كسرى مات، من أخبره؟! وقال: (هلك كسرى)، وولّوا بعده امرأة فقال: (ما أفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة)[٤٠]، من الذي أخبره بهذا؟!

يمكن أن تقع هذه، ويمكن أن تقع على معنى الاستدراج، عندما واحد الجن ممن يسترقون السمع فيخبرونه، فهذه يمكن أن تقع في عالم السنن في تفسير ما، لكنها وقعت مع النبي ﷺ بدلالة أخرى أنه نبي بأمور لا يمكن أن تقع ضمن السنن. ويكفي هذا في التفريق.

---

[٣٩] صحيح البخاري: (٤٤٢٤).

[٤٠] صحيح البخاري: (٤٤٢٥).

فقوله -سبحانه وتعالى-: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} وهنا (إلا) هذا الاستثناء الذي يدل على الاستغراق فلا يكون حالهم إلا وهم معرضون. {إِلَّا كَانُوا عَنْهَا} عن هذه الآية الدالّة {مُعْرِضِينَ} لا يقبلونها.

ثم ذكر -سبحانه وتعالى- تدرُّج هذا الإعراض، قال: {فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ} أيهما أكبر من الآخر الإعراض أم التكذيب؟

في الإعراض قال له: إذا على الحق أنت نبي ما من ضرورة لأجلس معك لأني أنا أتفه من أن أجلس مع نبي، وإذا لم تكن نبيًا فأنا أعظم من أن أجلس معك. فيه ما فيه مع أنه إعراض غبيّ، وهو كفرٌ بالله -عز وجل-. ولكن الكفر يكون مرتبة فوق الإعراض، الأول أوقف المسألة هل هذا حق أو باطل لا أريد أن أسمعه. ولذلك من الأمور التي يغفل عنها الناس ويقولونها وذكرها العلماء في المكفّرات، لو أن رجلًا قال لآخر: "لو كنت نبيًا ما استمعت إليك"، "لو كنت نبي ما رديت عليك"، هذه كلمة تُخرجه من الملّة، عليه أن يُسلم من جديد، ويغتسل عند بعض أهل العلم، لأن هذه الكلمة تُخرجه من الملة هكذا ذكر ابن حجر الهيتمي الشافعي في كتابه عن المكفرات، وذكر فيها أقوال أهل العلم.

وهذه للأسف يقولها الناس: "لو كنت نبيًا ما صدّقتك، لو كنت نبيًا ما اتبعتك" وهكذا، هذه كلمات كفرية تُخرج المرء من الملّة؛ لأنه لو كان نبيًا لوجب عليك اتباعه، فتقديرك بأنه لو كان نبيًا ما اتبعته تقدير بأنك ستفعل الكفر، **وإذا أراد المرء بقلبه أن يفعل الكفر فقد كفر بسبب إرادته.**

فإذًا أولًا الإعراض، رأينا حاله، ثم ثنَّى -سبحانه وتعالى- {فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ} جاء التكذيب، وهناك شيء عند أهل العلم يسمى بـ**كُفر المآل**، قلنا سابقًا عن المعاصي أنها بريد الكفر؛ بمعنى أنها طريق توصل لها، قال تعالى في سورة الروم: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ}؛ كان عاقبة الذي تلبَّس بالمعاصي فأكثر منها ويعيش معها ليل نهار، النتيجة أنهم {كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ}، ثم نتيجة أعظم {وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} النتيجة هي الاستهزاء. وهذه الآية كذلك فيها الاستهزاء.

وهذا نراه؛ رجل يأكل الربا في الأول يقول: "والله يا شيخ حرام شو بدنا نسوي"، هذا يُرجى له النجاة، يفعل المعصية، مسلم يصلي لكنه عاصٍ يُرجى له المغفرة والنجاة بالتوبة، لكن بعد أن يأكله ويَسْتمرِئَه يقول: "إي والله حياة بدون ربا ما بتصير، أصلًا الربا هو عماد الاقتصاد يا جماعة، تصور الحياة من غير هذا الربا والبنوك"؛ هذا كفر وخرج من الملة لأنه استحلّ الربا، فالمرتبة الثانية بعد أن عاشها واستمرأها وصار يتعامل معها، فالنتيجة أنه صار يدافع عنها، فهذا بإجماع الملة كفر.

بعد ذلك المرتبة الثالثة يقع في الاستهزاء، يصير يستهزئ، ويقول: "مجانين شوف شو بدهم، قال بدهم يصلحوا العالم بالنظام الإسلامي، هو أصلًا في الإسلام في نظام تجاري؟ شوف العالم كيف صار بالربا"، فيستهزئ، فهذا خرج وابتعد.

فانظر هذه الآيات كيف ترتب واقع الناس، ودائمًا انتبه لترتيب الكلمات ترتيبًا واقعيًا تلائم حال الناس، القرآن يبيّن المراتب التي يفعلها الناس مع الإيمان ومع الكفر، فقال سبحانه: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى}؟ فالنتيجة: {أَنْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}؛ فأولها **الإعراض**، والإعراض لا يدوم، لا بد أن تتخذ موقفًا، أولها يقول: لا أريد أن أسمع لهذا النبي، وهذا لا يدوم لا بد بعد ذلك يصل إلى باب بيته، الناس منقسمون.

وأنا أريد منكم أن تفتحوا سورة الشعراء لتروا كيف يتطور الخطاب، حتى نفهم مفاتيح القرآن في هذا الباب. صفحة (٣٦٨) –وكما قلنا نضطر لذكر الصفحة للسرعة، وإلا فليس من العلم أن ننسب الآية لرقم الصفحة، بل لرقمها وللسورة– لكن انظر كيف تطور خطاب المُعرِض، وكيف يتطور خطاب الحديث بين الأنبياء وبين خصومهم؛ فرعون سأل، –وهذا الخطاب (من ربك؟) كذلك ورد في سورة طه ارجع إليه إذا أرد، وفيه معانٍ غير التي هنا، لكن هذا نحتجّ به هنا–.

{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} ماذا رد عليه موسى –عليه السلام–؟ {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} ما هي ألفاظ فرعون؟ ما هي مرتبة الصراع بين فرعون وموسى؟ هذا الاستهزاء ومحاولة

إماتة قيمة ما يقول، والتشويش عليه {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ} يبدأ بالاستهزاء من أجل صرف الناس عنه، تحقير له كما قال: {هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}. وانظر لقوله: {لِمَنْ حَوْلَهُ}، الخطاب أصلًا بينه وبين موسى ولكن هو عينه على من حوله، {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} الذين حوله هم الذين يصنعون منه فرعون. فرعون ما الذي يجعله فرعون؟ الذين حوليه، فرعون شخص عادي، ليس الإجرام في فرعون وإنما الإجرام في من حواليه، قديمًا قالوا: "الشيخ ما بطير، لكن تلاميذه بطيروه". فالشيطان يبدأ بمن حوله، يصنعون منه وينفخون حوله، فقال: {لِمَنْ حَوْلَهُ} حتى لم يوجّه خطابه كأنه غير موجود استهزاءً.

{قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ} هذا سؤال استهزائي، هل وقف موسى؟ هل اهتزّ؟ هل تراجع؟ بقي في هجومه، {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} بدأت الدِّعاية، أولًا مجرد استهزاء وإعراض {أَلَا تَسْتَمِعُونَ}، الآن يبدأ بإثارة الأكاذيب حوله، ومحاولة إسقاط ذاتيَّة المرسَل، وقضية ذاتية المرسَل قضية مهمة في القرآن، يكفي أن أقول لكم انظر إلى سليمان ماذا قال: {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ} ممكن يقول قائل: هذا سليمان ملك. طيب ماذا نصنع برجل فقير ويكتم إيمانه وضعيف، مؤمن آل فرعون، في سورة غافر، انظر ماذا قال لقومه: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} يعني مع ضعفه قال: اتبعونِ، ردًا على فرعون عندما قال: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}. فالمرسَل ليست قضية بلا قيمة، واحد يأتي ويقول أنا أعرف هذا، يا أخي المهم الحق، ومن أتباعه لا يهم، نقول له: هذا باطل، يجب عليك أن توالي أتباع الحق، ويجب عليك أن تكون في جماعة أتباع الحق، أما أن تكون لوحدك تعرف الحق فهذه ليست فاعلية الإسلام، نحن نقول في الآية: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، لا نقول: (إياك أعبد).

فقال: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ} الرجل وضع رأسه في رأس فرعون، فرعون يقول: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} وهو يقول: اتبعوني أنا مع ضعفه. سليمان قال: {أَلَّا تَعْلُوا} فطائفة الحق يجب أن يُنظر إليها ملتزمة مع الحق نفسه، أن تكونوا مثلنا، أن تتبعونا نحن، يجب على الحق أن يُظهر نفسه كطائفة يُؤوى إليها.

نرجع، ففرعون بعد أن واصل موسى هجومه عليه في بيان الحق ماذا قال؟ {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي..} بالرغم من أن الخطاب ابتداءً قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}، الأصل الحديث معه، ولكن ما زال الخطاب كأن فرعون يسمع ويخاطب ملأه، قال: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} انظر التحقير!

واصل موسى —عليه السلام– لم يهتز، لم يتغير، لم يتبدّل خطابه، تقدّم موقعًا جديدًا من أجل الهجوم على ألوهية ودعوى ربوبية فرعون فقال له: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}. قال في الأولى: {إِنْ كُنْتُمْ **مُوقِنِينَ**}، والثانية سكت فيها، والثالثة قال: {إِنْ كُنْتُمْ **تَعْقِلُونَ**} العقل بعد العلم، أو بعد الشعور في الحقيقة، ودليل هذا في سورة البقرة، لا يمكن أن ينشأ العلم والعقل من غير شعور، ولذلك في سورة البقرة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} الفساد والصلاح يُدركه عامة الناس في أدنى مراتبهم، الآن واحد رمى قاذورات في الطريق هذا أفسد، الناس كلهم يعرفون الخطأ من الصواب، واحد جاء قتل رجل ظلمًا هذا شعور، فهذا لا يحتاج إلى شيء عظيم إلا الإحساس بأنك إنسان، ولذلك قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ **لَا يَشْعُرُونَ**}، ولكن لما جاء للإيمان باعتبار الإيمان قيمة علمية معرفية قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ **وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**} أي أنتم لا عقول لكم.

فموسى أولًا خاطب الإيمان {إِنْ كُنْتُمْ **مُوقِنِينَ**}، ثم خاطب العقل {إِنْ كُنْتُمْ **تَعْقِلُونَ**} فإن لم تكونوا كذلك فأنتم لستم عقلاء. فماذا رد عليه فرعون؟ لم ينفع الإعراض ولا الاستهزاء، فحينئذ لا بد من استخدام السوط والعصا والقتل والتشريد، قال فرعون: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}. هذا تطور عليك أن تنتبه له في القرآن.

{يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ} هذا تطور؛ أول اشي يتمعّر وجهه، ثم يُدير له جنبه، ثم يُدير له ظهره؛ لأنه تعامل بهذه الأدوات مع الفقير في واجب الزكاة فالنتيجة تُعامَل في الشرع حتى في الصورة، وهذا بيانه في القرآن كثير.

نرجع إلى السورة، قال -سبحانه وتعالى-: {فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ}، وقوله -سبحانه وتعالى-: {لَمَّا جَاءَهُمْ} دليل عند أهل السنة والجماعة على أن الله -عز وجل- لا يُعذِّب إلا بعد الرسالة، كما يُثبت القرآن، فقال: {لَمَّا جَاءَهُمْ}، فإن الرجل قد لا يعرف الحق بسبب عدم حضوره، فهذا معفوٌّ عنه، ولذلك ثلاثة يوم القيامة يُعذَرون، يسميهم العلماء (أهل الفترة) أي الذين لم يصلهم نبي، ما سمعوا الحق ولا الدين ولا الرسول. والثاني وهو المجنون، هذا لا يعرف فهو معذور، والثالث الذي مات وهو صغير، فهؤلاء على الصحيح عند أهل العلم أنهم يُمتحنون، وورد حديث في أولاد المشركين، قال في الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه: (سألتُ ربي أن لَّا يعذِّبَ اللاهينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ البشرِ، فأعطانِيهِمْ)[41]؛ اللاهين يعني أطفال المشركين، أما أولاد المسلمين ففي الجنة.

فقوله: {فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} هذا دليل أنه جاءهم، فإذا كذبوا بالحق دون أن يأتيهم فهؤلاء ليسوا مُعَذَّبين {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}.

قال -سبحانه وتعالى-: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}.

هل الله يُفاجئنا بأحكامه وأقداره أم أنه **يُقدِّم لنا المقدمات حتى تنقطع الحجة**؟ فلذلك انظر إلى قوله تعالى في سورة الأعراف عند ذكر أصحاب السبت {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}، وانظر إلى مطلعها قال: {وَاسْأَلْهُمْ}، ما قال: (واتلُ عليهم)؛ لأن الحديث عن أجدادهم، فكأنه يريد أن يُبكِّتَهم ويُذكِّرهم بمهانة أجدادهم وأنهم فعلوا فِعلهم، فقال: {وَاسْأَلْهُمْ}، كأنك تقول لرجل: "ذكِّره"، يريد أن يُحقِّرهم، {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ}.

فانظر إلى مراتب الفعل، قال -سبحانه وتعالى-: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} والنسيان هنا على معنى **الإعراض**، -ولا أريد أن أقف عند كل معلم من معالم العظمة والبلاغة في هذا الكتاب فهذا يطول، ولكن يكفي أن نشرح ما نحن فيه-. فقال: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، ما هي المرتبة الثانية؟ {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ}، ومعنى (عَتَوا)

---

[41] حسنهُ الألباني في صحيح الجامع: (٣٥٩٢).

أي **ازدادت صلابتهم في فِعل المعصية**، فلما ازدادت صلابتهم في فعل المعصية قال: {فَلَمَّا عَتَوْا} رأيتم؟ في الأول عذاب ونذارة، إلخ، مراتب إقامة الحجة، ولكن لما عتوا أي ازدادت صلابتهم في الباطل وفي المعصية التي يقترفوها قال: {لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.

فالعذاب لا يأتي مرة واحدة، هكذا يُخرج لهم من أجل أن يُقيم الحجة عليهم، والله -عز وجل- يُحب الإعذار، انظروا في آخر سورة الأنعام: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} ، بمعنى لا تأتي يوم القيامة تقول: هذا الكتاب ما أُنزل علي، أنا لا أعرفه، الكتاب أُنزل على اليهود والنصارى. {وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}، قال: (حُجَّة) مُنكَّرة هنا علامة أنها مُستغرِقة ومُطلقة تستوعب أي كلمة يصلح عليها إطلاق كلمة الحجة أمام الله. لا أحد يأتي يوم القيامة يقول: "أنا يا رب ما بعرف، أنا ما سمعت"، المسجد بجانبك، والناس أعطوك مطويّات في رمضان، والرِّبا تكلم عنه الخطباء، وتكلموا عن سفور النساء، وهكذا. ما في واحد ما يدري، هذه لا يُريدها الله.

فالله يحب الإعذار، ومن أجل هذا أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام الشرائع والبينات، حتى يأتي يوم القيامة كل الناس على صفاء فيما فعلوا في أنفسهم من معصية أو طاعة. هذه طريقة الرب -سبحانه وتعالى-؛ لأنه الرحيم -جل في علاه-.

فقوله: {فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، انظر إلى : {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ} متى يأتيهم هل بمجرد أن أعرضوا؟ خلال الإعراض ممكن للرجل بعد ذلك أن يُسلم، فبمجرد الإعراض لا يُعذِّب الله تعالى بالرغم من أنه كفر، ولكن الحال لا يمكن أن يمتدّ على معنى الإعراض، لا بد أن تتخذ موقفًا بعد أن ينفصل الناس إلى مؤمن أو كافر، وتحدث الخصومة بين الإيمان والكفر النظَّارة لا وجود لهم – النَّظَّارة يعني الجمهور المشاهدين-، والقرآن يقرر أن النَّظَّارة هم المنافقون، بعد أن ينفصل الحق في صورته البيّنة الواضحة وجماعته بيّنة وواضحة، حينئذ وقوف الناس ليتفرَّوجوا هذا نِفاق، هذه الآية نُسميها آية الجماهير: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ}؛ يتربَّصون أي جالسون عالمدرَّجات ينتظرون النتيجة، {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ

نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}؛ هذه هي صورة النَّظّارة، وهؤلاء لهم أحكام، واحد يقول لك: "أنا ما الي دخل"، لكن الله لا يقبل منك لأنه سيُجري من الأوضاع والأحوال بين الحق والباطل ما يجب عليك أن تتخذ الموقف.

فانظر إلى قوله: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ}، الله قادر أن يقول: (فيأتيهم)، أو (ليأتينهم) الآن، ولكنه يُطلق هذا النَّفَس في التسويف حتى يحصل منهم الفعل الذي يستحق بعد **الإعراض** وبعد **التكذيب** وبعد **الاستهزاء**، لأنه إذا استهزأ انتهى، هذه قمة الكفر.

الاستهزاء قمة الكفر، –انتبهوا لأن هذه مهمة جدًا– اليوم الاستهزاء والنكت على القرآن، والنكت على السنة، والنكت على النبي ﷺ وعلى الصحابة!، الشيطان يؤزُّهم أزًّا. **لأن الاستهزاء أعظم أنواع الكفر فلا يجوز عنه الاعتذار بحال**، حتى لو كان الرجل عالـمًا أنه يجب عليه أن يحترم وأن لا يستهزئ، حتى لو كان غافلًا عن مُعتَقده، من أين هذا جئنا به؟ من قوله تعالى: {إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} هؤلاء ماذا قالوا حتى كفروا؟ استهزأوا بأصحاب النبي فقط لأنهم قُرّاء، كأن القرآن يصنع شيئًا من الخمول فقالوا: "هؤلاء ما رأينا مثلهم أوسع الناس بطونًا، وأجبن الناس عند اللقاء" قالوها استهزاءً ولعبًا ليُضيّعوا الطريق، القرآن قال حتى وأنتم مستهزئون كفار، فلم يقبل أعذارهم، ممكن للرجل أن يقول كلمة من الكفر، فيعتذر ويقول: ما كنت أظن معناها هكذا، تُقبل منه ويُغفر له. كما قال الرجل الذي أخطأ (اللهم أنت عبدي)، لكن واحد يستهزئ لا يمكن تصوُّر الخطأ، ولذلك قال عنهم: {إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ} نخوض يعني كنا نتكلم ونحكي سواليف، {كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}؛ أثبت لهم الإيمان قبل الخوض والاستهزاء.

بل جعل الاستهزاء أعظم جُرمًا حتى عند الجالس معهم، يعني واحد قال: أنا ما تكلمت، نقول: أنت معهم، {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}، ماذا قال؟ {إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} أنت تشاهد مسرحية تستهزئ بالدين فأنت كافر. أنت جالس مع ناس يستهزئون بالدين حتى لو كنت تقول هذا استهزاء، هذا كفر لا يجوز؛ لأن الاستهزاء مرتبة من أعلى

مراتب التحقير لدين الله -عز وجل-، لا يوجد فوقها مرتبة، والشيطان يؤزّهم لهذه المرتبة، الشيطان لا يقبل الكفر العادي الذي يمكن أن يرجع، بعد الاستهزاء خلاص انقطع، والناس مراتب في هذا.

فقوله تعالى: {فَسَوْفَ} أي حتى يقع منهم هذا حينئذٍ {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، قوله: (أنباء) دلالة على الحديث عن الآخرة والعذاب، ودلالة الآية أنها آيات العذاب والتّخويف، الله يخوِّفهم، فهذه آيات يستهزئون بها. كما قال عن التسعة عشر، قال: "أنا أكفيكم عددًا وأنتم تكفون عددًا.." هذا استهزاء، كما إذا قال واحد لآخر: تدخل النار، قال: "احنا عنا النار أصلًا جمرة مشان نشرب دخان، أهل الجنة ما عندهم نار فما بشربوا دخان"!! وهكذا، {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، يقول: سيقع عليكم العذاب، يستهزؤون، تخوّفنا بالله؟ أنت نبي؟

وهذه ليست فقط للأنبياء، سعد بن أبي وقّاص -رضي الله عنه- خال النبي ﷺ كان مُجابة الدعوة، فمر يومًا على الجسر فوجد رجلًا يسبّ عليًّا وعثمان، فأسكتهم، قال: اسكت، فواصل الرجل، فقال: "إن لم تسكت دعوتُ عليك"، هذه الكلمة من يتعظ بها؟ المؤمن، الذي لا يخاف الدعاء لا يهتم بها، تقول له: آخذ منك مائة دينار، يرتجف، لكن تقول له: أدعو عليك، لا يهتم!

فقال له: أوتهدّدُني كأنك نبي؟ فدعا عليه سعد قال: "اللهم أَطِل عمره وأسئ عمله وعرِّضه للفتن"، فكبر الرجل حتى هرم، وحتى سقط حاجباه على وجنتيه من الهرم، وعُرِّض للفتن فكان إذا مرّ فأُخبر بجارية مارّة جعل يلاحقها على شيبته وكبره، وكان يقول: "أصابتني دعوة سعد". فلذلك إذا خُوِّفت بالله عليك أن تخاف؛ لأن الله -عز وجل- حين يُمهل لا يهمل، وإنما يتركك لتتوب.

قال: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ} والنبأ هو الأمر العظيم، ومنه أُخذت النبوّة، وهو الخبر، ولكن الخبر قد يكون قليلًا وقد يكون عظيمًا، ولكن النبأ لا يكون إلا عظيمًا، ولذلك قال: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} فالنبأ هو الأمر العظيم، لذلك قال الله -عز وجل-: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، طيب لماذا

قال (أنباء)؟ ذكرنا أن الجمع يأتي للتعظيم، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} من أنزله؟ الله، لكن جاء بصيغة تعظيم لتدلّ على تعدّد الفعل وعلى كبره.

قال -سبحانه وتعالى-: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ}.

القرن مأخوذ من القرين، ولذلك يسمى القرن على رأس الدابة لأنه ليس واحدًا بل لا بد له من قرين. والقرن هنا إما يُطلق على الزمن، لماذا سُمي الزمن قرنًا؟ للعلماء مذهبان في هذا؛ المذهب الأول المشهور للزّجاج: المقصود بالقرن الزمني ذلك لأنه لا يُمكن أن يقع معه أكثر من جيل، لا بد أن يَقرِنه بجيل آخر، كقوله ﷺ: (أعْمارُ أُمَّتِي ما بين السِّتِّينَ إلى السَّبعينَ)[٤٢] عادةً، ولذلك القرن مائة عام، قالوا: ستين وقالوا: سبعين، فلأنه يقترن بجيلين، فلما كان الزمن يقترن مع زمن آخر سُمّي قرنًا، هذا قول.

وقال آخرون: المقصود بالقرن لأن الإنسان يقترن به، فهذا معنى آخر.

فالقصد أن المجموعة من الناس قرن، والمقصود قرن من الزمان، وقلنا مأخوذ من القرين، فقال سبحانه: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا} قال أهل العلم: هذا خطاب موعظة وتذكير، الله -عز وجل- يذكرهم بما يرون من هلاك الأمم السابقة، كما قال -سبحانه وتعالى- عن قوم لوط: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ} فهم رأوا أممًا سابقة، ورأوا قوم تُبَّع وهم أقرب الناس إليهم.

طبعًا اليوم إحدى قضايا الصراع والجهاد بيننا وبين خصومنا قضية النظر إلى عِلَّة حركة التاريخ؛ لما في بلد من البلاد يأتي فيضان، تنزل المياه فتغرق البلاد وتُهلك الحرث والنسل، إلخ. المؤمن ينظر إلى فعلَّة حركة هذا الفعل أنه مُتعلِّق بالغيب، متعلّق بالطاعة والمعصية، وعلى المؤمن أن يربط هذه الحركة بالطاعة والمعصية. وغيره لا يريد

---

[٤٢] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (١٠٧٣).

هذا ولا يحبه، هو يراها ولا يستطيع أن ينكرها، يرى المياه تنزل وتُدمّر الأراضي وتُهلك الحرث والنسل، لكنه يكره أن ينسبها إلى سبب هو يمارسه وهو المعصية، فالناس يُقرِّون بهذا، ولذلك قال: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} ماذا يقولون؟ {سَحَابٌ مَرْكُومٌ}، هذا فقط سحاب تجمَّع ونزل. والناس يفسّرون الشيء بالشيء؛ لماذا نزل المطر؟ قال: بسبب تجمّع الغيوم، طيب لماذا تجمعت؟ يقول: تبخرت، طيب ليش تبخرت؟ ارجع إلى أساسها.

ولذلك هذا الحديث هو علة كل علة، وإن لم تفهم الحديث لم تفهم حركة الوجود، قال ﷺ: (فَمَن أَعْدَى الأوَّل؟)[43].

هل الخلق يتجدَّد؟ نعم، والدليل أنت، أين كنت قبل أن توجد؟ {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}، أنت كنت ميتًا قبل أن توجد حسب لغة القرآن، قال -سبحانه وتعالى-: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} أماتنا مرتين وأحيانا مرة وستكون الثانية، هذه يقولونها يوم القيامة. أين تفسر هذه الآية؟ ارجعوا إلى سورة البقرة حتى نعرف أننا كنا أمواتًا، صفحة (٥) قال: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ}، فهذا تفسير الآية {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} وهذا تفسير القرآن بالقرآن، وأفضل أنواع التفسير أن القرآن يُفسِّر بعضه البعض.

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}، فإذًا من الذي أوجدك من الموت من العدم؟ الله، فمن أوجد الأول؟ فالناس فقط يُفسِّرون نزول المطر ويجعلون التفسير علّة، واحد يقول لك: فلان مات، ليش مات؟ قال: معه سكتة قلبية، ما معنى سكتة قلبية؟ يعني مات، لماذا مات؟ قال: توقَّف قلبه. ففي الحقيقة هم يجعلون التفسير علة، وهذا ليس صحيحًا، وإنما العلة أمر الله، في الغيب أمر به فمات ووقف قلبه فمات، لكن لم يجدوا سببًا لموته إلا أنه توقف قلبه، توقفت أعضاؤه.

---

[43] صحيح البخاري: (٥٧١٧)، صحيح مسلم: (٢٢٢٠).

فهؤلاء اليوم لا يريدون أن يعترفوا أن هذه الهزّات المالية التي تحدث في العالم سببها الربا، يقولون: "هناك أخطاء في البرنامج"، وهذا فن يُتقنه الغرب، دائمًا لا يأتي إلى أساس المشكلة، بل يقول هناك أخطاء في التطبيق والمبدأ صحيح. حتى الآن بعض بقايا البقر من البشر الذين ما زالوا يؤمنون بالشيوعية، ماذا يقولون؟ الخطأ في التطبيق. والرأس مالية كل يوم هزّات وتدمّر الناس وتسرق أموالهم، ومع ذلك يقول خطأ في التطبيق، هم لا يريدون الاعتراف. كما لو قلت: يا جماعة الله هذا العذاب الذي أصابكم بسبب اللواط، هذا العذاب الذي أصابكم بسبب النساء الكاسيات والزنا، هذا العذاب الذي يصيبكم من الفقر والجوع بسبب الربا ومنع الزكاة. العلمانيّون أصحاب المداخل الدّجالة والكاذبون من الزنادقة يغضبون من هذا الخطاب الإلهي، لا يحبون أن يفسروا التاريخ ولا حركة التاريخ بارتباطه مع الإيمان.

ولكن المؤمن يعلم أن الإيمان هو الفاعل الحقيقي لحركة الوجود، فإذا آمنوا بدأت هناك سنن إلهية متعلقة وملاصقة وقرينة مع هذا الإيمان، وإذا كفروا هناك سنن، انظر في سورة الأعراف {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} فالبداية يمتحنهم بالبأساء والضراء مرة مرة، {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ}، {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا}؛ معنى (عفوا) أي حتى انطلق ثراؤهم وأموالهم ومتعهم وكروشهم، حتى انطلقت فلا مُقيّد لها، العفو معناه الإطلاق، عفوت عنه أطلقته، فقال: (حتى عفوا) فأعطاهم وأعطاهم حتى عفوا، وهذه المشكلة، للأسف النعيم مُفسد، والثراء مُفسد، {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} الناشئ في الحلية وفي الترف ضعه في معركة، في الصحراء، هذا لا ينفع {وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} لا ينفع في أي خصومة، خصومة في الحرب، خصومة مع العدو.

فقال: {وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ} هنا يأتي الفجأة، الفجأة بالنسبة إليك، ونظام الفجأة في هلاك الأعداء سنة جارية في القرآن، لكن هذه الفجأة لا تنشأ من فراغ، كما رأينا أن هناك مُقدِّمات لا بد أن ننتبه لها.

والقصد أنه من صراعنا المعاصر مع العلمانيين والزنادقة والكفرة بأن نصارع على إثبات أن الإيمان هو الذي يُحرِّك التاريخ ويُضادُّه -الإيمان وجودًا وعدمًا-، لا أنها هكذا كما قالوا: {نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ}، هذه من القضايا المهمة، وأرجو أن أكون قد بيَّنتُها على الوجه الصحيح.

جزاكم الله خيرًا، وبارك فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الدرس العاشر

إن الحمد لله نحمده سبحانه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين.

كنا مع قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ}.

سنة الإهلاك يجب أن تُقرأ -كما قلنا- أولًا **من خلال منظور علاقة الوجود وفنائه بالإيمان**، حتى إن الوجود كله مربوط بهذه القضية، ففي الحديث يقول ﷺ: (لا تقومُ السَّاعةُ على أحدٍ يقول: اللَّهُ، اللَّهُ)[٤٤] فإذًا الوجود بأكمله مربوط بهذه القضية، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، وهذه اربطوها مع ما تكلمنا عنه حول مقصد خلق الإنسان في إظهار تجلّيات أسماء لله لم تكن الملائكة تتعبَّد بها ولا تعرفها. {يَسْتَغْفِرُونَ}؛ الاستغفار هو أهم عُمُد هذا الوجود وبقائه، فالقرآن يتحدث عن هذه كثيرًا ويربطها بالإيمان.

وقلنا أن الزنادقة يرفضون هذا، يقولون: {سَحَابٌ مَرْكُومٌ}، هذه قضايا تتعلق فقط بظواهر تحدث وتذهب وتأتي وهكذا، بما جرى عليه أمر السابقين {قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ} هذه أمور جرت فلا ضرورة لأن نربطها بالإيمان، المؤمن يراقب حركة الوجود عطاءً ومنعًا، هلاكًا و بقاءً بقضية الإيمان وما يتعلَّق بالإيمان من

---

[٤٤] صحيح مسلم: (١٤٨).

أعمال، كالصلاة، كالذكر، كالاستغفار. كالزكاة، وما يضادُّها من منع الزكاة من الفساد، الزنا وغيره، من تحكيم شرع الله أو تحكيم غير شرع الله وهكذا. فهذه يجب على المؤمن أن يؤمن بها، لأنها من قضايا القرآن المهمة.

والله -عز وجل- كما يُعذِّب في الآخرة بسبب الإيمان كذلك يُعطي ويمنع، ويصل ويقطع بسبب الإيمان في الدنيا، يجب عليك أن تنتبه، **وكلما لاحظت حركة الوجود مربوطة بالإيمان كلما ازددت قربًا من فعل النبي** ﷺ، ولذلك كان النبي ﷺ إذا جاء الكسوف ماذا يصنع؟ يصلي، ولا تنقطع صلاته حتى تزول الآية، آية من آيات الله، فهو يخاف، وإذا جاءت الرياح استغفر، وهكذا.

فكان النبي ﷺ يراقب حركة الوجود ويربطها بالاستغفار والتوبة، ومما يفعله المؤمن من الصلاة والصدقة والزكاة ليدفع البلاء، والناس في غفلة من هذا، ولذلك كل يوم جمعة جميع الخلائق تُصغي إلى القيامة، إلى الصور -البوق- الذي يحمله إسرافيل -عليه السلام- إلا الإنسان في غفلة عن هذا. ولذلك يجب أن نراقب.

والقرآن يربط الحركة القدرية حتى مع القول الشرعي، يعني لماذا يُسنّ والحديث لم يذكره أصحاب الكتب الستة في كتبهم، ورُوي في (المستدرك) وغيره وهو حديث فضل قراءة الكهف يوم الجمعة، لو أردت أن تتفكّر لماذا هذه اليوم يُربط بيوم الجمعة؛ لأنك ترى أن سورة الكهف فيها علامات القيامة، وفيها ذكر القيامة، فقراءة سورة الكهف التي فيها أخبار يوم القيامة يُلائم الفعل القدري وذلك بقيامة القيامة يوم الجمعة، هذا عليك أن تلاحظه، وهذا من قبيل نظر المؤمن إلى أفعال الله تعالى، كيف يراها، كيف تمشي.

لما يقول النبي ﷺ لأسماء: (لا تُوكي فيُوكي اللهُ عليكِ)[٤٥]، أنت ترى أن الرزق يأتيك بالعطاء. الحديث الذي ذكرنا مسبقًا وهو: (من سَرَّهُ أن يُبسطَ له في رزقِه، أو يُنسأَ له في أَثَرِه، فليَصِلْ رحِمَه)[٤٦]؛ علاقة الغيب بالوجود هذه علاقة مهمة جدًا، يُلاحظها المؤمن ويغفل عنها غير المؤمن، وينطبق عليهم قوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ

---

(٤٥) صحيح البخاري: (١٤٣٣).

(٤٦) صحيح البخاري: (٢٠٦٧).

آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}؛ كل الآيات تمر عليهم وهم يُعرِضون عنها، نعمة العطاء فلا يشكرون، نعمة البلاء فلا يستغفرون وهكذا، فهم معرضون عنها، وعلى المؤمن أن يراقبها وأن ينتبه إليها. هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: وهو أنّ عند الله سنة، **كَتَب أن لا يرتفع شيءٌ ارتفاعًا تامًّا**؛ لأن هذا يناقض كبرياء الله. إخوتي أساس التعبد كله، **ركن التعبّد هو أن ترى قَدَر الله وشرعه مربوطًا بأسمائه وصفاته**، إذا لم تفهم هذا فالعبودية ناقصة لديك، يعني لماذا أمك بالصلاة؟ لأنه يُحب أن يُعظَّم، فأنت تعرف أن الله قدوس، أن الله متكبر، أن الله عزيز. لماذا أمرك بالاستغفار؟ لأن الله غفور.

ومن فهمك لأسماء الله وصفاته تفهم شرعه؛ لماذا شرعه ولماذا قدره، كيف؟ كانت ناقة لرسول الله ﷺ لا تُسبق، وهي القصواء، فجاء أعرابي على قَعُود له –بعير– فسابقها فسبقها فشقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فالنبي ﷺ أظهر لهم هذا الأمر لماذا وقع، والفقه النبوي الملائم لهذا هو أن يربط هذا الفعل باسم من أسماء الله وصفاته. عندما يقول (هما آيتان من آياتِ اللهِ، لا يَخسفان لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه)[٤٧] هذا من الفقه النبوي.

الفقه النبوي يعني كيفية ربط حركة الوجود بأسماء الله وصفاته، هذا هو الدين كله، هذا الآن حدث يسير، فكيف يُفسَّر؟ فقال ﷺ: (حقٌّ على اللهِ أن لا يرتفع شيءٌ من الدنيا إلا وضعَه)[٤٨]؛ حق على الله ولا يُوجِبه غيره، إنما الذي يوجبه أسماؤه وصفاته؛ لأن الله متكبِّر لا يحب أن يرتفع أحد ارتفاعًا يقول الناس فيه إنه باقٍ على ارتفاعه ولا يزول، وذلك من كبريائه، الله متكبر، وهذه الصفة لا تليق بأحد غيره، ولذلك قال: (إنَّ العزَّ إزاري، والكبرياءَ ردائي، فمَن نازعَني فيهما عذَّبْتُهُ)[٤٩]، لا يجوز أن يُنازع الرب فيهما، ولذلك إبليس لما أبى واستكبر كان ذلك أساس منازعة الرب، أساس المعصية والشرك والكفر هو الكِبر، الخروج عن حد الربوبية ويناقضه الكبرياء، الكبرياء يليق بالإله.

---

(٤٧) صحيح البخاري: (١٠٤٧).

(٤٨) صحيح البخاري: (٢٨٧٢).

(٤٩) صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (١٩٠٨).

فالقصد من هذا أن النبي ﷺ ماذا قال؟ (حقٌّ على اللهِ أن لا يرتفع شيءٌ من الدنيا إلا وضعَه)؛ أي الذي يتلاءم مع صفات الله أن يضعه.

ومن هنا قال ربنا –سبحانه وتعالى-: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا} ممنوع أن يدوم شيء، والله –عز وجل– عادل، قال: مهلكوها أو معذبوها؛ عذابًا بمعنى أنها جزاء معصية، لكن كيف أهلكها؟ لجريان السنة.

وكما قال ابن خلدون فيما سماه (فِقه العُمران)؛ فقه العمران يعني كيف تَنشأ الدول وكيف تَبيد الدول، كيف تنشأ الممالك وكيف تهلك، هذا فقه. كما أنك كيف تأكل هذا فقه، كيف تصلي هذا فقه، ففقه العمران كيف تنشأ المدائن وكيف تزول. وليس هو صاحب هذا الفن ولكنه قعَّد له، هناك فرق بين أن يكون العلم موجودًا، وبين أن يُقعِّده العالم، يعني علم أصول الفقه هل كان في الصحابة لكن جاء الشافعي وقعَّده. ففقه العمران كيفية نشوء الدول وكيفية هلاكها يجب أن نربطها أولًا بالإيمان، (معذبوها) أولًا بالمعاصي. كذلك من فقه الدول أن تعلم متى تُقبل ومتى تُدبر، فإنها تُقبل بقوة وشراسة كما يقول هو ابن خلدون. وبعد ذلك تبدأ عوامل التعرية والزمن يفعل فعله فيها كما يفعل في البدن.

والغريب جدًا أن **الذي يدل على أن الله واحد أن السُنة واحدة، لكن ما يدل على تعدُّد القدرة هو اختلاف مظهر هذا الواحد**، كما ضربنا مثلًا في الخلية، وهذا عليكم أن تُعمِّموه، كيف يُعمَّم؟ البشرية منذ آدم –عليه السلام– يمثلها إنسان، كلما فَقِهتَ الإنسان فقهت حركة البشرية جمعاء؛ فالإنسان يبدأ ضعيفًا، هكذا بدأت البشرية، ثم قَوِيَت، قويت، قويت، حتى اكتمل كمالها زمن بعثة النبي ﷺ، ثم الساعة اقتربت وبدأ النزول. فعندما يأتي المهدي تكون عودة الإسلام –العودة الصغيرة القليلة جدًا هذه، كما في الحديث–، هذه ما يسميها الناس (صحوة الموت)، حتى حدثت مع المصطفى ﷺ صحوة الموت، قال أبو بكر يصف وفاة النبي ﷺ لما رآه خرج إليهم في صلاة الفجر، فرآه مستبشرًا ضحك إليهم، قال: "فعلمت أن النبي بخير"، فذهب وزار زوجته في العوالي، فجاءه نعي النبي.

فهذه ايمها صحوة الموت، وكما أن هناك صحوة الإنسان، هناك (صحوة الموت البشرية). فالإنسان هو واحد والبشرية يمثلها إنسان، فسيرة البشرية هي سيرة الإنسان؛ كيف يرتقي حتى اكتملت البشرية في تمامها وصلاحها وحقها بمظهر النبي ﷺ والصحابة. بعد ذلك بدأت البشرية تنزل نزولًا آخر، قال: (بُعثت أنا والساعة كهاتين)[٥٠]، خلاص ذهب الصعود في البشرية الآن وجاء النزول حتى يتم الهلاك، كما يهلك الإنسان.

أقول هذا وقارنوه كذلك في الممالك والدول، كما أنك تقرأ الإنسان في صعوده ونزوله عليك أن تقرأ الممالك في وحدتها، كما تقرأ الوجود في تمامه وكماله عليك أن تقرأ الممالك حسب هذه السنة، لأنها واحدة، من الذي يُجريها؟ الله، ولكن تتعدد الصور في هذا، وهذا لبيان كمال قدرة الله.

فالله –عز وجل– من ظهور أسمائه وصفاته في الوجود أن لا يُبقي شيئًا، لا بد أن يُهلكه. ولذلك الله –عز وجل– مِن عِزَّته وكبريائه لا يُبقي أحدًا في الوجود لأنه عزيز، ما معنى عزيز؟ أنه لا يريد أن يبقى إلا هو، لأن العزة تأتي بمعنى الظهور، والظهور لا يكون تامًا حتى يكون واحدًا، فالله عزيز ولذلك يقتل كل البشر ويُهلك كل الأرواح، ويُدمِّر كل شيء، حتى أنه يقبض روح مَلَك الموت، وينادي: (لمن الملك اليوم؟)[٥١]، لما أخبر النبي ﷺ بهذا الحديث مَاجَ به منبره، المنبر تحت قدمي النبي ﷺ اضطرب، لعظمة ما يُخبر به عن هذا الموقف من عزة الله وكبريائه –جل في علاه–.

فمن كبريائه وعزته أن يُهلك كل من ارتفع حتى لو كانوا مسلمين، وهذا يحدث حدوثًا تامًّا بالموت البشري، بأن يموت الإنسان. ويحدث حدوثًا جزئيًا؛ فإن مظهر النبي ﷺ هو مظهر القوة والانتصار الدائم، لكن حدثت أُحد، ليبقى ليس فقط ظهور العزة في تمام الشيء، ولكن ظهور العزة والكبرياء في أثناء الشيء كذلك، يجب علينا أن نفهم هذا، لا شيء يدوم، {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا}.

وتأمل –قلت لكم– دائمًا إذا جاء الخطاب بصيغة الجمع دل على العِظَم، ما قال: (مهلكها)، قال: (نحن)، هذا يسميه العلماء ضمير الشأن، يعني من أجل أن يُبيّن عظمة المذكور، {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا}،

---

(٥٠) صحيح البخاري: (٦٥٠٤)، صحيح مسلم: (٨٦٧).

(٥١) قال الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" (٢/٢٥٢) : منكر.

فهذا أولًا تهلك بسبب جريان عوامل الزمن والله يدمرها من أجل أن لا يبقى إلا هو. أو يعذبها من أجل المعاصي هذه سنة جارية، وهذا يجب علينا أن نفهمه.

المسألة التي ربما تحتاج إلى بسط، وهذه مما يغيب عن ذهن الفقيه أو المدرس، في أنه يريد أن يرى صورة متكررة للهلاك، على هيئة واحدة. هذا الخطاب مفتاح الكلام، هذا الخطاب الذي بين يدينا لمن؟ لقريش، ويقول -سبحانه وتعالى-: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ}، يُقرِّر أنه سوف يأتيهم العذاب بالإهلاك، لكن كيف أهلك الله قريش؟ هل أهلكها على جهة ما أهلك الأمم السابقة؟ أم أن الهلاك تنوّع كما أهلك أقوامًا آخرين، بأنواع مختلفة من الإهلاك والزوال والدمار؛ يطول عليهم العمر حتى يهلكوا ولا يبقى منهم أحد، أو يأتيهم عذاب حاصد فيُزيلهم بالكلية، أو يأتيهم ماء يغرقهم، أو تأتيهم الصيحة التي تفجّر قلوبهم فلا تُبقي منهم أحد. وهكذا يتنوّع، فهي سنة الإهلاك، ولكن السؤال هنا عن طرق الإهلاك.

الله يرزق، الناس تحجِبُهم السُّنن عن رؤية يد الله، الله -عز وجل- يحجب يده الفاعلة الوحيدة في الوجود بالسُّنن، من الذي رزقك؟ الله، لكن يحجب هذا العطاء بوالديك، يأتي والدك يُعطيك، والناس لغفلتهم لا يرون ما ذكرناه في الحمد، أن مستحق الحمد كله في المآل هو الله. فالناس نظرتهم للسُّنن الجارية تحجبهم عن رؤية يد الله الفاعلة، ولا يُدركون يد الله الفاعلة حتى تغيب السُّنن وتصبح الواسطة معدومة. {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} هنا لا رابط بالنسبة لعالمنا، ولكن هناك روابط من الملائكة؛ هم أنزلوها، وقال لها —سبحانه وتعالى-: كن، فيكون. ولكن جَرَت سنة الله تعالى أن هذا لا يفعل هذا، يُجريه عن طريق الملائكة، كما أنه يُدمِّر عن طريق الملائكة، ويُنزل الغيث عن طريق الملائكة، ويُخرج الوليد من بطن أمه على يدي ملك، وهكذا فالملائكة هي التي تصنع ونحن لا نراها، ولكنها سبب.

وهناك أسباب نراها، وهذه الأسباب التي نراها هي التي تحجبنا عن يد الله الفاعلة، لماذا؟ ابتلاءً وامتحانًا للناس، لأن الله يحب من الإيمان أن يكون واعيًا، ويحب من الإنسان أن يكون ذكيًا في أن لا ينسب الشيء إلى ما هو مظهر له فقط، ولكن إلى حقيقته الداخلية. ولذلك أعظم الغيب هو الله، لا يكون غيبًا حتى يحجب

نفسه، ومما حجب نفسه –جل في علاه– أنه حجب الخلق عنهم في العطاء والمنع وفي جريان ما يقع فيهم من أحوال عن طريق السنن.

هذا يجب أن نفهمه؛ **إن الله يحجب يده الفاعلة في الوجود بالسُّنن التي تظهر لنا** فيعجز المرء فينسب لهذا، وينسب لهذا، {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ}، {أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ}، انظر إلى هذا، والحديث الذي يفسر هذا (فَمَن أَعْدَى الأوَّل؟)، من الذي أوجده؟

ما معنى تغيُّر السنة؟ السنة جارية؛ بمعنى أن الله يُهلك العصاة، ويعطي المؤمنين، حتى المؤمنون يُمتِّعهم إلى حين، لا أحد يبقى. ولكن كيفية تغيُّر هذا الله يُغيره، يُهلك هذا بطريقة، ويُهلك هذا بطريقة. وقلنا بأن الله أوقف سنة الاستئصال الدائم في قوله –سبحانه وتعالى–: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ}؛ جعل البصائر هي الآيات البينة التي بها –وهذه مهمة جدًا عليها شرح وسورة الأنعام من مهماتها بيان الآيات هذه ليست مهمة فرعية في القرآن– سؤال الأمم السابقة عن الآيات ليست مهمة فرعية في القرآن، ولها ضرورة في حياتنا.

يعني لو سأل سائل: ماذا يفيدنا أن نفهم أن الله لا بد أن يدمر كل قرية أو أن يعذبها؟ الذين خرجوا علينا بنظرية نهاية التاريخ، لما رأوا سقوط القطب الثاني من الشيوعية، ورأى هذا الباحث –وهو عالم اقتصاد اجتماع– أنه لم يبقَ إلا أمريكا، ودرس بحسب زعمه الحضارات السالفة، ووجد أن الحضارات التي سقطت وبادت سابقًا كان فيها عوامل الفناء، ولكنه غير مؤمن، المؤمن هو فقط من يرى يد الله –عز وجل– وهؤلاء كما قال الله –عز وجل–: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} كل هذا الذي ذكرناه وهو حَجْبُ يَدِ اللهِ في السُّنن هو {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، هو لا يرى يد الله. فقال: إن عوامل فناء الحضارات السابقة أمريكا نَجَت منها، وذلك لحُسن الإدارة، القوة البالغة، عدم وجود المنافس، إلخ. وبعد أن ذهبت جيوشهم إلى العراق الرجل تاب إلى الله واستغفر، قال: أنا أخطأت!

وهذا كله في آية واحدة، قال سبحانه في سورة القمر بعد أن ساق الأقوام السابقين بصورة متتالية من النَّغَم العظيم الجليل، وفي كل آية يقول فيها {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} يقرع فيها، ثم ختمها بقوله: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ}؛ هذه نظرية نهاية التاريخ كانت موجودة عند كل الأمم، عند فرعون كانت موجودة، وعند قريش كانت تزعم: نحن على اختلاف، نحن سدنة الحرم، نحن كذا وكذا إلخ، فالله -عز وجل- يقول: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ}.

ما هي علاقة الكفر؟ علاقة الكفر في العطاء والمنع {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، ولها تفسير سُنني طويل ولكن ليس هذا وقته، يكفي أن نؤمن بها في هذا الوقت إجمالًا.

قال سبحانه: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}؛ لأنه في ذلك الوقت قريش قال ابن قتيبة في (المعارف): "سُمِّيت قريش بهذا الاسم نِسبة لدابة في البحر تأكل غيرها"، يعني القِرش. ففي ذلك الوقت الناس لا يتصورون أعظم من قريش بالنسبة للبيئة التي هم فيها، ومع ذلك يقول: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} سيدمرهم، وهذه سنة جارية.

اليوم هذه كيف تفيدنا؟ تفيدنا أن لا نخاف هؤلاء عندما يكبرون، عندما نقابل فرعون، فرعون هذا غدًا سيُصبح تحت الماء، هذه الممالك التي ترونها لا شيء، الله إذا أراد شيئًا فقط هو لجريان السنة بطريقة، لجريان الفعل الإلهي بطريقة سننية لا ندركها.

الناس الآن هل يتفكَّرون في هذه الخِلقة التي تخرج من رحم المرأة؟! لأنهم يرونها متكررة، ويرون الشمس تجري فيغفلون عن رؤية الله، {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. فمتى يُدرك الإنسان حركة يد الله في الوجود؟ عندما تغيب الواسطة، مثلًا لو كنا جلوسًا وقال واحد: "يا رب ارزقنا"، فنزل طعام، فهذه يرونها عجيبة، هي عجيبة بالنسبة للسنة ولكن ليست عجيبة بالنسبة ليد الله، لأنك حين أُعطيت هذا الطعام ماذا كنت أنت ثم ماذا صرت؟ كنت فقيرًا مُعدمًا فأعطاك، هل فكرت؟ أنت غفلت لأنها جرت على مجرى السنة.

والمَلَكات لا توقيت لها بخلاف جريان الشيء على غير السنة فله توقيت؛ الآن نزل طعام، لكن أن يجري الطعام على طريقة سُننية فالملكات لا توقيت لها، هو ذهب واشتغل وعمل، واليوم حصل على ألف دينار وغدًا نمَّاها، فبعد عشر سنين أو خمس سنين صار معه مليونًا، جرت على مجرى الوقت، مجرى الوقت هذا مما يغفل عنه الإنسان وهو حجاب اللهُ ابتلاك به حتى يراك أَتَنسِبُ الفعل إلى الله أم تنسب الفعل إلى نفسك؟! كما قال قارون: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}، فمن أعطاك القوة؟

فالله -سبحانه وتعالى- عذّب قريش وقال سأعذبهم، فسنة الإهلاك قائمة، وربط الفعل والوجود ودماره بالإيمان موجوده، ولكن انظر إلى قوله في سورة الشعراء، قال: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ}، فهؤلاء الذين يستعجلون بعذاب الله اصبروا سوف يأتيكم العذاب، وحين يأتي العذاب المتعة التي تعيشونها لن تذكروها، لن تُغني عنكم هذه المتعة التي تعيشونها!

ثم جاء في سورة الصافات في قوله -سبحانه وتعالى-: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} هذه كيف طُبّقت؟ طُبّقت من قِبَل النبي لما نزل خيبر، قال: (إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المُنذَرين)، فتلك سنة جرت على وجه من الإهلاك.

ماذا قال عن فرعون في سورة الشعراء؟ {وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، في الشعراء ذكر بني إسرائيل لما ذكر الكنوز لأن بني إسرائيل سرقوها، فالله نسبها إليهم كما في سورة طه. ولكن في سورة الدخان قال: {وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} ما قال بني إسرائيل، قال: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}.

فمن الإهلاك هو هذا الإبدال، فهؤلاء الذين أنذرهم الله بأنه سيعذبهم بكفرهم برسول الله، وسيُجري عليهم ما أجرى عليهم على الأمم السابقة، هم انتظروا أن تأتيهم الصيحة، وإذا هي صيحات محمد ﷺ: (إنَّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذَرِينَ)[٥٢]، طبَّق عليهم الآية تمامًا، كما تُطبّق الآيات الأخرى على الأمم السابقة.

أنت ليس عليك أن تنظر كيف ينصر الله، وكلمة النصر تتكرر في القرآن بأنواع، يجب عليك أن تفهمها، انظر إلى قوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} كيف نصره الله؟ هذه في سورة التوبة، فالله يقول لمن هاجر إليهم: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ}، كيف نصره الله؟ نصره بأن أخرجه من قومه إلى قوم ينصرونه، وهذا من مدح ربنا للأنصار، أنه نصره بهم، فهذا نصر؛ نصره بأنه لم يُجري مراد عدوه فيه، كان مراد قريش القتل أو النفي أو الحبس، وكان خيار النصر هو إحدى خياراتهم، وهو الإخراج، وهذا تقاطع المصالح، هو يريد منك هذا وأنت تمشي معه لأن هذا مما يوصلك إلى مُبتغاك.

ومن النصر الذي ذكره الله –عز وجل– عن نوح: {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}، كيف نصره؟ أنه أهلك عدوه، بأن جاءت المياه فاجتاحتهم واجتالتهم ولم تُبقِ أحدًا، هو ما قاتل. ولكن كيف نصر الله رسوله على قريش؟ بأن دخل مكة فاتحًا وعفا عنهم وصار أبناؤهم كما رجا في دعائه (بل أرجو أن يخرجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد اللهَ وحده، لا يشركُ به شيئًا)[٥٣] هذا هو النصر. فالسنة لم تتغير، ولما نقول: تغيرت السنة المقصود نوعها، وإلا فقضية الإهلاك والوجود والعطاء والمنع قضية واحدة جارية.

إذًا لا شيء دائم، كل شيء سيزول، كل شيء سيتحطم، سواء كان فردًا أو إنسانًا كاملًا، وكله سيجري عليه عوامل الفناء والدمار بحسبه، إما أن يجري عليه مجرى السنة، إلا إن كان طائعًا ليست فيه المعصية الموجبة للدمار، وإما أن تأتيعليه الهلكة بسبب معاصيه.

كيف يُفرّق المرء بين البلاء وبين العذاب؟

---

[٥٢] صحيح البخاري: (٢٩٤٥)، صحيح مسلم: (١٣٦٥).

[٥٣] صحيح البخاري: (٣٢٣١)، صحيح مسلم: (١٧٩٥).

الله -عز وجل- يقول في سورة البقرة: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ} فالمؤمنون تصيبهم مصيبة، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}، وهذه يُهدِّد الله عز وجل بها، وأعظم قضية تُعطى للبشرية وللمجتمعات هي الأمان والطعام، كما قال -سبحانه وتعالى-: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}، {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، وقال في سورة النحل: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا} لماذا قال آمنة مطمئنة؟ لأن المرء قد يكون آمنًا غير مطمئن، وقد يكون مطمئنًا وهو في الحقيقة غير آمن، مثل جماعتنا الآن مطمئنون، لكن في الحقيقة لا ندري ماذا يكيد الله لنا!. وقد يكون آمنًا ليس هناك عدو ولكن الله يقذف في قلبه الرعب والخوف فلا يعيش في اطمئنان، ولكن قال: {يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا} فهذا الأمان ، والأمان هو العطاء الباطني الداخلي، ويقابله العطاء المادي.

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ} فالمؤمن يُصاب به. فكيف نفرق؟

هنا فقط يجب النظر إلى أمرين؛ **الأمر الأول**: عليك أن تنظر إلى **حال من سقط عليه الفعل**، فإذا جاء الفعل عليه وهو على معصية فاعلم أنها عذاب، ولكن من رحمة الله أن لا تستأصله، قلنا ليس هناك شيء فُجائي، فالله يُقيم من النذر مرة ومرتين، يضربه مرة ومرتين (حتى إذا أخذه لم يفلته)(٥٤). وإما أن تستأصله فهذا الذي بلغ به الإنذار مداه.

وأما المؤمن، فعليك أن تنظر إن كان هذا الرجل صاحب تقوى وصلاح، فحينئذٍ يريد الله -عز وجل- به البلاء من أجل الرِّفعة، وإن الله يعطي بالبلاء كذلك ما يعطي بالنعم. كما قال بدر شاكر السياب، هذا الشاعر كان شيوعيًا ولكن شعره جميل، نحترم شعره، كما نحترم شعر امرؤ القيس، وإن كان هو من الشعر الحديث.

لك الحمد مهما استبدَّ البلاء ... لك الحمد مهما استطال الألمْ

لك الحمد إن بعض الرزايا عطاء ... وإن البلايا بعض الكرمْ

---

(٥٤) صحيح البخاري: (٤٦٨٦)، صحيح مسلم: (٢٥٨٣).

الأمر الثاني: قد يقول قائل: هو في ظاهره مؤمن ولكن هو في باطنه كذا إلخ، لكن عليك بالثانية وهي مهمة ذكرها في الحديث: (مثلُ المؤمنِ كمثلِ خامةِ الزرعِ)[٥٥] مثل العشبة الكبيرة هكذا بحجم إصبعك، كيف يأتي عليها الهواء يُميلها مرة، فتعود مرة، ويُميلها مرة فتعود مرة، وهكذا شأن المؤمن حتى يأتيه الموت، وأما الكافر فإنه يأتيه البلاء مرة واحدة، فإذا جاءه قصفه مرة واحدة وانتهى الأمر. فالله يبتلي، المؤمن يُبتلى ويعود يبتلى ويعود، ولكن العاصي والكافر يأتيه البلاء فيهلكه مرة واحدة، {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}؟!

يقول -سبحانه وتعالى-: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ} شرحنا أنه سيأتيهم العذاب، وأتى على نوع من النصر الإلهي لرسوله.

وتفكَّر من أعظم، نصر الله لنوح أم نصر الله لمحمد؟ إخواني لما يأتي السؤال أبعدوا الشخصيات، لأنك لا تفهم الشيء إلا إذا أبعدت الشخصيات؛ لأن وجود اسم محمد ﷺ هو مُرجِّح، لكن حتى تنظر نظرة سُننية وموضوعية أرجئ الأسماء، قل من أعظم نصر أن يأتي فيفعل هذا أو يأتي فيفعل هذا؟ فكروا فيها تجدوا أن نصره لرسول الله أعظم وأجل؛ فإن الجلال في أن الله نصر نوحًا بيده، **بينما الله أجرى نصر محمد بيد محمد، هذا أعظم الجلال**. يعني الله استخدم الماء في نصره لنوح، فالماء هو الذي نصره. لكن ما الذي استخدمه ربنا -جل في علاه- لينصر محمدًا؟ هو محمد ﷺ، هو بيده. فلذلك ما أجراه الله من كرامة على يد محمد ﷺ أعظم مما أجراه على يد الماء، ولذلك هذا نصر عظيم.

وقال ﷺ: (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أراد رحمةَ أمَّةٍ من عبادِهِ ، قبضَ نبيَّها قبلَها . فجعلَهُ لها فرَطًا وسلفًا بين يدَيها. وإذا أراد هلَكةَ أمَّةٍ، عذَّبها، ونبيُّها حيٌّ، فأهلكَها وهو ينظرُ، فأقرَّ عينَهُ بهلَكتِها حين كذَّبوهُ وعصَوْا أمرَهُ)[٥٦] والحديث في صحيح مسلم، فإذًا هذه الأمة أعظم، **وإذا كانت أمة الرجل أعظم فهو أعظم**.

---

(٥٥) صحيح البخاري: (٧٤٦٦).

(٥٦) صحيح مسلم: (٢٢٨٨).

بماذا كانت عظمة النبي؟ بعظمة أمته كذلك، والدليل أن أعظم الأمم يوم القيامة هي أمة محمد ﷺ، (وأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة)[٥٧]. فلما كانت أمته أعظم الأمم كان هو أعظم الأنبياء، وهذا من تنافس الأنبياء -عليهم السلام-.

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ}

هنا ذكر -سبحانه وتعالى- ثلاثة أمور في هؤلاء القوم:

أولًا قال: {مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ}، **والتمكين** يأتي على معانٍ متعددة في القرآن؛ من معانيه التي ذُكرت في سورة يوسف -عليه السلام- {مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ}، ما هو التمكين؟ أي يصير عنده المَكَنة أي القوة، ومنها أُخذت في العربية (الماكينة) لأنه فيها القوة. ماذا كان مراد أعدائه؟ ماذا كان مراد إخوته منه؟ خلاص انتهوا منه، فالله -عز وجل- مكّنه، صار عنده مكنة أن لا يقع عمل إخوانه عليه. وانظر إلى هذا الجمال الإلهي والعظمة الإلهية، قال: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} ما الذي يناسب الحال الذي كان فيه يوسف؟ أن يُذكر اللطف أن تُذكر الغلبة؟ المناسب لحاله أن الله لطف به، فالمناسب أن يُذكر اللطف، لكن هنا قدّم الغلبة، وقال: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}، في بداية القصة قال: {غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}، ولما خُتمت القصة قال يوسف -عليه السلام-؟ {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ}.

وهذه (لطيف) هي شرح لقضية خفاء يد الله وراء السنة. فذُكرت الغلبة في بداية الضعف، وذُكر اللطف عند نهاية النصر؛ من أجل أن يقول الله لكم حتى وأنت في ضعفك يا يوسف فالله غالب على أمره، يعني ليس وجود الضعف فيك بسبب ضعف غلبة ربنا، ولا قوته ولا نصرته لك، ففي بداية الأمر وأنت ضعيف الله يُقرِّر أنه هو الغالب وسيُجري من الأفعال ما يُحقق هذه الغلبة من خلال خفاء يد الله في السنن، فإذا وقع الامر

---

[٥٧] صحيح البخاري: (٣٣٤٨)، صحيح مسلم: (٢٢١).

وانتهى قال -سبحانه وتعالى- على لسان يوسف: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} من أجل أن تشرح مسيرة حركة التمكين ليوسف -عليه السلام-.

رؤيا رآها، إخوانه رموه في الجبّ، أين الفعل الذي فيه القهر وخفاء السنة أمام اليد؟ إنما هو اللطف، اللطيف بمعنى الخفيف الذي لا شدة فيه ولا قوة، تقول: هواء لطيف، وهذا لا يكون إلا إذا كان قادرًا على الدخول في كل شيء، فلا يُعجزه شيء. تقول: فلان لطيف يعني كلامه سهل ولا يصادم، وإذا كان كذلك فعنده القدرة أن يسلك المسالك الصعبة.

فربنا -سبحانه وتعالى- لطيف ذاتًا، ولطيف فِعلًا -جلّ في علاه-، وأما الفعل فهو يجري على المعنى الذي ذكرناه، فيدخل فعله من غير أن تراه لُلطفه وخفائه في الوجود وفي الفعل. فلذلك مشت مقادير يوسف -عليه السلام- من غير أي تدخل على معنى القهر، إخوته وضعوه في الجبّ، جاء ناس وأخذوه، عادي الصورة ماشيه، ألقوا الدلو في البئر، خرج الولد معهم، أخذوه وباعوه، -نحن دائمًا نريد النصر بطريقة ليس فيها بلاء!- ، أخذوه باعوه ظننا أن القصة انتهت، وإذا القصة ما زال فيها طول، **لأن العطاء لا ينبثق إلا بالبلاء.**

يقول ابن القيم عند قراءته للثلاثة الذين خُلِّفوا -كعب بن مالك، مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية- في (زاد المعاد) قال: "فهؤلاء لما أمر الله نساءهم أن لا يتكلَّن معهم، ولا يقربونهن بل يهجرن البيوت، قال: حينئذٍ عُلم أن النصر آت"؛ ما دام أن هناك زيادة، بخلاف أن يأتي الأمر مرة واحدة ففيه الهلكة، لكن لما يتدرَّج لا يبقى شيء، عرفت أن بعدها يأتي الفرج.

فيوسف -عليه السلام- ربنا لطيف معه، دخل القصر وتنعّم وكبر وصار شابًا جميلًا، {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}، وبعد ذلك فتنة، بعد الفتنة ظننا ستحصل النجاة، وإذا به ذهب للسجن، وفي السجن قصة لا ترون فيها إلا اللطف!، أن تجري أقدار الله من خلال سننه -جلّ في علاه-.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة:

١. نقول: كبر الرجل بالسن. المضارع منها (يكبُر) أم (يكبَر)؟

الشيخ: يكبُر.

٢. بالنسبة لـ(كلما)، كلما كان الشيء كذا، يقولون: لا يجوز أن نكرر كلما.

الشيخ: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ} كلما دخل وجد، فهي أداة شرط تحتاج إلى جواب، فلا يصح أن تكون أداة، -وعند الكوفيين يقولون: تكون أداة-، لأن (كلما) شرط، فلا يصح أن يُجاب على الشرط بمثله، فكلما جاء الرجل أطعمناه، ولا يصح أن نقول: كلما جاء الرجل كلما أطعمناه، فحينئذ تحتاج (كلما) الثانية إلى جواب الشرط.

بارك الله فيك، أنا لست نحويًا ولكن أجيب بما أعلم، للنحو رجال.

الدرس الحادي عشر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله، بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، اللهم صلِّ عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم، آمين آمين.

كنا مع قوله تعالى: {**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم**}.

هذا استفهام، والاستفهام في اللغة له معانٍ كثيرة، منها **التقرير**، بأن يسأل ليُقرِّر {أَلَمْ يَرَوْا}، فهذا ليس المقصود به الاستفهام من أجل الجواب أو البحث أو سؤال استفهام، لكن المقصود هذا سؤال للتقرير، فإنهم قد رَأوا، واستخدام السؤال من أجل التقرير فيه تنبيه، (أَلَمْ)؟ وكأنه يريد أن يقطع به حُجَّة المخالف أو يريد أن يقيم عليه حجة، ويقطع حجته لما تقدم أو أن يقيم عليه حجة لما سيأتي.

وقوله هنا {أَلَمْ يَرَوْا} **الرؤية في القرآن** تُطلق على معنيين: الرؤية **العلمية** وهذه منها، والرؤية **البصرية**، رأى: أبَصر فهذا يبصر بعينه، ورأى بمعنى عَلِم. وكيف يُفرق بينهما؟ الرؤية البصرية تأخذ مفعولًا واحدًا، والرؤية العلمية تأخذ مفعولين، هذا من جهة.

فقوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ}، قلنا إن التمكين في لغة القرآن في سورة يوسف على معنيين: التمكين الأول ليوسف -عليه السلام-: {كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيث}، فهذا التمكين إنما هو عدم إصابة خصمه له، ما تحقَّق مراد الخصم له، فهذا تمكين.

والتمكين الثاني: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء}، فهذا التمكين الثاني هو إصابة المُمَكَّن لطلبه. هما نقطة واحدة؛ الأول هو إفلاتك من مقصد خصمك فيك، هذا تمكين، لأنه كما قلنا أن التمكين من (المكَنَة) وهي القدرة والقوة، في إمكان يعني في قوة، فمكَّن أي صار له القدرة. فإذا فلت من مراد خصمه فهذا تمكين. وهو كما ترون **تمكين سُلُوبِيّ** كما يقولون. والثاني هو تمكين أنه هو الذي يُنفذ إرادته في غيره؛ {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء}،فإذًا هو يتبوَّأ، يفعل ما يريد، فهذا تمكين.

هناك من ألَّف بعض الكتب ويريد أن يجعل التمكين المطلق كما سماه الله –عز وجل– في قوله: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ} والمقصود فيها هنا الحكم والسلطان؛ لأن السلطان قدرة ومكَنَة، فسمى الله –عز وجل– السلطة أي أن يقبض المرء على السلطة ويكون له الملك والسلطة، قال: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاة} هذا تمكين وهو صار له القدرة في أن يُنفّذ مراده.

الأول فلت من مراده، هذا تمكين وهو تمكين لغوي –وهنا نفتح باب–؛ **لا يجوز أن يُقيَّد المفهوم الاصطلاحي بالمفهوم اللغوي**. لماذا؟ مَن أَوْسع أولًا المفهوم اللغوي أم المفهوم الاصطلاحي؟ المفهوم اللغوي أوسع لأن الاصطلاحي أصلًا هو مشتق من بعض معاني اللغوي، مثلًا كالصيام

خيلٌ صيامٌ وأخرى غير صائمةٍ ... تحت العَجاجِ وأُخرى تَعلُك اللُّجُمَ

فما معنى الصيام هنا؟ (خيل صيام) أي التي لا صوت لها، محبوس صوتها، (وأخرى غير صائمة) أي لها صوت، (تحت العجاج) أي في الحرب، (وأخرى تعلك اللُّجم) جمع اللجام.

فالصيام بالمفهوم اللغوي هو الامتناع، صام امتنع {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} امتنعت عن الكلام. لكن بالمفهوم الاصطلاحي الشرعي الصيام مقيد وهو الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة. فإذًا اللغة أوسع دلالة، هذا معروف، قالوا فقط في كلمة الإيمان –وقد اخطأوا، ولكن لا بد أن تُذكر–، قالوا: إلا مصطلح الإيمان فإنه

في المفهوم الشرعي أوسع من المفهوم اللغوي، ذلك لأنهم يجعلون الإيمان بالمفهوم اللغوي هو التصديق، والإيمان بالمفهوم الشرعي أوسع من التصديق. وهذا خطأ، حتى إن شيخ الاسلام في كتابه (الإيمان الكبير) يقرر أن مصدر كلمة (آمن) ليس كمصدر كلمة (صَدّق)، ويُرجع إليها ليس هذا مكان الكلام فيها.

فالقصد التمكين {مَّكَّنَّاهُمْ} يجب أن يُنظر إليها إلى معنى صرفِها، فإذا كانت على المعنى اللغوي هنا تُطلق على أنه صار عنده المكَنَة والقدرة، وفلت من أعدائه. صار عنده المكنة والقدرة ونفّذ إرادته في غيره هذا كله تمكين. لكن التمكين الذي يبحث عنه المسلمون إنما المقصود به هو السلطة، أن يصبح للمسلمين سلطة وقيادة لمكان من الأمكنة.

قوله تعالى: {مِّن قَرْنٍ}، ذكرنا معنى القرن وقلنا بأن المدة الزمنية سُمّيت قرنًا لأنه يقترن فيها جيلان؛ فمائة عام عادة لا يكون فيها جيل واحد، يكون فيها جيلان أو ثلاثة، في أولها وآخرها. فسُمي اقتران الجيل بالجيل (قرنا). انظروا لروعة اللغة العربية!

وانظر كم تفرَّع من هذا اللفظ من فنون لغوية في ذهن العربي، كيف كان يهجم على اللفظ فيستنبط منه كلمات رائعة. (عَقَلَ) معناها ربط، سمّي العقل عقلًا لأنه يعقِل أي يربط صاحبه عن السفاهات، فسموه عقلًا، مأخوذ من الحبل المعقود. وسموا الزوجة (عقيلة) لأنها مربوطة في البيت، محبوسة لزوجها، -واليوم لا يصح أن تسمى المرأة عقيلة، لأنه ما في امرأة مربوطة-. ويقال عن الدِّية (عاقلة) لأنهم كانوا قديمًا إذا أحضروا الدية ربطوها بباب بيت صاحب الطلب فيعقلونها. وسموه (عِقال) لأن العربي كان يربط فيه على رأسه لتمشي الدابة بدلًا من أن يبقى ممسكها. انظر هذه الكلمة كيف تفجرت منها هذه المعاني، ووصلت للجَمَل، ووصلت للمرأة، ووصلت للدماغ، وأصلها (ربط). هذا فن العربي الذي كان يتنغم بهذه اللغة الشريفة العظيمة.

من أجل أن تعرفوا أن أجدادكم عظماء، أعظم من اليوم. اليوم أعظم ما يصيب البشرية هو احتقار الأجداد. دعني أسأل سؤالًا من أعظم ذهنًا وفقهًا وذكاءً وعبقريةً وعقلًا الذي صنع رغيف الخبز أم الذي صنع الكمبيوتر؟ من هذا الذكي الذي شقَّ بصره نفاذًا وعبقريةً إلى أن يعرف أن حبة القمح يُمكن أن تُنتج كل هذا

الإبداع؟! ينظر إلى هذه الجموع التي أمامه من النباتات، فيعرف أن هذا السر الغريب جدًا في حبة القمح، ويأخذها لا يمضغها ويأكلها فينتفع بها، إنما يأخذها ويجفّفها ويطحنها ثم يعجنها ثم يخبزها ليأكلها! هذا عبقري، هذا ذكي ويفوق في ذكائه مخترع الكمبيوتر.

ولذلك يقول -رحمه الله- أستاذنا الكبير العظيم المظلوم مصطفى صادق الرافعي في (وحي القلم): "بعض الناس مثل حبة القمح؛ يؤخذ أولاً فيُعرَّض لأشعة الشمس حتى يحترق فينشف، ثم يؤخذ فيُطحن، ثم يؤخذ فيُعجن ثم بعد ذلك يضعوه في النار ثم يأكلونه"، فبعض الناس هكذا مثل حبة القمح تنتفع فيه البشرية وبالنهاية هو مسكين لا شيء سوى حبة قمح!

ذكرنا (أهلكنا) وبيَّنا أن الهلاك صور متعدِّدة في الوجود، وقلنا هنا في هذه الآية ذكر الله -عز وجل- ثلاث خصال عن هؤلاء الأقوام:

أولًا: مكَّنهم في الأرض، وأطلق التمكين في الأرض وجعله مطلقًا من أجل أن يذهب الذهن إلى كل المذاهب، {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون}، مكناهم أكثر منكم {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً}، وهذا من التمكين.

وهنا لا بد من موضوع مهم جدًا في قراءتنا للقرآن؛ نحن "مساكين" أحيانًا نقرأ الخبر بعيدًا عن تاريخيته وجغرافيته، لأننا نظن أن الخبر الديني في القرآن يجب أن يرتفع عن التاريخ والجغرافيا، وهذا من أفسد قراءةٍ تحدث لأي كتاب في الوجود، وأفسد قراءة تقع على القرآن. **يجب عليك أن تقرأ الأحوال أولًا في عالم السنن التي تجري**، ثانيًا **بخضوعها لجغرافية المكان وتاريخية المكان**. فلما يقول الله: {وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} السبب وسيلة، علة الشيء التي تحدث فيها الشيء. فالله لم يعطِه صواريخ، ولم يعطِه طائرات نفّاثة، ويجب أن تقرأ السبب الذي يتم به النصر في عصرهم ملائمًا لتاريخية هذا الخبر.

وهنا لا بد في قراءتنا للنصر الإلهي أن يكون بهذا المعنى، لأنه للأسف الناس لا يقرأون القرآن بهذا المعنى، وهذا من الأخطاء المنتشرة في قراءة القرآن، حتى المشايخ في الخطب والدروس يبالغون ويُطلِقون، يعني عندما يقول الله مثلًا {مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ}، فلا يجوز لأحد أن يقول: في كل الأرض. وعندما يقول الله: {لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} المقصود البلاد التي يعرفها الـمُخاطَب بها، يعني ليس بأمريكا، وهذا صحيح فإن إِرَم لا يوجد لها مثيل إلا مكان واحد في الدنيا أي في الأرض القديمة، ومكان واحد في الأرض الجديدة، فخاطبهم بها.

فيجب أن تقرأ الخبر القرآني بملاءمته أولًا للسُّنة؛ مثلًا قراءة يأجوج ومأجوج، أن تقول هم موجودون ومتخفّون تحت الأرض، وفي أحاديث يصحّحها فلان وعلان. هذه أحاديث باطلة؛ لأن النبي ﷺ يقول: (إني لأطمعُ أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنةِ. إنَّ مَثَلَكُمْ في الأممِ كمثلِ الشعرةِ البيضاءِ في جلدِ الثورِ الأسودِ)، إذًا يأجوج ومأجوج من البشر، وفي حديث آدم نفسه: (يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: يا آدمُ! فيقول: لبيك! وسعديكَ! والخيرُ في يديك! قال يقول: أَخْرِجْ بعث النارِ. قال: وما بعثُ النارِ؟ قال: من كل ألفَ تسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعينَ. قال فذاك حين يشيبُ الصغيرُ وتضعُ كل ذاتِ حملٍ حملها وترى الناسَ سكارى وما هم بسكارى ولكن عذابَ اللهِ شديدٌ. قال فاشتدَّ ذلك عليهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ! أينا ذلك الرجلُ؟ فقال أبشروا. فإنَّ من يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا. ومنكم رجلٌ)[58]، اذًا يأجوج ومأجوج من ذرية آدم. لا يجوز أن نقول يوجد بشر آخرين من غير ذرية آدم، لهم آذان طويلة وأرجل.. بالطريقة التي يتصورها الناس.

يجب أن نقرأ القرآن قراءة سننية حتى في نزول المعجزة. وعندما نقرأ مثلًا فيضان نوح يجب أن نفهمه بقراءة سننيّة، ليس كل الأرض، كلمة (الأرض) هذه يجب أن نلائمها بما هي عندهم كقوله: {مَكَّنَّاهُمْ فِي **الْأَرْضِ**}؛ الأرض التي هم فيها.

{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ***الْأَرْضِ*** الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}ليس كل الأرض، ولذلك سليمان لم يكن يعلم أخبار بلقيس وسبأ، {فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}. فيجب أن نقرأ القرآن قراءة سننيّة.

---

(58) صحيح مسلم: (٢٢٢).

هناك قضية مهمة جدًا، ومن أهم ما يجب أن تتعلمه حتى لا تُخدع؛ عندما يأتي شيخ ويتصور أن كل معركة بين المسلمين وبين الكافرين هي قوله تعالى: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ}، فيفهم أنه يلزمنا فقط أن نذهب إلى اليهود وندخل عليهم الباب فالله وعدنا كما وعد اليهود: {فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ}! وأين هذا من قوله تعالى: {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ }فهؤلاء القوم كان يكفي أن تدخل عليهم لحالهم الذي قدَّره الله في أن يدخلوا عليهم فينهاروا. وغيرهم قد لا ينهار بمجرد الدخول عليهم. وهذه في سورة الفتح نزلت في المرتدين، عند أغلب المفسرين، {سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} هم أهل اليمامة، جماعة مسيلمة الكذاب. ستكون فتنة بعدها، {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} أي سيقاتلك حتى الموت، وهذا الذي حدث في الحائط الذي كان فيه مسيلمة وقتل من الصحابة أكثر من سبعين من حفظة كتاب الله. وما كان بمجرد دخولهم عليهم أنهم غالبون.

أو يأتي ويقول: {وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}، ليسوا كلهم يولُّون الأدبار، هذا نوع من أنواع القتال، وهذا ليس ردًا على الآية، إنما هو إعمال للآية في موطنها التاريخي والجغرافي. هذا الكلام مهم، واذا لم نفهمه سَتُزَّور علينا الدنيا ونعيش وَهْمٍ كاذب، بعد ذلك تأتي الأحوال فنرى غير هذا فنظن أننا على باطل، ونظن أن هذه المعركة بما أنه فيها دماءً كثيرة وقتلى كثر، وما دام فيها إفناء للمسلمين بهذه الطريقة، إذًا هو جهاد باطل لأن المقصود أننا إذا دخلنا عليهم غلبنا، أو اذا قاتلناهم ولوا الأدبار. وهذا باطل، وهذا جهل.

فإذًا يجب قراءة الخبر القرآني ضمن تاريخيته، لما نقول سببًا يكون ملائمًا له. فقوله: {مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ}، بما يحصل به التمكين في عصرهم، بما جرى عليه وقتهم من التمكين. وليس هو شيئًا زائدًا عما يعرفه أهل عصرهم.

قوله تعالى: {مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ}، وهذا خطاب لقريش. ومكة فيها تمكين، ومن التمكين الذي فيها أن فيها بيتًا يحتاجه العرب جميعًا ويأتون يحجون إليه، لذلك من أسباب رفضهم للدين {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}، الله قال: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا}، هو الذي جعل هذا فهو قادر أن يجعله بابًا عليهم في المعصية. فهم ممكّنون على معنىً مُعيَّن في بلدهم.

الآن ذكر التمكين، هذه نطلقها بحسب واقعهم؛ فهم ممكَّنون لا يُخاف عليهم. أما الثانية وهو العطاء الإلهي القدري. التمكين حصل لهم من خلال أعمالهم، ومع ذلك نسبه الله إليه مع ما جرت فيه من جريان النعمة.

ثم قال -سبحانه وتعالى-: {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا}، عادةً إذا تكرر الحرف يتكرر الفعل، كما قلنا في (صلصال)، عادة عندما ترى كلمة من العربية فيها حرفان متتاليان، أو الحرف متكرِّر فاعلم أن هناك تكرُّر، أي جريان شيء، ما معنى (خَبَب)؟ المشي الذي فيه التتابع. عندما نقول (ضَّرر) فإذًا هو مُتكرِّر، شيء يؤذي فيُتعب النفس في تكررها. هذا من جمال العربية ومن سرها.

قوله -سبحانه تعالى-: {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء} هذا يؤكد ما قلناه سابقًا؛ أنه إذا جاءت كلمة (السماوات) فقد تدل الهيكل المخلوق مقابل الأرض، وقد تدل على العُلُوّ. لكن لا يمكن أن يأتي الفعل النازل من السماء إلا بنسبته إلى كلمة (السماء) وليس السماوات. لا يوجد في القرآن أنه (أنزل من السماوات ماءً). لكن إذا نُسب الفعل كنزول المطر فإنه يُنسب إلى السماء {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ}. فقوله -سبحانه وتعالى-: {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا} واضح أنه أنزلها من العُلُوّ، لا كما يقول بعض الناس من السماء أي من الهيكل المخلوق مما يقابل الأرض.

مدرارًا دلالة التكرار والكثرة. ويُقال دَرَّ الضِّرعُ أي حلب وأنزل ما فيه، ودرَّ تذهب إلى غير الماء، كقوله: هذا درَّ مالًا، يجوز هذا في اللغة ولا بأس به.

قال -سبحانه وتعالى-: {وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ}.

لماذا فرّق بينهما؟ بين {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء} و{وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ} وكلاهما دلَّ على الماء؟ إنما أراد هنا التعبير عن الأنهار بكثرة الثمار والبساتين والحدائق. فقوله: {وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ}؛ لأن الأنهار دلالة على البساتين وعطاء الثمار وغير ذلك كما حدث مع {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ}.

كما يقول المفسرون هنا الله -عز وجل- ذكر ثلاثة أمور دالة على منّة العطاء والدوام والفتنة. أولًا التمكين؛ عندهم قوة يستطيعون أن يدافعوا عنها وهي دلالة على الأمن، عندهم ما يتمكَّنون به من مُصانعة غيرهم أو

مدافعة غيرهم أو غلبة غيرهم. والله أنزل عليهم الماء المدرار من السماء الذي لم ينقطع دلالة على تواصل الخير عليهم، ثم بيّن أن ما حصل عليه هذا الماء أنه أجرى لهم الأنهار فحصلت لهم الثمار الكثيرة. فماذا بقي لهم؟! النتيجة قال :{فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}.

انظر إلى قوله:{بِذُنُوبِهِمْ} هذه مهمة جدًا، قال الله -عز وجل-: {بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، هذا كله مما يدل على ما يُسمى **كفر المآل من خلال العمل**، -وهذا شرحناه لا أريد أن أعود إليه-. فقوله:{فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}، وقوله: {بِذُنُوبِهِمْ} دلّ على أنهم فوق كفرهم فيما ذُكر -سبحانه وتعالى- فيما تقدَّم من الإعراض والتكذيب ثم الاستهزاء. هنا صارت لهم ذنوب.

ولذلك قال الله -سبحانه وتعالى-: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ** فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}، وهذا فيه تنبيه، يقول ابن القيم: "**من أعظم الفقه أن تعرف هذا الحديث أين هو في الآية**"، من أعظم الفقه أن تشتق الحديث من القرآن. المقصود بالحديث كلام النبي ﷺ. فإن بعض أهل العلم وهذا كلام الشاطبي -وبعضهم ناقش فيها لكن الأصل صحيح- أن **جميع السنة مصدرها القرآن**، فهمها مَن فهمها وجهلها مَن جهلها. هناك ما تستطيع أن تعيده، وأشياء لا تستطيع أن تُعيدها.

ابن عباس قال لم أجد صلاة الضحى في القرآن، أي أنه كان يبحث عن صلاة الضحى السنة في القرآن، ولم يكتفِ أنه جاءت بها السنة وهذا من فقهه، يريد أن يستبق من أجل أن يفهم المسألة من القرآن. لذلك هناك جهل في هذه الأيام؛ يزعم أناس اتِّباعًا لأن حزم واتباعًا لبعض المشايخ اليوم -بدون ذكر أسماء-، يقولون: "القرآن والسنة معًا"، وهذا خطأ، هذا فقه بعيد عن الصحابة ومن أكبر الأخطاء التي ابتُلينا فيها في هذا العصر، ومنعتنا من أن نركض في مضمار الرجال والفقه العظيم. لو رجعتم إلى السلف الصالح وارجعوا إلى مصدر عظيم في هذا، كتاب (الفقيه والمتفقِّه) للخطيب البغدادي.

الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين من تابعي التابعين يقولون دائمًا: "القرآن ثم السنة"، وليس معًا. هذا له فائدة تربوية، أن تُعلِّم الواحد أن يأخذ الفقه من شيء سهل هذه تبدأ بها في الابتداء، أما أن تُربّيه أن يأخذ الفقه من شيء أعظم هذه تربية لك أن تمارس الفقه بطريقة صحيحة. وهذا من تربيتك أن القرآن ليس كما يقول الجَهَلة كتاب عمومات.

هاتان قضيتان، **القضية الأولى** يجب أن **تُربّي الأمة كما تربَّى الصحابة**، أولًا فقهوا القرآن فكانوا يذهبون إلى السنة، فالنبي ﷺ علمهم أن يذهبوا إلى القرآن فذهبوا إليه فجاهدوا فيه، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، فتح القرآن عليهم مغاليق العلوم وأعطاهم الله من عظائم العلوم ما تعجز عنها الأمم التالية لهم أو الأمم السابقة لهم. لأنهم ذهبوا إلى القرآن مع وجود المواد التي يستنبطون منها كاللغة والتقوى والعقل السديد والقواعد التي يأخذونها من النبي ﷺ، فهذا أمر تربوي.

ثانيًا إن هذا أمر نفسي، **لا يجوز أن تضع مع هذا القرآن شيئًا يعادله مع أن المصدر واحد**. لكن هناك فرق، مع أن هذا القرآن من الله والسنة من الله –هذا اعتقاد كل مسلم–، لكن يجب أن يبقى للقرآن قداسة عظيمة هي مصدر العلم والهدى التي تقطع هذه الكلمات المنتشرة الآن بأن القرآن "كلام عمومات ولا يوجد فيه تفصيلات"!.

عندما يأتي عالم ويقول: "أنا استدل بالدعاء الجماعي.."، هذا كلام علماء كبار، ابن القيم ذكره على جهة التعظيم له لأنه منسوب غيره.

{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ}، من الذي يدعو في هذه السورة؟ من في مشهد الدعاء؟ موسى –عليه السلام– فقط، فقال الله: {قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا}، من أين لهذا الفقيه أن يحتج على جواز الدعاء الجماعي؟ من قوله: {قَدْ أُجِيبَتْ **دَعْوَتُكُمَا**} الاثنان كانا يدعوان، مستحيل أن الاثنان يرفعان أيديهما يقولان نفس الكلام، وإنما واحد يدعو والآخر يؤمِّن.

لذلك ليس هناك شيء اسمه: "تفسير آيات الأحكام"؛ **لأن القرآن كله أحكام، حتى الأخبار في القرآن هي أحكام**، عندما يأتي واحد إلى قصة موسى -عليه السلام- مع المرأتين، هو يقول لهما لما جاء: {لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} هذه تأخذ منها فقه عمل المرأة في داخل أي مكان، هذا حكم مع أنه خبر، فهذه المرأة لا تعمل مُخالِطة للرجال ولم تخرج إلا للحاجة، ذلك بأنها قالت: {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} اعتذرت أنها خرجت بأن الرجل لا يستطيع أن يخرج، -وليس مرميًا في الدار زي السَّباط والمرأة تخرج لتقضي حاجات البيت عنه!-.

فلا يوجد شيء اسمه آيات الأحكام، القرآن كله أحكام؛ وأكبر دليل نحن لما قلنا (الحمد لله) في الأول قلنا هذا خبر لكنه في حقيقته أمر، فالخبر إنما هو أمر الله.

نرجع للنقطة التي كنا فيها ليس هناك شيء اسمه "القرآن مع سنة" هذا فقط اليوم الناس قالوه من أجل ألا يعودوا إلى القرآن، وإلا فالفقيه كل الفقيه هو الذي يرجع إلى القرآن فيعرف ما فيه، والقرآن فصَّله ربُّنا تفصيلًا. وكيف هذا تجده؟ هذا فن العابدين، وهذا فن العالمين، ابن عباس كان يقرأ ويريد أن يعرف، كما قرأ الشافعي لما سُئل عن الإجماع من أين جئت به؟ ماذا فعل؟ أسبوع كامل وهو يُردِّد القرآن، قرأه وأعاده حتى جاء إلى قوله: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}، هذه قراءة الوعي {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}؛ هذه الأذن الواعية.

فقال -ابن عباس-: "حتى وجدتها في قوله في سورة ص {بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} في ذكر تسبيح داود -عليه السلام، قال: {الْإِشْرَاقِ} فعَلِم أن للإشراق صلاة، هو قادر أن يقول السنة جاءت بها وينقطع، لكنه يريد أن يدخل في أهل القرآن، **وتذوُّق المعنى من القرآن مرتبة أعظم بكثير من مرتبة تذوق المعنى في السنة**؛ لأن هذا القرآن، في النهاية أمة القرآن.

السلف لم يوجد عندهم ذلك، أول من أحدَثها ابن حزم وسار عليها بعده من سار، وإلا فالأوائل لا يعرفون هذا الجمع بين القرآن والسنة في حال واحد، أولًا اذهب للقرآن تأمله، فإن لم تجد فاذهب للسنة، لم تجد أنت وإلا فهو موجود ولكن عدم الوِجدان لا يدل على عدم الوجود؛ واحد يبحث عن دينار مفقود سقط منه، هو بحث وما وجده، لكن هو موجود. فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود.

يكفي هذا، وإلا هذه مسألة طويلة ناقشتها في كتاب لي (حوار مع الكبار) وهذا الكتاب قبل عشرين سنة ناقشت فيه هذه المسألة أصوليًا وتربويًا، فهي مهمة جدًا. القرآن أولًا، يجب علينا أن نعيد الأمة إليه، ونعظِّمه في نفوسهم من أجل أن يبحثوا فيه، ويُدقِّقوا فيه، بعد ذلك تذهب للسنة.

طيب {فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ} قوله –سبحانه وتعالى-: {بِذُنُوبِهِمْ} على ماذا يدل؟ على أن هناك شيئًا آخر فوق الكفر، الكفر ماذا يُنتج؟ سلوكًا عاصيًا، سلوكًا مذنبًا. فهؤلاء انتشرت فيهم الذنوب، والذنوب كثيرة الله –عز وجل- نوَّع هلكة الأمم التي ذكرها لنا؛ نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط، ثم شعيب –عليهم السلام-، الله نوّع لنا أخبارهم في معصيتهم، فلم يكن عندهم فقط الكفر بالله، كان عندهم كفر بالله وكان عندهم معاصٍ أخرى كقوم لوط. أنا تأملت القرآن كله ورجعت لهذه المسألة، لم أرَ قط في القرآن ذِكر كُفر قوم لوط، كلمة (كفر) أي تعلقها بالإيمان، ولم أرَ في كلام لوط في كل القرآن أنه دعاهم للإيمان أبدًا، هذا القرآن بين أيديكم. رجعت لهذه المسألة في القرآن لأرى هل دعاهم؟ لأن نوح –عليه السلام-: "آمنوا بالله"، وشعيب: "آمنوا بالله"، وهكذا. لوط –عليه السلام- لم يُذكر قط في دعوته الدعوة للإيمان، فقط المعصية التي اقترفوها.

وهنا أفتح قوسًا مهم جدًا، **من أصعب ما يلاقي الداعي إلى الله اختلاط الحق في العالم المطلق بالعالم النسبي**؛ ولذلك أصعب الأنبياء دعوة إلى الله هو موسى –عليه السلام- قبل نبينا محمد ﷺ؛ لأنه جاء إلى فرعون بحق مطلق وهو حق الله، وجاء بحق نسبي وهو حق بني إسرائيل، وهذه يكفي أنها تهمة، هنا المشكلة، كيف يستطيع الداعي أن يُخلِّص شائبة مصلحته من الدعوة التي يدعو فيها إلى الله؟ لا يستطيع، يعني من السهل جدًا أن يقولوا له: أنت تستغل الدين من أجل مصالحك؛ ولذلك هم قالوا له كما في سورة يونس: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ}؛ جئتم لتأخذوا الحكم منا،

مقصدكم هو أن تسلبونا السلطة، هذا قولهم لأنه في الحقيقة هو يدعوهم {وأن أَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} فهو يطلب أن يُرسل بني إسرائيل معه، يدعوه إلى الله، إلى التوحيد، وهو يطالبهم كذلك بأن يُخرج ويُعتق هؤلاء المظلومين من تحت سلطته وإمرته وملكه. وهذا شاقٌّ على الداعية. وهذه مسألة تحتاج إلى بسط.

فقوله —سبحانه وتعالى-: {فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}؛ دلّ على أن هذا الكفر قد أنتج معاصٍ، والكفر قد يُنتج معاصٍ والمعاصي قد تُنتج كفرًا. الحال بهما كحال القلب مع الشرايين، مين الذي يحتاج للآخر هل تستطيع أن تُجيب؟ لا، القلب يمدُّ الشرايين بالدم، والشرايين تمدُّ القلب بالدم. فالكفر قد ينتُج بسبب المعاصي -كما رأينا وكذلك- الكفر قد يُنتج المعاصي؛ عندما يرفض المرء حكم الله فإنه حينئذ لا بد أن تجتاحه وتجتاله الشياطين، يصبح تبعًا لهواه ويُنتج من المعاصي ما يُنتج.

كما هو حال العلمانية اليوم، فإنها في بداية الأمر كفرت بالله وذهبت إلى نفسها لتُنتج القوانين والشرائع، أجازوا جواز المثليّين، أحلوا الربا، أجازوا الزنا، وعشرة الرجال مع النساء خارج إطار الزوجية. وهكذا كما ترون المعاصي هو الذي أنتجها هو كفرهم بالله —عز وجل-.

فلا تسأل من الذي أنتج الثاني، هذا قد ينتج هذا، وهذا قد ينتج الأول الذي سبقه. قوله تعالى: {فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ} المعاصي سبيل للهلاك، ويجب على الأمة أن تعرف هذا، أنه **كلما انتشرت المعاصي في الأمم كانت سببًا للهلاك**.

ونعود إلى ما ذكرناه سابقًا، إن أعظم ما يحجب يد الله الفاعلة في الوجود هو إجراؤه على السنة، يقولون: "غلط في التطبيق، هناك ظلم.." والحقيقة أن المعصية لا تُنتج إلا هذا، المعصية في داخلها وفي ذاتها يوجد الهلاك، يوجد الدمار، لا يمكن أن يكون غير ذلك.

قوله: {وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ}، هنا سُنَّة يجب أن تحفظوها إنه **من سنن الله أن الله لا يدمر الحضارات إلا بقيام حضارات بديلة عنها**، هذه دائمًا في القرآن: {وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ}، {وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}، {وَأَوْرَثْنَاهَا بني إسرائيل}، وهكذا. فإن من سنن الله في هلاك الأمم أن لا يبقي الهلاك في العراء، قال —

سبحانه وتعالى-: {فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا}. يمكن أن تهلك هذه ولا يقوم البديل فيها، ولكن لا بد في الوجود من بديل، (قرنًا آخر).

ممكن واحد يسأل: لماذا استخدم كلمة (قرن) هنا؟ بلا شك أن القرن فيه القوة في مفهوم الناس عندما يُطلَق. فالله أنشأ قرنًا، حضارة، أمة أخرى. لا يمكن أن تهلك الأمة حتى تأتي حضارة تنافسها وتقوم بدلًا منها، وهذا مما يقع فيه **سنة التداول**، هذه سنة لله. سنة التداول الآن بين الشمال والجنوب، الشمال أوروبا والجنوب الإسلام، هذه سنة واقعة لا بد من التداول، وكما أنهم ورثوا عنا قوتنا، وسلطاننا، وملكنا، وتمكيننا، سيأتي يوم وتنقلب الآية وهكذا.

ولكن لما كانت سنة الله -عز وجل- في أن الروم ذات القرون وأن الروم لا مَهلك لها- وستبقى وكما قال الرسول ﷺ في حديث المستورِد بن شداد في مسلم :(تقوم الساعة والروم أكثر الناس)[٥٩]، علامة أن التداول بيننا وبينهم سيبقى إلى نهاية الساعة، وإلى نهاية هذا العالم، وحينئذٍ يكون أهل الحق ضُعفاء (لا تقومُ السَّاعةُ على أحدٍ يقول: اللَّهُ، اللَّهُ). الحق -كما أسميناه- عندما يأتي المهدي وينتصر أهل الإسلام هذه صحوة الموت، لكن لا تتصوروها عودة كما يتصورها البعض فيما يرونها فيما حققه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- من كسر الإمبراطوريات ودمارها وإزالتها، وإنما هي صحوة الموت قبل الساعة.

القصد أن الله -عز وجل- لا يُهلك أمة ولا حضارة حتى يُنشئ البديل، هذه سنة. وحينئذٍ يأتي دور **الوراثة**، ما معنى دور الوراثة؟ لا بد أن تُحضِّر نفسك. النبي يقول: (اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِك منَ العَجزِ والكَسَلِ)[٦٠] ما الفرق بينهما؟ العجز عدم وجود القدرة حتى لو وُجِدت الإرادة، يعني: واحد عنده إرادة أن يقوم لكن مسكين مشلول. لكن الكسول عنده القدرة لكن ليس عنده الإرادة، عنده قدرة ليُحضر كأس ماء لكنه كسول ليس عنده إرادة. **فعلى الأمم إذا أرادت الوراثة أن تزيل عجزها من خلال زوال كسلها**؛ لأن العجز كيف يحصل؟ عجزنا اليوم في غلبة أعدائنا كيف حصل؟ من خلال قرون الكسل؛ عجزنا اليوم ورثناه من خلال قرون

---

[٥٩] صحيح مسلم: (٢٨٩٨).

[٦٠] صحيح البخاري: (٦٣٦٧).

الكسل التي عاشتها الأمة، ولذلك إذا أردت أن تَرِث لا بد أن تُحضِّر، لا بد أن تكون جاهزًا للوراثة، في أي لحظة يمكن أن تتم الوراثة.

ولذلك القرآن في سورة الأنعام يقول: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ}، ماذا قال بعدها؟ {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ}، (وما يُشعركم) يعني لا تأتي الآية على ما تُريدها اليوم، ولا على ما تُرتب أنت، تريدها بعد ساعة، القرآن يأتي بالآيات في لحظة فيقذفها لهم وتمر عليهم وهم لا يشعرون، {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}. لهم آيات لا يشعرون بها، {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ}؛ فإذا أراد الله –عز وجل– هلكة أمة ودمارها من أجل أن ينشئ أمة فإنه لا يقول: سأُهلِكُكم فتحضَّروا، هذا يُوجب على الأمة الوارثة أن تكون جاهزة لوراثة الأمة الذاهبة. لذلك يجب على الأمة أن تسعى، هذا يعطي أولًا عدم اليأس، ليس هناك قنوط، التداول موجود. وكذلك أن الله —عز وجل سبحانه وتعالى– لا يُعطي أحدًا ورقة اطمئنان، وأن الناس الذين يتحضَّرون هم الذين يستحقِّون الوراثة، وأما بالكسل فلا يستحق به الوراثة.

قال: {وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ}، هذه نقطة مهمة في نشوء الحضارات والأمم هذه نقطة مهمة يجب أن تبقى في أذهانكم **أن الله –عز وجل– لا يُخلي الوجود من أمة غالبة**، من أمة قوية، من أمة وارثة لا يُخلي الوجود بها، فلا بد أن تكون.

قال تعالى: {وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ}، وانظر هنا كل الفعل منسوب إلى الله؛ أجرى السماء، مكَّنهم منسوب، أهلكهم، أنشأ الأمة، كله منسوب إلى الله، وكله في عالم السنن.

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا} وهذه موعظة يُطلقها القرآن في عامته أن الله يُدمِّر، ويُهلك ويُنشئ آخرين بسنن –تقدَّم شيء يسير عنها–. وهي من قضايا القرآن المهمة؛ لأن النذارة والهروب من عذاب الله مَهمة الأنبياء، أن يُنذر قومه من عذاب الدنيا والدمار، هذه مهمة من مهمات القرآن، وهي مهمة من مهمات الأنبياء.

من أعظم مهمات القرآن قضية الرسالة والرسول، وهذه القضية عليها الكثير من الخصومات بين القرآن وبين أعدائه، **أول قضية عليها الخصومة هي قضية بشرية الرسول**، وهذا ضمن مطلبهم في الآيات. **ثانيًا: منزلة الرسول وحالته**؛ من هو؟ كيف هو؟ كما يقولون: {لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} هذه قضية من القضايا التي طرحوها. قضية ما معه من أدلة الحق. هذه قضايا كلها تتعلَّق بموضوع الرسول وصراع الكافرين مع الأنبياء فيها.

ولذلك نستطيع أن تقول بأن **هذه القضية تتخلَّل سورة الأنعام كلها**، وهي قضية الرسالة والرسول، وسنرى كما في قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ}، وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} الذي يفتري على الله، الذي يكذب على الله ما هي نتيجته؟ وهكذا، فقضية الرسول من أعظم قضايا سورة الأنعام.

ومن أعظم قضاياها بعد قضية التوحيد هي قضية المثال النبوي، **وشرط الرسول ليتحقَّق البلاغ والمثال أن يكون من جنس من أُرسِل إليهم**، لماذا هم يطلبون الملائكة؟ {لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ}، الله يُقرر في كتابه –جلَّ في عُلاه– بأن حُجَجهم الباطلة لا تنتهي ولا تنقطع، لو قلنا لقالوا، فهذه حُجج لا تنتهي، ولذلك مما قاله العلماء لا ينبغي أن تُلاحِق المبتَدِع، وصاحب الهوى في حُججه؛ لأنه لا ينتهي، وخاصة عند انتشار الجهل. العالم إذا رفعت له صور وعلامات العلم ارتدع، وعلم أنه في المقام الخطأ فيتراجع، لكن صاحب الهوى يُتابع هواه ويمشي معه إلى الـمُنزَلَق إلى جهنم. ولذلك محمد بن الحسن الشيباني مما يُذكَر عنه، قال: "أنا لا أُناظِر الرجل لأقطع كلامه"، قالوا: وإلا وكيف تناظره؟ قال: "أُناظِرَه حتى يُجَنّ"، قالوا: وكيف يُجَنّ؟ قال: "أُناظِرَه حتى يقول ما لم يقُله أحد"، يعني يبقى يُلزمه فإذا كان صاحب هوى سيضطر بعد ذلك في نهاية الكلام أن يقول كلامًا لا يُمكن، فسيبقى معه حتى يُجَنّ، بأن يقول ما لم يقُله أحد.

فالقرآن يقطع حججهم، هذه طريقة، يقول انظروا واجمعوا أنا أتركها لكم، لما يقول القرآن في مواطن كثيرة: {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} هذه موجودو في سورة يونس، وفي سورة يس، وفي سورة النمل، {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم}، موجودة في سورة سبأ

{وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ}.

انظر إلى هذا السؤال، {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ} كيف يتنوَّع الخطاب؟ كله ليس إجابة لهم ولكن تَبْكيتًا لهم وتحذيرًا لهم؛ لأنه لا ينفع لهذه النفوس إلا هذا الخطاب. هم يقولون: {مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} هذا السؤال هو سؤال تعجيزي، لأن القرآن يُقرر الحقيقة ويُثبتها وهي قضية: {وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ} يعني هكذا ستخرُج، وهكذا ستقوم الساعة، {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ} قضية الساعة مهمة. وفي سورة الرعد يُقرر أن الكفر بالساعة هو كفرٌ بالله، قالوا: {أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} ماذا قال؟ {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ}، فجعل الكفر بالساعة كفرًا بالله -عز وجل-.

فبماذا يُجيبهم {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}؟ {قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}. {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ} سورة الأنبياء، لا يُجيبهم لماذا؟ لأن هذا السؤال غلط، فهو لا يوافقهم، وهذا تعليم للعاقل أن صاحب الهوى لا يُجادَل، ولا يُتابَع على كل ما يقول. {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} لا يجيبهم. فالقرآن في جداله مع الآخرين يُقرر حقائق.

لذلك هم لما يطلبون الملك أجل أن يحصُل عدم الاتباع، لأنه لو أرسل الله مَلَكًا لانقطع معنى الاتباع والامتثال، إذا كان مجرد اسم (رسول) حقَّق بعض هذا المعنى عند الذي يجهل؛ ماذا قال الثلاثة لما جاءوا على بيت النبي ﷺ وسألوا عن عبادته؟ تقالُّوها، واحتجُّوا أنه نبي مُرسَل، الله غفر له، فلا ضرورة أن يجتهد في العبادة لأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإذا كان مجرد أنه نبي يُحصِّل بعض هذا المعنى، فكيف لو نزل ملك؟ فحينئذ لو جرى عليه أو جرى منه ما يجري من الأمور لاحتجَّ المُبطِل: أنني لا أستطيع أن أفعلها ولستُ أهلًا لها لأنه ملك!

ولذلك في أول سورة الأنبياء قال: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}، ولذلك قال بعدها: {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ}، وفي سورة الفرقان قال عن الأنبياء: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا

إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}، وهذا دليل على أن المشي في الأسواق ليس عيبًا لأن الأنبياء يفعلونه، -واحد يقول: المشي في الأسواق هذا لا يليق بالمشايخ ويتكبَّر بعدم النزول والمشي، الأنبياء كانوا يمشون ويحملون أمتعتهم ويمشون في الأسواق إلى آخره-.

القصد {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا} هذه {**جَسَدًا**} قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره: "هو المصدر"، وهو الخلقة التي خُلق عليها، فالمقصود: وما جعلناهم خِلْقَةً لا يأكلون الطعام. بل جعلهم خِلقة يأكلون الطعام.

فإذًا هذه نستفيد منها أنهم يُريدون إسقاط التكليف، هم في البداية يقولون: نريد ملكًا حتى نعرف أنك صادق. لكن بالنتيجة هي باطل، لذلك القرآن قال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} يعني: لو أردنا لأنزلناه مَلَكًا لكن بصورة رجل؛ ليتحقَّق البلاغ، وتتحقق النذارة.

الأسئلة:

- **يقول: السنة قاضية على القرآن.**

الجواب: هذه كلمة رواها الإمام الدَّارِمي في سننه عن ميمون بن مَهْران بسند صحيح، وهي كلمة استثقلها. قال: "السنة قاضية على القرآن" واستثقلها ورفضها الإمام أحمد. كما ترى (قاضية) هو ما أراد هذا، ولكن أراد (مُفسِّرة). بمعنى لو أن الناس اختلفوا في تفسير آية على وجهٍ ما، ما الذي يفصل في الحق؟ هي ما قضت على القرآن، هي قضت على المتخاصمين في القرآن، فكأنها حدَّدت المعنى من القرآن، وهذا فيه معنى القضاء، بالرغم من أن كلمة قضاء فيها استعلاء. ومن هنا كرِهها الإمام أحمد وما رضي هذه الكلمة. ولذلك الصواب: أن السنة شارحة.

وهناك من يقول غير هذا، ولكن أنا أعتقد بالذي قلته لكم، وإن شاء الله فيه الكفاية. أن القرآن أولًا وإذا أردنا أن نُحيِيَ الأمة فلا بد أن نعيدها للقرآن، ونُبطِل هذه الموانع، هناك موانع باطلة وأهواء وجهل، مثل الذي يأتي

يقول: "نحن علينا أن نترك المذاهب، المذاهب لا تُفيدنا هذه الأيام"، هذا حقه أن يُحبَس، لأن بعض الناس عنده شر بكلامه أكثر من شر اللص، فاللص يُحبَس، والمفسد يُحبَس، وهذا يُحبَس، والذي يقول: "لا قيمة للمذاهب الإسلامية"، والمقصود الشافعي وغيره. هذا جاهل لا يقرأ، ولا يعرف فقههم.

يأتي واحد يقول: "أصلًا فقه القدماء لا يلزمنا اليوم، اليوم عندنا مشاكل كثيرة لا ينفعها"، هذا ما قرأ شيئًا للأئمة، هذا جاهل!، وأغلب الذين يُطلقون هذه الإطلاقات لا يقرؤون.

قاعدة الأستاذ عبد السلام هارون –رحمه الله– قاعدة عظيمة احفظوها، يقول: "**الاجتهاد يبدأ بقتل الماضي بحثًا**". قبل أن تجتهد حتى تأتي بشيء وتبني يجب أن تبني على أُسُس، أُسُسك هي تُراث أمتك، أعظم هذا التراث العظيم لنا الذي ورثناه هو القرآن، يجب أن نُزيل عنه الغشاوة. هذه الموانع التي توضَع أمام القرآن هذه كلها موانع يجب أن تزول، يجب أن نُزيل الموانع، هذه الكلمات التي تُقال: "القرآن كتاب عمومات، القرآن لا يُفصِّل الدعوة"..

أختم بكلمة: من أعظم الناس عقلًا في الوجود؟ يعني لو أن البشرية خَلَت من الرسالة ومن الوحي، فاجتمعت البشرية في صعيد واحد، وطلبوا منهم رأيًا في أمرٍ ما، من يكون أسد الناس رأيًا بالنسبة إلى خِلقة الله فيه. من هو؟ رسول الله. هذا لا يجادل فيه أحد، هل هناك أعقل من رسولنا؟ هل هناك أحكم منه؟ هل هناك أتقن للرأي منه؟ ومع ذلك ربنا –سبحانه وتعالى– يقول له: {اتَّبِعْ مَا يُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، جرَّدَه من أن يُعمِل عقله في موضوع الدعوة وإقامة الدين والشريعة وقال له: {اتَّبِعْ مَا يُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} اتَّبع هذا الذي يُوحي إليه، اتبع هذا القرآن.

والحمد لله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

الدرس الثاني عشر

بسم الله الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

كنا مع قوله تعالى: {**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**}.

مِن تذوُّقنا للكلام أنّ (كَتَب) أو (الكتاب) تجمع معنى قرأ والقراءة، مع أن القراءة تقع على الكتاب، لكنّ المعنى الذهني لقرأ وكتب واحد عند العرب؛ لأن كتب بمعنى جمع، ومنه أُخذت (الكتيبة)، يُقال الكتيبة لأن فيها اجتماع أشخاص، فكَتَبَ جَمَعَ، لأنه يجمع حرفًا وراء حرف وكلمة وراء كلمة، وقرأ بمعنى جمع ومنه أُخذت (القُرء) لأنه يجتمع فيه دم الحيض، فقرأ مادّتها المعنويَّة نفس مادّة معنى كتب. والقراءة تقطع على الكتابة وهذا من شرف هذه اللغة، أن الفعل يقع متّحدًا بين شيئين فيكون المعنى واحدًا ويُعبَّر عنه بلفظين كلّ منهما يدلّ على الحالة التي هو فيها. فكتب لما يقع من الكتابة من العلم، وقرأ تقع لما يقع من الكتابة على الفعل.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ}، أريد عند كلمة (قرطاس) أن أفتح بابًا مهمًّا جدًّا، وهي ما تسمى اليوم "**الشخصيّة**"، كلمة لم تكن تُستخدم عند الأوائل لكن لا بأس أن نستخدمها اليوم للتعبير عن سمات الإنسان، الشخصية أُخذت من الشخص وهو الشّاخص أي الشيء المرتفع، لأن الإنسان إذا ارتفع بدا شخصه فهو شاخص. ولكن اليوم صارت تُعبّر عن مادّته الظاهرة ومادّته الباطنة، شخصيته بمعنى مكوّناته المادية في بدنه، ومكوناته العلمية والذهنية والنفسيّة. ويجوز أن نستخدم هذا اللفظ عند وصفنا للسورة.

القرآن في مُجمله له معنى عام تستطيع أن تُدرك مراميه، **وكذلك السورة لها شخصيّتها**، وعليك أن تتذوّق هذا بجمع ما تقرأ من السورة الواحدة. السورة الواحدة لها شخصيّة، هذا مدخل لنعلم كيف تُرتّب الكلام في السورة

الواحدة ليبدو لك متناسقًا، وهذا من مفاتيح فهمنا لكلام ربنا وتمتُّعنا به وتذوّقنا له، وانفعالاتِ إراداتنا للإقبال على ما يأمر والانتهاء عمّا نهى، هذا.

كلمة (يعدلون) هنا تكرّرت مرة ثانية في سورة الأنعام. وكلمة (قرطاس) معناها أولًا؛ قَرْطَسَ بمعنى قَطَعَ، والكتاب يُسمّى قرطاسًا لأنه يُقطَّع، قديمًا كان يوضع الكتاب بأن يأتوا بالورق فيقطّعونه ويجمعونه، فيُسمّى كتابًا لما يُجمع أرواقه بعضها فوق بعض، ولكن قبل عمليّة جمع أوراقه تُقطّع أوراقه، فتقطيع الأوراق يُسمى القرطاس، لأنها من فعل قرطس الشيء أي قطعه.

وأنا أعطيكم منفذًا من منافذ اللغة العربية سريع، وهذا أغلبيّ وليس كليًّا، إذا جئت إلى كلمة وليس لديك معجم من معاجم اللغة مثل (لسان العرب)، (القاموس المحيط)، وذهب عنك معنى كلمة قرِّبها إلى ما يُمكن مما تعرفه من الكلمات في التركيب تكون قريبة من المعنى، وهذا من شرف هذه اللغة. فلو سألتك ما معنى واصبًا؟ {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا}؟ قرّبها ناصبًا أقرب ما تكون، الصاد يجب أن تُبقيها لأنها مقصودة فتقرّبها واصبًا إلى ناصبًا، فالنّاصب هو القائم، نصبتُ الشيء أقمته فواصب قائم، وهكذا. هذه تستطيع أن تستخدمها أن تُقارب هذا اللفظ بلفظ تعرفه فيجتمع كمعنى إن غاب عنك، وإلا فالأصل أن تذهب إلى المعاجم.

قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ} أي أنه جُمع جمعًا حتى صار على هيئة ما يُعرف، وقال بعضهم: القرطاس هو الذي يُجمع فيه الكتاب أي الدَّفتَّان، والصواب أنه نفس الكتاب، ولكنه قد يكون مكتوبًا في أوراق متناثرة، ولكن أن ينزل في قرطاس أن ينزل مجموعًا مُقطّعًا مُرتّبًا يستطيعون أن يقولوا هو كتاب ولا ينكرونه.

نرجع إلى قضية شخصية السورة، كلمة (يعدلون) نرجع إليها سنجدها في آية (١٥٠) من سورة الأنعام مرة أخرى تتكرّر، {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} لما يأتي الحديث في هذه السورة وهو حديث مهم جدًّا عن التشريع، هذه السورة تؤصّل لتوحيد الشرائع وتوحيد القضاء وتوحيد التحاكم.

هذه السورة تؤصِّل هذا التوحيد الذي يجهله كثير من الناس، يظنّ أن توحيد الشرائع هذا لا يتعلق به إسلام ولا كفر، {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا **حَرَّمْنَا** مِنْ شَيْءٍ} فجعل هنا ما يسمى "دليل الاقتران"؛ لا يُضاف الشي إلا إلى معناه أو إلى ما يُحكم به عليه، كقوله -عز وجل-: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} ماذا قال العلماء؟ إذا زِيْدَ شيء على الكفر فهو من الكفر، لا يُزاد الشيء على غير معناه.

فلما قال سبحانه: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} فدل على أن تحريمهم على خلاف الشريعة هو شرك وكفر، لأنه أُلحق به. ثم قال: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ **يَعْدِلُونَ**} هذه رأيناها في مطلع السورة، كأنت السِّمات للسورة واحدة، الكلمات تُستعمل كأنها واحدة؛ لأن السورة تُشكِّل شخصية واحدة، هذا عليك أن تفهمه، أي واحد تقول له: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أين يذهب؟ إلى سورة الرحمن، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} إلى أين تذهب؟ إلى سورة القمر.

فالسورة لها سمات، تُعرف سماتها أولًا بالطّول والقِصر، مثلًا سورة المائدة آياتها عددها قليل بالرغم من أنها تعادل جزءًا تقريبًا. طيب من أين جاءوا الجزء؟ العلماء أنكروا هذه التجزئة الموجودة اليوم، لم يقبلوها، أول من فعلها هو الحجّاج، هو أول من جزّأ القرآن هذا الأجزاء واحد إلى ثلاثين، جمع القرّاء وأحضر لهم آلاف الحبات من نوى التمر، قال لهم: عدُّوا حروف المصحف، ثم قال قسّموها، فقسموها إلى ثلاثين بعد أخذ هذه النَّوى وتقسيمها، فوقعت أخطاء فهم لا يهتمون بالمعاني المهم عندهم الحروف، إذا انتهى الحرف وضعوا جزءًا.

وهذا خطأ، لذلك العلماء المحقِّقون من القرّاء لم يرضوا هذه القِسمة، ولهم قسمة أخرى غير مشتهرة، وهذه نصيحة للأئمة أن لا يتقيّدوا بهذا الأمر، بل عليهم أن يتقيّدوا بالمعاني، يعني مثلًا الجزء الثاني، نصف الجزء الثاني عند قوله: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ} طيب هذه تابعه لقضية الحج، ومع ذلك تجد الإمام المسكين يقف لأنه يقف على رأس الجزء أو على رأس الحزب، ويضيّع المعنى رغم أن هذه تابعة لما قبلها، وهذا خطأ العلماء لا يرضونه.

فكما رأينا السورة تُعرف بقصرها وطولها، هذه سورة قصيرة، فسورة المائدة كما قلت لكم وأنت تقرأ فيها تجد الآيات طويلة، ولذلك يسهُل حِفظها، وأنا تخيَّلت وأنا أقرأ هذه السورة وأتفكر في قراءة خاصة لها، فتصورت في وقت من الأوقات أني حين أخرج من المائدة كأنني كنتُ في مساحة واسعة من لون واحد، يعني كأنك أمام حديقة تمتدّ طولًا فأنت مرتاح فيها، وبعد أن تدخل في سورة الأنعام وإذا أنت في حديقة تُقطَّع أجزاءً صغيرة، هي تُشكِّل معالم كليّة ولكنها على أجزاء، ولذلك أغلب القرّاء عندهم خوف من سورة الأنعام؛ لأنها في الحقيقة انتقال من سورة المائدة المريحة إلى سورة الأنعام المقطَّعة والتي تحتاج إلى تتابع، فهذا مِن سمات السورة.

من سمات السورة ثالثًا وهي ما سمّاه علماؤنا **الفاصلة القرآنية**، ما هي الفاصلة القرآنية؟ انظر إليها: يكسبون، يعدلون، يمترون، فالقرآن يحافظ على هذا. بعض أهل العلم رأى أن اختيار بعض الكلمات دون بعض الكلمات لمراعاة الفاصلة، هذا كلام ضعيف لكنه مقبول في هذا الجانب، يعني مثلًا: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ} ما قال: "وطور سيناء"، بالرغم من أنه في سورة المؤمنون: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ}، هذا رأي بعض العلماء كالسيوطي قال: مراعاة للفاصلة. إذًا القرآن يريد أن يحافظ على سمت السورة، ومرات لا يراعيها لأسباب، هنا يأتي بسمة أخرى على غير النّسق الذي عليه السورة، هذا يجب عليك أن تتفكَّر فيه وتتأمله فله أسباب.

كل خَرْق لقاعدة له معانٍ، شخصية هذه السورة، مِن سمات هذه السورة الكلمات، مثل في سورة يوسف عندما يُذكر في الحكم: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} هنا على لسان يوسف، والحكم لله على لسان أبيه يعقوب –عليهما السلام– فيكون الحكم واحدًا. هذا يجعلك تفسّر الآية تفسيرًا صحيحًا لتضبط السورة.

عندما يقول القرآن على لسان يعقوب: {إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ}، ثم تُختم السورة بـ{حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ}؛ إذًا القرآن يقول ليس الذي استيأس الرسل اليأس الذي هو الكفر، لأنه الآية تقدّم تقول على لسان يعقوب: {إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}، كيف يقول: يستيئس الرسل؟ إذًا "استيئس الرسل" هو موضوع آخر عليك أن تبحث عنه، فهذا من سمات السورة.

انظر إلى سورة الروم قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ}، وقبلها قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ}، سكت الحديث عن يوم القيامة حتى جاء في آخرها: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}، وهذا ضروري للحُفَّاظ، الحفّاظ ينتفعون به لأنه **من أسباب تغاير الألفاظ إعانة الحفّاظ**.

هذا من أوائل ما يجب أن يعتني به، لماذا قال في سورة الأعراف: {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} وفي سورة الشعراء: {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} هناك سبب علمي، لكن سبب كذلك من أجل القراءة، فتعرف أن هذه في الأعراف إذا حفظت، وهذه في الشعراء، هذا من إعانة الحفّاظ لأن القرآن يملأ الوجود، يملأ كل شيء، يملأ العلم، يملأ اللفظ، يملأ الحفظ، يملأ الحركة، يملأ الفعل، يملأ الاعتقاد، يملأ العين، وأنت تتمتّع فيه يا ابن آدم.

ومن هنا السورة لا تُقرأ من وجه واحد، بل من وجوه متعدّدة، كما أن اللفظ يُقرأ من وجوه متعدّدة.

فمن شخصية السورة أنك تجد أنها تتحدّث بألفاظ تُعيد في ذكرها إلى، انظروا إلى (قرطاس) في السورة اذهبوا بعد الانتهاء من ذكر قصة إبراهيم، قال: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ}؛ تقسّمونه، يجعلون التوراة مُقطَّعة لا يأخذونها مرة واحدة، يعطيه آيات ويحبس آيات الرجم، يعطيه آيات الرحمة ويحبس آيات العذاب، يعطيه آيات العذاب ويحبس آيات الرحمة، وهكذا قراطيس. وهذا مهم جدًّا في معرفتك لشخصية السورة، السورة لها شخصية مِزاج هذا يعرفه الحفّاظ، ويعرفه القرّاء.

انظروا إلى سورة الشورى هذا النغم المتردّد لكلمة (أولياء)، (ولي)، كيف تتناغم مع السورة كأنها تقصد أن تلفت نظرك إلى هذه الكلمة، افتح سورة الشورى وهي من الحواميم، الآية السادسة {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، انظر الآية التاسعة {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، أترك الباقي لكم، والمقصود انتبه إليها كيف موطنها.

ولما يأتي الموطن في معنى، هنا تكلمنا عن نَسَق اللفظ. أنت لو لم تكن حافظًا عندما يُخطئ الإمام تشعر أن هناك اهتزازًا في موسيقى اللفظ، والحفاظ يعرفون هذا. هذا نغم اللفظ. ثانيًا يأتي نغم المعنى من أجل أن تتكوَّن السورة، والقرآن يأتي ويُغاير من أجل أن يلفتك إلى المعنى.

انظر مثلًا إلى سورة الحج، عجيبة تتكرّر فيها: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ}، الكفار ومن يجادل الحق والمبطلون له والمعاندون الذين لا يريدونه، إما حالهم أن **يتّبع كل شيطان فهذا مُقلّد**. وإما {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى} **فهذا ليس مقلّدًا ولكن ليس عنده هداية**، فيريد أن يُخرج الهدى فيما يزعم من عقله.

وهذا مهم جدًّا أن (**شيطان) في القرآن كما في السنة تُطلق على الإنسي والجني**، ذكرنا هذا {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}. من أين كلمة شيطان؟ من الشَّطط، ومنه أُخذت كلمة الشّطّ، لأنه بعيد، والشطط هو البعد، فالشيطان لما كان بعيدًا عن الهدى بعيدًا عن الحق بعيدًا عن رحمة الله سُمّي شيطانًا. **أينما وجدت الألف والنون دلَّت على المبالغة وعلى عِظم ما تتحدّث عنه من الوصف**، مثل: الرحمن.

فهذا يتَّبع كل شيطان مريد، له إمام يُقلّده في الكفر، وذلك رجل ليس له إمام إلا هواه، ولكن ليس معه كتاب ولا هدى. إذًا استوعبت أنواع الكفر.

ثم تستوعب السورة أنواع الشرك في نفس صاحبها، هذا حديث سورة الحج عن الشرك باعتبار أحوال الناس مع العلم؛ هل هم مقلّدون أم هم شياطين بأنفسهم ليس لهم تقليد، هذا صنف وهذا صنف. لكن لما جاءت إلى جاءت إلى الشرك في نفس صاحبه قال: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}؛ إذًا الشرك يُقسم إلى قسمين: **قسم مستقرّ وقاعد عليه**، قال هذا هو الحق. وشرك آخر هو **شرك الحيرة**، كما تقول سورة الأنعام: {لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا} مرة مع هؤلاء ومرة مع هؤلاء، متردّد، فهذا حاله: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ} إما تخطفه الطير فتسير به يمنة ويسرة إلخ، أو تهوي به الريح فيستقر شركه. فذكرت لنا السورة هذا السياق.

فهمك وبحثك عن شخصية السورة يؤدي بك إلى الكشف عن هذه المعاني رغم أنفك.

هذه السورة عن ماذا تتحدث؟ تكلمنا عن طولها وقصرها، تكلمنا عن نغمها في طول الفاصل القرآني، تكلمنا عن ألفاظها، تكلمنا عن معانيها، هذه هي سمات السورة.

ومن إعجاز القرآن أنك لو أخذت الكلمة لما وجدت غيرها مناسبًا لهذا الموطن، ولو أخذت الآية لوحدها لكَفَتْك، يعني ألا ترون الخطباء والمدرسين يحتجُّون بآية؟ لا يضطرون إلى قول ما قبلها وما بعدها، فالآية تُعطي لهم الغذاء الكامل، هذا غذاء يناسبها، ويأتي غذاء كامل مناسب لما قبلها وما بعدها، ويأتي غذاء كامل يناسب السورة، ويأتي غذاء كامل يناسب موضع الآية من القرآن. ومن هنا لا يمكن لأحد أن يقف، **هذه بحار من العلم لا يتوقَّف أحد فيها**، وليس لها ساحل يستطيع أن يقول أنا انتهيت منها، فهذا أمر لا ينتهي.

هذا الذي فتح علي هو قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ}.

سورة أخرى تتحدث عن الرؤية، يقول سبحانه: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا} أي أُقفلت أبصارنا حتى أننا سَكِرنا، وقاعدة ابن جني أن **الكلمة الواحدة تدل على نفس المعنى**؛ سُكُر، وسُكّر، وسكَّر، كلها نفس المعنى لأنها كلها تدلّ على الإغلاق. لما الواحد يَسْكَر يُسكِّر مُخه، لذلك سُمّي الخمر بالغول، الذي أخذوه منا وسموه كحولًا، ثم رجع إلينا وسميناه كحولًا، وهو الأصل عنا اسمه (غول) وهم يعترفون في كتبهم أن كلمة الكحول كلمة عربية ولذلك {لَا فِيهَا غَوْلٌ} يعني يغتال العقل، من الاغتيال. فلما كانت الخمر تغتال العقل سميت غولًا.

واللغة تَبَع لقوة الأمة، كما يقول ابن حزم في كتابه (الإحكام): "**قوة لغة الأمة تبع لقوَّتها**"، الأمة القوية تجد لغتها قوية ومنتشرة، والحال يشهد عليه.

فالسُّكر هو اغتيال العقل، والتسكير سَكَّر العقل، طيب والسُّكَّر؟ التي في قوله –على الصواب– في سورة النحل: {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا} بعض المفسرين قال: من السُّكر، غلط غير صحيح. سَكَرًا من السُّكَّر أي الحلاوة؛ أولًا اللغة تقتضي هذا، لو قال: مما يُسكر لكان لها صياغة أخرى، لكن المعنى الذي يُبطل أن تكون

على السُّكر خلاف الصيغة التي تسمى بـ"التصريف" عند علمائنا، فإن الله لا يمتن بشيء ثم يحرّمه، لأنه ذكر {سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} من قبيل المنة، وذكرنا قاعدة: **إذا ذُكر شيء في القرآن على سبيل المِنّة يبقى على الحل**؛ لأن الله لا يمتن بشيء ثم يحرمه. وهذا السكر لأنك إذا أكلته ثم طربت له وأعجبك منعك وأقفل عليك أن تذهب لغيره.

فهؤلاء المشركون قال: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}؛ عيوننا أُغلقت وجاءنا هذيان ذهني، لكن هنا أكّد عليهم فقال: {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} ماذا بقي لهم؟ العين قد تُسحر، طيب اليد كيف يُزوَّر عليه ما تلمسه؟ لذلك قال: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ} لذلك ذكر: {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} ليتم قطع الحجة عليهم، وهذا ليس خطابًا لهم هذا خطاب لرسول الله ﷺ حتى يقطع الأمل من حُجَجِهم.

ولذلك قضية الآيات يتحدث عنها القرآن كثيرًا، أنا أريد أن أقف عندها لأنها ضرورة في حياتنا هذه أمام العلمانيين والزنادقة، هم الآن لا يصدِّقون الحق حتى يروا آثاره في الوجود، القرآن يقطع هذه القضية، يقول: لا تبحث عن إقناع الكافر، وإنما يُجادلك على سبيل العَنَت. والدليل أن الله -عز وجل- أجاب سؤال من سأله ولم يكن سؤاله على سبيل العَنَت؛ {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} قيل أنه يوشع، فهذا لم يسأل سؤال العنت، وكذلك الحواريّون لم يسألوا سؤال العَنَت، وكذلك إبراهيم -عليه السلام- ليطمئن قلبه فالله أجابه.

وأيها الإخوة الأحبة تعرفون عظمة رسول الله ﷺ بين بقية الأنبياء، وتعرفون عظمة الصحابة بين بقيَّة حواريّ الأنبياء بأنهم لم يطلبوا آيةً قطّ، من أعظم ما يدلّ على أن هذا النبي هو من أعظم الأنبياء أنه لم يطلب آية، وصبر وادَّخر دعاءه ليوم القيامة، للشفاعة العظمى، ولم يثبت أن صحابيًا من الصحابة العظماء طلب آية على صِدقه أبدًا. طلب صحابي قال: "حتى يصدقني قومي" لأن قومه يكذبونه، فالنبي دعا له فجاء النور على رأس سوطه، فقط. ولا يوجد في الصحابة كلهم أنهم سألوا آية على معنى الاطمئنان والتصديق، وهذا يدل على

يقينهم ويدل على دينهم ويدل على تسليمهم وعلى فهمهم لكلام ربنا، وأن المؤمن لا يزداد إيمانًا بهذا، وإنما معنى الاطمئنان نشرحه في قصة إبراهيم -إن شاء الله-.

فلذلك الكفار {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، فهنا قطع عليهم الحجة فقال: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} قوله (فلمسوه) هذا من باب التفصيل، والقرآن عادةً لا يُفصِّل إلا عند الضرورة، وعندما يكون التفصيل لا بد منه. مثلًا تتعجب للتفصيل في آخر سورة البقرة: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ} تفصيل عجيب!، لماذا؟ للضرورة؛ ليُبيّن موقع هذه النعمة الإلهية على هذا الرجل.

ابن عباس يقول: "هذه المقصود بها هو الأعمال الصالحة"، لكن القرآن يمرّ لأن الإيجاز هو البلاغة، ما هي البلاغة؟ قالوا: هي **اللَّمْحَة الدَّالَّة**، وقلنا كلام الإمام الشافعي -رحمه الله- لما قال: "كلما أَلْغَزَ العربي كان كلامه دالًا"؛ اللمحة الدالة هو يُقيم لمحةً وبعد ذلك أنت ابحث.

والقرآن حين يأتي بالتفصيل فله مقصد في هذا، فقوله -سبحانه وتعالى-: (فلمسوه) ثم قال (بأيديهم)، الباء عند أهل اللغة لها معانٍ كثيرة كلها تعود إلى ما قاله سيبويه في (الكتاب) وهو الإلصاق، وما ذكروه كله تبع لهذا المعنى، تقول: ضربته بالحجر، لأن الحجر التصق بيدك. مسحت برأسي، لأنه التصقت يدك برأسك. فكلها تعود على الإلصاق وقد يتفرّع هذا الإلصاق إلى معانٍ.

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}، أول شيء ما معنى (ما منعنا)؟ الله ما الذي يمنعه؟ وهو الذي -سبحانه وتعالى- لا يرد إرادته رادّ، والله -عز وجل- لا يُصاب بالشكّ ولا بالتردد ولا تنقطع إرادته لو توجّهت لشيء. المنع إما أنك تريد فلا تستطيع، وإما أن تريد فيمنعك مانع، وإما أنه لا يوجد الشيء؛ أنت تريد الطعام ولا يوجد. فكيف يُقال: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ} ما معنى منع؟

شرحنا سابقًا استخدام العرب للكلام، وهذا يُشبهه، قوله ﷺ في الحديث القدسي: (وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدي عن قبضِ نفس المؤمن ، يكره الموتَ وأنا أكْرهُ مساءتَه).[61] التردّد قد ينشأ من ضعف؛ واحد لا يعرف هذه الطريق هل توصل إلى مَهْلَكة أو إلى مَفَازة، -وسُميت الطريق الصعبة مفازة من باب الرجاء، كما يقولون عن اللديغ سليمًا رجاء أن يسلم-، فإذا أتيت إلى طريقين فلا تعرف الطريق المُهلكة مِن المُنجية فأنت تتردَّد، سبب التردّد في اختيارك هو جهلك، وهذا ممتنع في حق الله.

لكن بأي شيء وقع التردد في نفس ربنا؟ لوجود أمرين كلاهما عند الله مطلوب؛ واحد مطلوب على جهة القدر، وواحد مطلوب على جهة الشرع والمحبة، فإن إهلاك الإنسان وانتهاء عمره لا بد، كتب الله أن يموت كل واحد، فهذه كتابة قدرية، والله -عز وجل يكره- إساءته لأنه يحبه. فهذا التردد وقع بين أمرين، بين أن يُجري السنة وأن يُجري مراد حبيبه بأن لا يُميته، وهذا تردُّد ممدوح، فهذا يقع في نفس الرب، وهو -سبحانه وتعالى- يُجريه رغم أنف عبده.

من الذي ينتصر في الدنيا السنة الشرعية أم السنة القدرية؟ القدرية، فيُميته حتى وهو يكره إساءته.

قال: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}، وإلا فلو لم يكن هناك عاقبة تؤدي إلى استئصالهم، والله لا يُريد استئصالهم ولا يريد أن يزيل قريش ولا يريد أن يدمرها، فهو رحمة بهم لم يُعطِهم ما طلبوا، فمنعه عن إجراء هذا الفعل عليهم محبته -سبحانه وتعالى- أن يهتدوا هم أو أبناءهم.

قضية طلب الآيات تتكرر في القرآن كثيرًا جدًا، كيف يردّ عليها القرآن؟ هذه مهمّة من مهمّات فِقهك للكتاب، أن تعرف كيف يرد القرآن على طالبي الآيات، وفي سورة الأنعام يتكرر طلب الآيات كثيرًا. والقرآن لا يأتي دائمًا بالسؤال والجواب، أحيانًا يفعلها كقوله -سبحانه وتعالى-: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} أعطاهم الجواب، لكن كثيرًا يُجيب القرآن دون أن يقول لك: هذا الجواب، انظر هنا آية (٣٧): {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ}.

---

[61] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (١٧٨٢).

طلب الآيات جزء من مفهوم الرسالة، فلا تَخَف ولا تَجبُن من كلام الزنادقة: أنك لست على شيء، أنت ضعيف، انظر المسلمون لو كان عندهم الحق لكانوا خير البشر، لو الدعاة على حق لانتصروا، لو كان الدعاة على حق لأيَّدهم الله، بمَ نعرف أنكم أنتم على الحق؟ وقد هُزمتم كذا وعملتم كذا وسُجنتم كذا. تتكرّر نفس الصورة من الزنادقة وممن يتنشَّق روائحهم. كيف يرد القرآن؟

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، كثير من الناس بسبب عدم فهم الآيات يتعبون في الحفظ، فإذا علموا ترابط الآيات سَهُل عليهم الحفظ، الآن الذي يحفظ سورة الأنعام يعجب أن جاء بعدها: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} هذا الجواب؛ قالوا: نريد آية، وكأن ما يرونه ليس كافيًا!، ما هو أعظم من الآيات التي يرونها؟ أعظم من الشمس؟ أعظم من الطائر الذي يطير بجناحيه؟ والدابة التي تمشي على الأرض؟ ما الذي تطلبه؟ هذا موجود أمامك.

فإذًا الطريقة الأولى في الرد على طلب الآيات **أن يُنبّهَهُم على الآيات التي غفلوا عنها وعميت أبصارهم عن رؤيتها**، فلما طلبوا آية: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**}، قال بعدها: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}.

من أجل ذلك الله يقول لهم: هذه الآيات بين أيديكم وهذه لمن أراد الحق أبصرها وكفته، بل كانت زيادة. هذه الطريقة القرآنية، وهذه تتكرّر في طلب الآيات؛ أنكم ترون الآيات، وهو يُنبّهُنا عليها كما نبَّهنا عليها في مطلع هذه السورة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، فهذه آيات ما الذي تطلبه؟

وفي نفس سورة الأنعام بعد أن تأتيهم الآية يقطع القرآن عليهم كذبهم، صفحة (١٤١) آية (١٠٩) {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ..}، طبعًا إذا أردت أن تعرف كم يحلف هؤلاء الكاذبون اذهب لسورة التوبة: "يحلفون، سيحلفون،

ويحلفون.."، الحلف هذا من أين جاءوا به؟ من سيدهم إبليس في قوله: {وَقَاسَمَهُمَا}، آدم رجل مسكين طيب ما يظن أن هناك من يحلف بالله كذبًا! {وَقَاسَمَهُمَا} حلف لهم بالله.

قال: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ}، انظر ماذا يقول القرآن بعدها، افتح الصفحة بعدها ما هي آخر آية في الصفحة؟ {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ..}، هم أقسموا بالله إذا جاءتهم آية ليؤمنن بها، فلما جاءتهم قال: {قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ}.

وهكذا ولا تنقطع حجته، هذه الأهواء، وحتى المؤمن يوم القيامة لا تنقطع به شهوته. تعرفون قصة آخر رجل يدخل الجنة، يكفي أن تقرأها كل يوم لتعرف ما أنت أيها الإنسان!، أنا أنصحكم هذا الحديث كل يوم تضعوه أمامكم وترى فيه صورتك أنت، لا تظن أنه واحد آخر، هذا أنت وأنا وكل إنسان هكذا.

فهؤلاء بعد أن جاءتهم الآيات: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ} يريدون أن يصبحوا أنبياء!

إذًا الطريقة الأولى للردّ على طلب الآيات هو التنبيه على الآيات التي غفلوا عنها في الوجود. وأعظم آية لم يلتفت إليها هؤلاء هي ما ذكره الله في سورة الحِجر، ارجع إلى سورة الحجر لترى الطريقة الثانية في إقامة الحجة عليهم عند طلبهم الآيات. قال: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، لكن كيف يقطع حجتهم بعدها؟ قال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} هذا هو الجواب، هم يطلبون الآية وهل هناك أعظم من هذا آية ليقرؤوه ويفهموه ويعرفوا الحق؟! الله تكلّم به، نزل به جبريل على قلب النبي.

ما الذي يُبطل الحق بالباطل؟ التاريخ، والقرآن كتاب تاريخ، هم يقولون: أعظم ما في القرآن آيات تشريعية وآيات تكوينيّة، ونسوا أعظم آية في القرآن وهي آية التاريخ، حتى تعرف كيف يحتجّ القرآن بالتاريخ، في سورة الأنبياء ماذا قال الله -عز وجل-؟ {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ} القرآن فيه ذِكرنا اليوم، من هنا سميت

هذا الباب (**باب رفع المرايا**)؛ لازم تقرأ القرآن وترى نفسك أين أنت، هذا سميته في كتابي (صبغة الله الصمد رفع المرايا)؛ أن القرآن يرفع المرايا ليُريك نفسك والعالم كله، كله موجود بالتفصيل الرائع الذي يقطع حجة الناس.

لفتة بسيطة {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} هذه لكل من قرأها موجودة. كيف يحتج القرآن بالتاريخ؟ {قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} في سورة يونس وبعدها ماذا قال؟ {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} هذا تاريخي، متى تحدثتُ بمثل هذا الكلام لكم؟!

التاريخ مما أقامه القرآن، **القرآن هو مصدر كل علوم الأمة،** لا أقصد في كتابتها ولكن في تأصيل علومها حتى وجود مُقدِّمات للكتب مأخوذ من فقه القرآن من الفاتحة وما بعدها، يعني حتى في كتابة الكتب أن يكون هناك مقدمة وأن يكون هناك كتاب من أين جاءوا بها؟ من القرآن. فكل علوم الأمة انتجها القرآن، التاريخ هو علمٌ قرآنيّ فَقِهه أهل الإسلام من القرآن فنشطوا إليه. لا يوجد أمة عندها تاريخ مكتوب مثل أمتنا.

وفي آية أخرى في سورة العنكبوت {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} هذا تاريخ.

في سورة الحجر ماذا قال لهم؟ أولًا انظروا إلى الآيات الكونية، الثانية في قطع طلبهم الآيات: {لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} ماذا قال بعدها؟ {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} هذا الجواب؛ من أعظم نزول الملائكة أم كلام الله؟ هذا الكلام العظيم الذي سبحانه لو أنزله على جبل لرأيته خاشعًا متصدّعًا.

وفي سورة الرعد الآية التي أخفى فيها القرآن الجواب لأنه لا يمكن لأحد أن يجادل فيه، يقول -سبحانه وتعالى-: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} أين الجواب؟ الجواب: لكان هذا القرآن؛ لأنه لم يحدُث قطّ في الوجود أن كلامًا بشريًا يُمكن أن يُحدث هذا، لكن لو كان هناك كلام يفعل هذا الفعل لما كان إلا هذا القرآن، فهو قاطع.

ومع ذلك ينزل هذا القرآن بهذه العظمة فيُصبح في كتاب نتلوه ونقرأه ونتلذَّذ به، من أعظم هذا أم نزول الملك تراه ثم يذهب؟ تقرأه كل يوم فتزداد علمًا، تقرأه كل يوم تزداد به بصيرة، من أعظم؟ أن ينزل الملك فتراه أو ينزل هذا القرآن فيصنع جيلًا من الصحابة كانوا عُرباناً بوّالين على أعقابهم لا قيمة لهم في الحضارات والأمم، فيُزيلوا الأمم بهذا القرآن؟!

ولذلك ما هي أعظم حجج القرآن على صدق الأنبياء؟ هو نصر الله لأنبيائه، أعظم حجة على أن هذا النبي من عند الله هو نصر الله له.

ما زلنا مع الآيات: {**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**} ونقف عند كلمة (سحر).

بارك الله فيكم وجزاكم الله خير.

الدرس الثالث عشر

ما زلنا مع قوله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}.

هذا دليل على أن السحر عند العرب قديمًا شيء مُستقبَح، وأن فيه التلعُّب وعدم الحقائق، ولذلك هم وغيرهم كقوم فرعون يتهمون خصومهم به، لما قال الله -عز وجل-: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ}، فحتى هؤلاء الأقوام الذي كان عندهم إتقان هذه الصِّنعة -صنعة السحر- كانوا يعتقدون أن السحر لا يمكن أن يُوثَق به، ولا يمكن أن تُقرَّر به الحقائق، فإذا أرادوا هدم شيء من الحقائق قالوا: "سحر"؛ فدل على أن السحر باطل، هذا هو اعتقادهم.

والسحر عند أهل السنة له حقيقة، وآخرون من أهل الكلام وغيرهم والمعتزلة يرون أنه مجرد تخييل، بمعنى أنه ليس له حقيقة. ولا شك أن السحر لا يغيّر حقائق الأشياء، وهذا الذي أدركه سحرة فرعون فإنهم لما ألقوا حبالهم وعصيّهم قال: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}، فكيف يُخيَّل؟ قطعًا أن هناك سنة ما يُدركها السحرة ويدركها أئمتهم من الجن، سنة من السنن، ويتعاملون مع هذه السنة في خداع الإنسان. فإدراك السنة يجعلك تستطيع أن تتعامل معها في خداع الإنسان، والدليل الأفلام الكرتونية التي تُعرض الآن، لو جئت إلى الصور كما يرسمها الرسام تجد بين الحركة والحركة بَوْنًا وفرقًا، فكيف يضحك على الناظر فتبدو أنها متحركة؟ اعتمادًا على سنة من سنن الله وهي أن البصر في جزء من الثانية لا يستطيع أن يرى.

ومن هنا الجن لماذا لا نراه مع أنه حقيقة؟ لأنهم خارج عالم إدراك سنة البصر، وإلا فإنهم موجودين، فلما يقوى البصر، أو تُلغى هذه السنة ترى الجن، أو لما يغيّر هو شكله وصِفته تراه. ومن هنا النبي ﷺ حين كان يرى الملائكة ذلك لأنه ليس على الغيب بضنين؛ الله -عز وجل- أعطاه قدرة في بصره ليلاحظ هذه الخلقة التي

خُلقت من نور. فهي قضية سنة، كما أن السَّمْع في جانب مُعيَّن لو خفى الصوت خفية ما فأنت لا تميزه، والدليل أن هذه الأجواء التي نعيشها الآن مليئة بالأصوات. كيف يحضر التلفزيون لنا؟ من خلال التقاط الأصوات من الجو. الناس كيف نقلوا لنا الأصوات؟ الصوت موجة، نقلوها إلى إلكترونيات، الكهرباء في داخل السلك، ثم من داخل السلك تحولت إلى موجات وهكذا.

فكلما أدركت السنة استطعت أن تتعامل معها وتخفى عمَّن لم يعرف السنة، وتبدأ من أبسط القضايا في عالم السنن إلى أعلاها.

مرشد زعيم الدروز كان عميلًا للإنجليز في سوريا، فالإنجليز حتى يُعطوه صفة الألوهية لقومه، الناس لا يعرفون الكهرباء، فأعطوه كهرباء وبطارية وأضوية صغيرة، فيخرج عليهم وقد لبس الجُبَّة ووضعوا الأزرار الكهربائية في داخله، وفي الظلمة يدخل عليهم وفجأة يخلع الجبة ويُضيء الأضواء، هم يظنونها من قبيل الكرامة والأنوار الإلهية التي شعَّت عليهم!، وهو أمر يسير لا يعرفونه، فلما عرف الناس الأضواء عرفوا الموضوع.

نفس الشيء قضية إدراك السنة، هذا الذي صنع الأفلام الورقية أدرك السنة فيُريد أن يُجريها بسرعة فوق إدراك البصر فتبدو أنها متصلة، وهي ليست كذلك. وأنت إذا جئت إلى الأوراق التي أمامك التي يصنع بها المخرج الفيلم، فتجد أن الورق مختلف، بين الحركة والحركة تجد فرقًا شاسعًا، اليد تكون هنا في أول حركة وفي حركة ثانية تكون هناك، ما بين الحركة والحركة الثانية أين اليد؟ أنت حين تحركها حقيقة تراها، لكن لأنها حُرِّكت بهذه السرعة تراها متحركة وليست كذلك.

وهكذا هذه المسافة هي جزء من الثانية التي بها يتم غياب الشيء عن النظر وهو لا يراه، لو أدركت هذا تستطيع أن تطبقه على عدم رؤيتك الجن، فشياطين الجن لهم دور في إضلال الإنسي في قضية السحر، فالسحر له حقيقة بهذا المعنى وهو أنه يتعامل مع السنن. لذلك هؤلاء السحرة كما قال ابن عباس: "كانوا في أول نهارهم سحرة كفرة وفي آخر نهارهم شهداء بررة"، فهم يعرفون هذا وعندهم علم به، ولكن لما جاءت عصا

موسى –عليه السلام– أزالت الوجود وتغيرت حقيقتها، إذًا الذي يُغيّر الحقيقة هو الذي يخلُق، فعلموا أن هذه آية من خالق الكون الذي يُبدّل حقائق الأشياء، وليست صور الأشياء، هذا فرق{يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ}.

ولا بد مع السحر من استرهاب {وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}، لذلك قال عن موسى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} وكلما قوي جَنانك وقلبك كلما بَطُل سحر الساحر عليك، حتى في كلامه وتهديده لا ينفع. والسحر على درجات. والعلماء على شبه إجماع أن الساحر يُقتل إلا الشافعي –رحمه الله– يقول: "إذا كان سحره أدى إلى القتل فإنه يُقتل وإلا فيُعزَّر".

فالقصد أنهم لما قالوا: {إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} دل عندهم على أن السحر ليس محترمًا، على أنه يغيّر ويلعب، ولا قيمة له.

تسمية الفعل الإلهي وهو الذي تأتي به الحقائق مقابل السحر سحرًا، هذا سبٌّ على الله، من هنا هؤلاء كفرة، قال لهم القرآن هذا كلام الله، فقالوا: سحر. أتى لهم بالآيات من انشقاق القمر، أتى لهم موسى بالعصا، هذه حقيقة فهم سموها سحرًا. من هنا عليك أن تفهم أن تغيير حقائق الأشياء يؤدي إلى الكفر؛ هذا الذي قلناه أنه لا بد من معرفة جغرافية الشيء وتاريخية الشيء، إنكار الحقائق يؤدي بمقدار إنكار الشرائع؛ لأن الخليقة من خلقها؟ الله، والشريعة من أين جاءت؟ من الله. فإنكار الشريعة كفر لأنه رد على الله، وإنكار الحقيقة هو رد على الله لأنه رد على خِلقته.

وهذا ما لا يعرفه أهل الإسلام، وهذه النقطة مهمة جدًا في عدم تصورنا لجنونا الذي ندَّعي أنه دين؛ لأن كثيرًا من الناس يتدينون تدينًا مَرَضيًا يظنون أن الدين هو خروج عن الحقائق الكونية، يقولون: لأننا نؤمن بالغيب فيجب علينا أن نُلغي هذا الكون المادي الذي نعيش فيه. وهذا من الضلال.

لو واحد جاء إلى المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة وقال: ليس هذا هو المسجد النبوي، فإنه يكفر، مع أنه حقيقة كونية، وكذلك مكة وهكذا. فإنكار الحقائق لا يجوز في ديننا.

وأعظم ما بدأ به طريق إبليس في تسمية الأشياء بغير أسمائها، منفذ إبليس إليك وإلى الأمة وإلى الصالح وإلى العابد هو أن يغيّر لديك أسماء الأشياء، **لأنه بتغيير أسماء الأشياء يتغيَّر تصوُّرك للحقائق**، الله -عز وجل- قال لآدم: هذه شجرة المعصية {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}، ما هو أول حِجاب للوقوع في المعصية؟ تغيير الأسماء.

أضرب لكم مثالًا، لو أن رجلًا جاء لرجل وقال له: "عليك بالزنا"، كلمة الزنا ما هو حضورها في قلب السامع؟ لها نُفرة، لكن لو قال له: "تعال نتبحبح يا رجل، تعال نتزهزه، تعال نمشيلنا وقت"، هذا جزء من تغيير الاسم، يسقط حجاب الاسم الذي يصنع المنع في قلب العابد بمجرد سقوط الاسم، هذا حجاب قوي جدًا. لو قلت لرجل: "تعال كل ربا"، ما هو حضور كلمة الربا في نفس المسلم؟ شديد. اليوم يُسمُّون اللوطيين: "مِثليين"، كلمة "مثليين" ماذا أعطت من معانٍ في نفوسكم؟ ما رائحتها؟ هل الكلمات لها روائح؟ نعم، لكن لا تُشم بالأنف تُشم بالقلب.

ولذلك الشيطان جاء لأبينا آدم وقال: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} غير الاسم فنسي أنها شجرة المعصية. هل الحقيقة تغيّرت؟ لا. وما هي شجرة آدم على الصحيح؟ الحشيشة، لا نجادل عليها لكن أنا أعتقد أنها شجرة الحشيش.

القصد أن **أول ما أعطى الله آدم للخلافة في الأرض هو {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ}، هذا أول سلاح لديك وهو أن تعرف بتطابقها على الأشياء وارتباطها بالحقيقة**. إذا اختلف صار الاسم في جهة والحقيقة في جهة واختلطت، حينئذ تختلط المعاني في القلب.

لذلك **أول طريق لتعرف القرآن هو أن تعرف مصطلحات القرآن**؛ لأن المصطلحات هي الأسماء التي أقامها الله على الأشياء، وبهذه الأسماء علّق أحكامًا، ابحث عن "المثليين" في القرآن وفي السنة هل تجدها؟ لكن "لوطي"؟ عمل قوم لوط. وكلمة (لوطي) من اللِّياطة يلوط به التاط به: التصق، وليس نسبة للوط -عليه السلام-، فهذه كلمة قذرة، ينفرون منها.

لو قلت خمر، زنا، الناس ينفرون منها. فهكذا يبدأ الشيطان {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ}؟ لا يوجد بنك مكتوب عليه : "بنك الربا"، **فتغيير الأسماء هو منفذ لإزالة حاجز المعصية**، الله أقام حواجزًا بين الإنسان والمعصية، منها الفطرة، وأعظمها الأسماء، فهذه الأسماء مهم أن نحافظ عليها.

فتغيير الأسماء مصيبة، وكذلك تغيير الحقائق مصيبة، تغيير الحقائق بالسحر، الحقائق بماذا الكلام، كما قال النبي ﷺ: (إن مِنَ البيانِ لسِحرًا)[٦٢]، واحد يزيّن المعصية حتى تصبح جميلة، وترى هذا في بعض الكتب، كما كتب أحدهم كتابًا وقال: "الانتحار هو انتصار على الله"! هو الآن رغّبك بالصراع مع خالقك! وهذه نظرية يونانية قديمة: الصراع بين الآلهة والبشر، هذه لا تمُتُّ للعرب، العرب لا يؤمنون بها ولكنها نظرية جاءتنا من الغرب، والحِداثيُّون هؤلاء عامة علومهم وثقافتهم ثقافة يونانية، وحتى الديانة النصرانية المعاصرة هي إرث للديانة اليونانية.

النصرانية التي تؤمن أولًا بالخطيئة من آدم، المعصية، ثم الذنب ثم الخلاص عن طريق الصَّلب، هذه الأربعة نقاط وهي خلاصة الديانة النصرانية مأخوذة من اليونان؛ فالصراع بين الآلهة والبشر حتى العرب في جاهليتهم لم يعرفوه.

والقصد أيها الأحبة أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر الحقائق، المسلمون بعضهم يظنون لأننا مسلمون فيجوز لنا أن نقفز فوق الوجود، النبي لا يقفز وهو المؤيَّد بالسماء والملائكة لا يتجاوز حدَّه؛ يمرض كما يمرض الناس ويشرب كما يشرب الناس وينتصر كما ينتصر المجاهدون ويُهزَم كما يهزم {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ}، النبي أصيب كما أصيب الأنبياء من قبله، وذلك لجريان السنة الإلهية.

المسلمون تعجب من كلامهم يقولون: إن الله معنا، طيب لماذا تنهزمون؟ **ليس هناك سبب غيبي يتحقَّق به فعل قدري كوني في الدنيا إلا ومعه سبب كوني يلائمه**، حتى المعجزة، لما ضربنا لكم مثال خروج الماء من يدي النبي ﷺ الشريفة لما وضع يده في الإناء، هل جاء النبي ﷺ إلى الفراغ ووضع يديه هكذا وجعل الماء

---

[٦٢] صحيح البخاري: (٥٧٦٧).

يفور؟ أم قال: أحضروا لي ماءً؟ فالأصل موجود. ولما حصلت البركة في الطعام هل قال النبي ﷺ: اللهم أنزل علينا مائدة من السماء فنزلت، أم قال: أحضروا لي ما معكم من الطعام وجمعوه؟

فإذًا لا بد من شيء كونيّ ليبارك الله فيه، فلا تنزل البركة على فراغ، ولما صار في أهل الأخدود ما صار وهم مؤمنون لماذا؟ لعدم وجود قوة، {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} بإجماع المفسرين على أن المقصود هم الذين قَتلوا، يعني الله يسبهم ويدعو عليهم.

فالقصد بأنه لا يمكن أن يقع شيء إلا مع وجود مادته، ومادته لا بد أن تكون ملائمة له. هل الناس يدفعون الجوع بالماء أم يدفعون العطش بالماء؟ الجوع لا بد له من طعام، فلا بد من ملاءمة بين السبب وبين مُسبَّبه، ولذلك النبي ﷺ قال: (اعْقِلها وتوكَّل)[٦٣].

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} والصبر له معنيان؛ **صبرٌ على الفعل أن تقوم به**، من قوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}. وهناك صبر فقط بأن **تنتظر حكمة الله لعدم وجود قدرة لديك وللعجز**، كما قال موسى –عليه السلام–: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا} اصبروا فالله سيفصل، ومع ذلك خطَّطوا وخرجوا وحصل ما حصل من النصر.

ولكن هناك صبر يسميه علماؤنا كما يقول ابن القيم: "هناك صبر البهائم"، والظاهر هذا الذي نعيشه نحن! يعني الماء بجانبه وهو يريد أن يشرب ولا يقوم، النصر أمامه يستطيع أن يذهب إليه بالسنة ولا يذهب إليه، العمل موجود يستطيع أن يذهب ويكسب المال وجالس يقول: أنا صابر حتى الله يرزقني. هذا اسمع صبر البهائم.

القصد من هذا أنه لا بد من أن تحترم السنة الكونية، ولا يجوز لك أن تعتمد على عملٍ غيبي دون وجود سببه القدري في الدنيا؛ ولذلك رسولنا ﷺ طوال مدة حياته مشى بطريقة سُننيَّة تامة في كل فعل: في تحقيق نصرة الدين، في الزواج، في الهجرة، في البيع، في الشراء، في كل شيء مشى بطريقة سننية، فهذا لابد منه.

---

[٦٣] حسنهُ الألباني في صحيح الجامع: (١٠٦٨).

فبعض المسلمين يهرب من الحقيقة إلى السحر؛ لأن السحر يقابلها، الناس قد يضحكون من هذا المثال لكن المسلمين يطبقونه كثيرًا، مثلًا واحد ليس عند خبز ويريد أن يأكل، فيُحضر ورقة ويكتب عليها "خبز" ويأكلها، هل ينفع؟! بعض المسلمين هكذا، يهربون من الحقائق إلى الخيالات ويعيشونها.

فهؤلاء الكفرة نسبوا إلى الله –عز وجل– من الباطل –لأن السحر من الباطل–، فنسبوا ما أحدثه الله من الفعل الحقيقي إلى البُطلان، فالباطل هو الذي لا شيء فيه، فالباطل هو الفراغ. فهم نسبوا فعلًا حقيقيًا للباطل، وهو أنزل عليه الكتاب ولمسوه، وقلنا فصّل بقوله: {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ}، فردوا: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}، وسبّوا عليه بالتفصيل فقالوا: هذا سحر بيّن، وهذا من أكذب الكذب.

والقرآن عادةً يُعطي الأعداء له صلاحية أن يتكلموا بالكذب بالتفصيل حتى أنت لا تهتز، وهو قادر –سبحانه وتعالى– أن يقطع كلامهم، ولم يأتِ بكلمة (مبين) من أجل الفاصلة القرآنية فقط، ولكن من أجل أن يقول لك: لما تراه مُشدِّدًا ومُفصِّلًا ومُعظِّمًا فلا تهتز، من يقول كلمة (سحر مبين) لا بد أن يكون له الثقة بما يقول. فلما تراه بهذه الثقة لا تهتز، لا قيمة لهم فهم كفار، وإنما أراد ان يقول لك لا تهتز لكلماتهم ولو فُصّل فيها ولو بدا في ظاهرها القوة والثبات والثقة لما يقول.

مثل قول قوم لوط، لما قال لهم: {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}، انظروا كيف كلمة حق تخرج من أفواههم القذرة: {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}!، يعني لما واحد يقول لك: "نحن مشينا بالطريقة التي يمشي الناس فيها، هيك القانون يقول"، يعني بالفعل يحق للوط –عليه السلام– أن يقول لهم: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً}، ماذا يقول لهم؟ لو أن له قوة من أجل أن يقتلهم، {قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} ليتني أستطيع أن أخرج من قريتكم.

فالله يترك هؤلاء يتكلمون من أجل أن لا تهتز، لما يقول: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ} لم يتغير شيء، هو يتكلم بمنطق الحق عنده، ويريد أن يهزّك ويريد أن يُثبت لديك الحقائق، وصارت البنت منبوذة

وصار الرجل هو المقبول، وهذا ينطبق على كل أمر يأتيه البشر فيجعلونه قانونًا ودستورًا ويجعلونه حقًا مقابل كلام الله.

وقلنا هذا شيء مهم لأن طريقة القرآن في الرد على المخالف في الآيات يُعيدها إلى أمرين؛ إما أن ينبّهه إلى الآيات التي غفل عنها، كما ذكرنا في سورة الأنعام: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، {قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ}. وجواب القرآن في سورة الرعد، افتحوا سورة الرعد في أولها، وانظروا هذا البيان الرائع العظيم في ردِّه على طلب الآية، الآية السابعة صفحة (٢٥٧) : {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} هذا هو الموطن الوحيد الذي ما فيه "قل". كما قال الله –عز وجل-: في الدعاء {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي} ما قال: "قل" لقرب الجواب فلا ضرورة، وهنا لوضوح الآيات التي ستأتي وهي آيات مفصَّلة في سورة الرعد فلا ضرورة أن يقول "قل"، ستهجم عليك الآيات قاطعة عليك السؤال الاستكباري، {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} قال: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} انظر بعدها. {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى...}.

بعد ذلك في نفس سورة الرعد، افتح الصفحة التي بعدها، وهذه نقطة ثالثة ولكنها ليست للكفار، الأولى للكفار، وهنا إذا اشتبه عليك أمرٌ من جهة العقل فعالجه بالعبادة. الأولى ذكر الآيات الكونية رادًا عليهم، هذا خطاب الآن من أجل أن يبين كيف يعالج المؤمن ما يعترضه من شبهات إن عجز عنها بجواب العقل. هذه الأولى للكفار، جواب ودمغ لهم، {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} ماذا قال بعدها؟ {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} هذا الجواب.

انظر لكلمة (تطمئن) لماذا جاءت هنا وانتبه لها في سورة الرعد، لِما ذكرنا؛ عندما يصير عندك شكوك ما الذي يسكّنها؟ ولذلك جاءت كلمة {وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ} الذكر يمسح هذا الاضطراب، هذا المعنى الذي أردته، ما الرابط؟ {قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} ثم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.

ولذلك في الحديث: (إذا جاءك الشيطان وقال لك: من خلقك؟ قل: الله، فإذا قال لك: من خلق الله؟ فقل: آمنت بالله). فما هي طريقة رد الشبهات إن عجزت عن الرد عنها؟ كثرة العبادة، والله يُنير لك، ولذلك كان ابن تيمية –رحمه الله– إذا أَعْيَته مسألة ذهب إلى مسجد مهجور ومرّغ وجهه في التراب وقال: "يا مُفهِّم إبراهيم فهمني ويا مُعلِّم سليمان علّمني" ويبقى مستغفرًا حتى يفتح الله عليه الجواب.

هذا الدين مع الله، خزائن السماوات والأرض وخزائن العلوم مع الله، كيف تُستفتح خزائنه؟ بالاستغفار، {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} يستفتح، هذا موسى ذكي، فلما أراد موسى أن يتحنَّن لله من أجل أن يُجيب سؤاله بأنه يريد أخاه، ماذا قال؟ {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا}.

يقول الإمام ابن خلدون –رحمه الله– في كتابه (المقدمة): "عندما يعجز العقل الصناعي عن الإجابة فعليك بالعقل الفطري"، العقل الصناعي يعني المنطق والكلام والأدلة الذهنية والعقلية، عندما تعجز أين تذهب؟ تذهب القلب، تُكثر ذكر الله والاستغفار وتمرّغ وجهك في التراب، فالله يفتح عليك. وكما أن ربنا يُسأل بهذه الطريقة الرزق في المال يُسأل كذلك الرزق في العلم، هذه من وسائل في تحصيل الرزق في العلم، كلما ازداد المرء قربًا لله ازداد معرفة به وعلمًا، لماذا يُحجب المرء عن الله؟ بالمعاصي، استغفر الله فتزول هذه المعاصي، يُفتح عليك نهر العلم، ولذلك: "ونور الله لا يُؤتى لعاصٍ".

العلم في القرآن لا يقترن إلا بالآخرة والعمل، وافتحوا سورة النحل، الصفحة الثانية، {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ...}، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، كما سماهم ابن القيم في كتابه: "بهائم البشر"، والقرآن في سورة الأنعام بيَّن أن هؤلاء لا يُسلِّمون عقولهم مجانًا إنما هناك متعة وراء ذلك؛ {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ}.

{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} رأيتم أين كلمة (العلم)؟ من هم أهل العلم؟ يُستشهد بهم يوم القيامة.

طيب هناك ناس مُقبِلون ومطّلعون على المال والدنيا، فالناس مُتشوِّفون لهذا {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ} وحتى أصحاب الطرابيش والجبّة هؤلاء معهم، من هم أهل العلم؟ الذين أداروا ظهورهم عن ذلك، أين هذا الكلام؟ افتحوا سورة القصص وانظروا لما يتشوّف الناس للدنيا ولأهل المعاصي كيف يُدبِر أهل العلم عنهم، ولا يتشوَّفون مثلهم.

الذين يقولون: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ} هؤلاء لا يُسمَّون أهل العلم في لغة القرآن، {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ} يعني هؤلاء ناس يريدون الحياة.

فهنا في السورة الله جعل الناس منازلًا، {نَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ} فكل قومه قبل أن يخرج مع البهرج قالوا: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ} فكلهم نصحوا من بعيد، ولم يبقَ إلا الصنف القليل من القليل، قال الله -عز وجل-: {قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} كل قومه قالوا له، لكن لما خرج عليهم في الزينة ما بقي إلا أولوا العلم: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} من الذي أدار ظهره؟ {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} بلغة القرآن الذين أدار ظهره هم العلماء.

الآيات كثيرة تجدونها كذلك في سورة فاطر. اذهبوا إلى سورة فاطر صفحة ٤٣٧ آية ٢٨ {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ}.

افتحوا سورة الروم صفحة (٤١٠) {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} من الذي حضر؟ {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ}، بالاستقراء اقرؤوا القرآن واجمعوا أين تجد أولي العلم؟ عند الاستشهاد بهم يوم القيامة، عند ذكرهم ليوم القيامة، عند عبادتهم، عند ذكرهم.

ذكرت سورة الرعد لما فيه من منفعة لنا في قطع شبهات الشيطان على الخلق، {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} هذه مهمة، هذه من كنوز القرآن.

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} أفضل ما يُفسَّر القرآن به هو القرآن؛ ما هي الصَّافّات؟ {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا}، أين يأتي جوابها؟ في القرآن في آخر السورة افتحها {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} الملائكة. القرآن يُفسّر بعضه بعضًا، لا يحتاج القرآن لغيره، فقط يحتاج لغة وعقلًا يبحث، وأن تذهب إليه طالبًا الهدى فقط، ثم انظر كيف الله يفتح عليك، كيف تتلذَّذ مع القرآن وتنسى الدنيا كلها.

لما قال: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} الكلمات هذه أين تجدها؟ تجدها في البقرة وفي الأعراف، الكلمة التي قالها آدم وحواء –عليهما السلام– {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، هكذا هذا القرآن يمتحنك.

وقلت لكم: أحيانًا تجد الكلمة الواحدة في السورة الواحدة، مثلًا ذكرنا هنا (يعدلون)، وجدنا كلمة (قرطاس)، كذلك كلمة (فرقان) وجدناها مرتين في سورة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ}، {يَوْمَ الْفُرْقَانِ} وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا}، فسمى فرقان القلب وهو ما تحتاجه؛ فرقان الحق والباطل في قلبك. وفرقان الوجود؛ فرقان الحق والباطل في الوجود؟ {يَوْمَ الْفُرْقَانِ} في الجهاد، يأتي الجهاد فيفرق الناس، الجبان والشجاع، الكافر والمؤمن والمنافق، ولذلك في الحديث: الناس فسطاطان.

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ} ما معنى لقضي الأمر؟ ممكن المفسر يقول: لقُضي الأمر أي أقمنا الحجة كاملة. هل معنى لقُضي الأمر أي لحُسم البلاغ؟ هل معناها لو أنزلنا ملكًا لكان في وجوده البلاغ التام الذي تنقطع به حجة الكافرين؟ لا، اذهب لسورة الفرقان حتى تعرف {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} وهنا الله –عز وجل– ما رد على قولهم: {نَرَى رَبَّنَا} بالرغم من أن بني إسرائيل في البقرة سألوا، لكن الله –عز وجل– ما رد عليهم هنا استخفافًا بالطلب، وهذه طريقة القرآن في معالجة المعاندين، يصدمهم، يقول لهم: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ}. النبي ﷺ لما مرَّ على

كفار قريش وهم يستهزئون به قال؟ قال: (لقد جئتكم بالذبح)[٦٤] قالوا: "ما عهدناك سفيهًا يا محمد أو ما عهدناك هكذا".

هذا كل الذي أقوله لكم له أسماء في علم البلاغة، ولكن أنا أفصله لكم تفصيلًا مناسبًا، مثلًا لما قلنا {الْحَمْدُ لِلَّهِ} قلنا إن أعظم ما في السورة مطلعها، وهذا يسمى في علم البلاغة: **(حُسن الاسْتِهلال)**.

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} ما هو الحِجر؟ الجُحر؛ ولذلك سمي العقل حِجرًا {لِذِي حِجْرٍ}؛ لأنه يَحْجُر صاحبه، والحِجر لأنه يختفي فيه، فلما رأوا الملائكة قالوا: ليت لنا مكانًا نختبئ فيه. فهذا الذي يفسر الأمر، لو أنزلنا ملكًا عليهم سيكون هذا يوم دمارهم ويوم هلاكهم، لقُضي الأمر هنا {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا}.

وهذا كذلك في سورة الحجر، افتح سورة الحجر في أولها، الآية: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ} يعني بالعذاب، {وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ} يعني لهم وقت محدد.

فهم طلبوا أولًا أن يكون النبي إليهم مَلَكًا، وهذه عالجتها هذه السورة وعالجتها سورة الإسراء، وفي سورة الفرقان طلبوا أن يكونوا معه ملك.

---

(٦٤) حسنهُ الألباني في صحيح الموارد: (١٤٠٤).

الدرس الرابع عشر

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، وإمام المتقين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، جعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم آمين آمين.

كنا مع قول الله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ}.

نُعيد ونقول بأن طلب المشركين للآيات ليس طلبًا للحق وإنما هو على جهة التَّعنُّت والمكابرة؛ لأن الله قال: أنزلنا لهم آيات من قبل، وأول آية نزلت هي قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}؛ مبصرة: يعني دليلًا بيّنًا واضحًا، أي: أن الناقة فيها الدليل الذي لو أراد صاحبه الحق لأبصره من خلالها، أن صاحب هذه الآية هو رسول الله. فالناس طلبوا وأُعطوا فلم يؤمنوا، فالله -سبحانه وتعالى- توقَّف عن إرسال مثل هذه الآيات.

قد يقول قائل: الله -سبحانه وتعالى- وهو العليم علمًا مطلقًا لا يغيب عنه شيء، هل يحتاج إلى وقوع أمر ما من أجل أن يدلُّه على نهايته؟ الله -سبحانه وتعالى- أعلمنا أنه أرسل آيات فلم يؤمنوا فتوقَّف عن إرسال الآيات، ظاهر هذا الخطاب بأنه لم يكن يعلم فعلم. وهذا باطل.

ولكن السؤال لماذا يفعل ربنا -تبارك وتعالى- ذلك؟ دائمًا تذكروا هذه وهي من قواعد وجود النبوة في الأرض وإنزال الكتب وتحقيق الآيات: أن الله -سبحانه وتعالى- يريد الأمر الأول: **قطع الإعذار**، حتى يأتي الناس إليه يوم القيامة وقد قُطعت أعذارهم عنده، لإيقاف الحُجَّة. قد يقول قائل يوم القيامة: أنا لم تُجرِّبني. بل جرَّبنا آباءكم وأجدادكم فلم يخطر على الإنسان إلا كذلك، ولم يكن منه إلا هذا السبيل، فبرحمتي عليك لم أفعلها.

وهذا يدلنا على أمر مهم، لماذا يتكرر أمر خبر السماء في حدوث الخصومة بين آدم وبين إبليس كثيرًا في القرآن؟ ما فائدته؟ لماذا يتكرر هذا الخطاب في سورة البقرة، وفي سورة ص، في سورة الحجر، وفي سورة الأعراف؟ يتكرَّر هذا الخطاب: من أجل أن يُنبِّه الإنسان على أصل مُصيبته، فإنَّ أصل مصيبته في نزوله إلى الأرض؛ لذلك قال الله -عز وجل-: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ}، لو سأل سائل: كيف أعلم أنه عدو؟ هكذا حدث مع أبيك. ما سبب نزولك إلى الأرض؟ هو بسبب ذلك.

هذا واحد، هذا مهم وما نحتاجه هنا وما يلزمنا في هذا الباب، فمن أجل قطع الحجة والإعذار أنه قد وقع، وأخبرتك، ووقع في السماء كذا وكذا فأنت رأيت، وما وقع في السماء انتهينا منه. وهذا رد على النصارى الذين يقولون بأن البشرية تحمل الخطيَّة، أساس المذهب أو الديانة النصرانية أن الإنسان مخطئ مذنب، ولم ينفعه كل ما قام به من توبة ولا من تضحيات وإراقة دماء، فبالتالي أرسل الله ابنه كما يقولون، سبحانه وتعالى عمَّا يقول يقول المجرمون بنسبة الزوجة والولد له.

فانتيهنا خلاص غفرتُ لأبيكم، انزلوا الآن أنتم حالكم كحال الحجر الأبيض الذي صار أسودًا، الحجر الأسود ما أصله؟ أبيض فأنتم كذلك، ولكن هذه التجربة لا بد أن تكون حاضرة في أذهانكم أن سبب وجودكم على الأرض ما وقع في السماء.

فالله يُعلِّم، والله -عز وجل- لا يُفاجئ العبد ولكن يُمهِّد له، هذه طريقة القرآن وهذه طريقة الشرائع. ومن ذلك أن الأنبياء من لوط وما قبله -عليه السلام- لم يكونوا يُبعَثون في الذَّروة من أقوامهم؛ ولذلك قال لوط: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ} قال ﷺ: (ويرحمُ اللهُ لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ)[65]، لكن الغضب يُذهل، ونسي لوط أن النصر عنده في البيت. وهكذا الإنسان يكون الرزق فوقه وفي بيته ومع ذلك يجزع، ويكون النصر بين يديه حاضرًا ولكن يجزع وييأس وهكذا، ويكون الموت حاضرًا ويطول أمله، فهذا الإنسان ضعيف، ولوط -عليه السلام-من شدة غضبه قال: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً}، فردوا عليه: {إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ} النصر موجود في داخل بيتك. وكذلك من غضبه حين قالوا: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ} فهو اعترض،

---

[65] صحيح البخاري: (٣٣٧٢).

القرآن لم يُخبر اعتراضه لأنه شيء واضح، اعترض قال: الصبح طويل الآن أريد أن تدمِّروهم، فقال: {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}.

القصد بأن لوطًا –عليه السلام– لم يكن في الذروة من قومه ولا الأنبياء السابقين، ولذلك لما قال مقالته –عليه السلام–: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً}، قال ﷺ: (فما بعث الله نبيًا من بعده إلا في الذُّروة من قومه)[٦٦]، وهذا يدلك على تطور أساليب وحال الأنبياء مع أقوامهم؛ ولذلك شعيب –وهو بعد لوط– قال لهم: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ}، ماذا قالوا له؟ {لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} فبعث الله كل نبي بعد لوط في الذروة. هذا يُعلِّمنا أن الله –سبحانه وتعالى– لا يُفاجئ العبد.

ولذلك انظر إلى شعيب –عليه السلام– ماذا قال لهم حتى يعُلِّمنا لماذا الله –عز وجل– فرض الجهاد، ولذلك قال ﷺ: (رأيتُ ناسًا من أُمَّتي يُساقُون إلى الجنةِ في السلاسلِ)[٦٧]، كيف؟ هؤلاء هم أبناء المشركين، أبناء اليهود من بني قريظة وقد قُتل آباؤهم، كانوا يأتون للرجل فإذا رأوا أنه قد بلغ وظهر شعر شنبه أو لحيته أو كشفوا عن عورته أنه أشعر فيقتلونه، فبقي الأبناء، فصار الأبناء كلهم مجاهدون وعلماء، فكان قتل الآباء رحمة على الأبناء.

فماذا قال لهم؟ {وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ} هذا النبي لا يريد المشاكل، فقط نحن في طائفة آمنوا بالذي أُرسلت به، {وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا} فلا تعملوا لنا مشاكل ولا يتم صِدَام، ولا تُعذِّبونا، ولا نحن نقوم بأي فعل مضاد لكم، ولا تسجنونا ولا نفعل أي شيء، كل واحد ينتظر حتى يفصل الله بيننا ولكن نحن لا نتخذ أي موقف؛ {وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} هل قبلوا بهذا؟ ما قبلوا، إذا جاء أحد متى يقول لك هذه الكلمة؟ لما يكون ضعيفًا، متى تكون الدول والأنظمة الطاغوتية الكبيرة ترفع شعار السلام؟ حتى تسحق من أمامها، لما اليهود

---

[٦٦] صحيح البخاري: (٣٣٧٢).

[٦٧] حسنهُ الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢٨٧٤).

أخدوا البلاد واستحلوا الأرض، بعد ما أخذوها واستقروا رفعوا شعار السلام، وهكذا. فمتى يرفع الطاغية شعار السلام؟ إذا استقر مُلكه ليُسكت خصمه، لكن إذا ما زال هو في القوة ويتَّخذ موقفه بحسب قوته.

فهذه تجربة نبوية سابقة في أن الله -سبحانه وتعالى- أعلم البشرية حكمته في أحكامه، الله يريد أن يُعلم البشرية حكمة تشريعه عن طريق ما تمَّ، فيُخبرك أنه هكذا وقع، **حتى اكتملت البشرية ومعارفها وحُجَّة الله عليها في زمن النبي ﷺ**، ما بقي للناس حجة، ولكن جاءت الأحكام قاطعة. لو جاء أحد يتلعَّب ويقول: هذا لا ينفع نحن لا ينفعنا القرآن نريد آية تنزل لنا دابة، فهذا الله يقطعه، أنا أعلمتكم ماذا حدث في أسلافكم وأجدادكم، وانتهى.

وهذا يُعلمنا بأن الإنسان واحد، لما يأتيك رجل ويقول لك: "البشرية تتطور في قِيَمِها"، قل له: أنت دجَّال كذاب!، البشرية تتطور في تقنيتها؛ كانوا يمشون على حمار، اليوم يركبون سيارة، بعد السيارة طائرة، وبعدها صاروخ، وبعدها في البحر. هذه التقنية تتطور، لكن القيم لا تتطور، **البشرية تعيش أطوارًا دائرية لا تتطوَّر،** لا يتم التكامل في الأخلاق والقيم كما يتم التكامل في التقنية والصناعة.

ولذلك لما يجيء واحد يقول: "البشرية تطوَّرت اليوم وصاروا ديمقراطيين، وصاروا يفهمون، والمرأة تطورت"، ما معنى تطورت؟ مشت إلى جهنم!، البشرية لا تتطور، الإنسان هو الإنسان، لذلك القرآن يقرر حقيقة الإنسان {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}.البشر كلهم ضعاف {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ}، الإنسان هو الإنسان، الإنسان اليوم هو بعواطفه وأشواقه ورغباته وأخطائه ونجاحاته، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}، واحدة. الناس قديمًا عملوا بعمل قوم لوط، الآن يعملونها. الناس أكلوا الربا والآن يأكلونها.

لذلك القيم لا تتطور فالذين يأتون من المعاصرين اليوم يقولون: "البشرية تطوَّرت وأنتم تريدون إرجاعها للوراء"، نعم نرجع للوراء حيث كانت قيم قديمة عظيمة، نُريد أن نُحيي هذه القيم وهي القيم النبوية. وأما هذه القيم التي تدعون إليها هذه دعا إليها أسلافكم، لكم لستم أئمتها ولذلك قال ﷺ: (حتَّى لو دَخلوا في جُحرِ ضبٍّ

لاتَّبعتموهم)[٦٨] فالقضية في ناس دخلوه من قبل، ومارسوها من قبل. فالبشرية لا تتطور، الذين يُحلِّون تشريعات اللواط لا يفهمون، هم الذين قالوا للوط –عليه السلام-: {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} هم وضعوا قانونًا، نفس الشيء؛ ممنوع أن تستقبل الضيوف وإذا استقبلتهم كذا وكذا. وكذلك في الفجور: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ}، الربا نفس الشيء، الكذب نفس الشيء وهكذا، فالبشرية لا تتطور.

هذا قلناه لأنه عندما يقول الله لنا خبرًا عن أمم سابقة فلا يقول أحد: "نحن عن أمة أخرى"!، فالبشر هم البشر، والآيات الكونية ليست قاطعة في قضية إيمان البشرية بل هم {إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} فلا بد من النَّكْث.

إذًا العلة الأولى أو السبب الأول الذي طلبوه: هو التعنت وهذا تشرحه الآيات وشرحناه في الآيات الدرس الفائت. لكن هناك سبب آخر في طلب الآيات، ما هو؟ نفتح سورة الإسراء ونرى لماذا يطلبون الآيات صفحة (٢٩١) آية (٩٠) وما بعدها، انتبهوا لهذه المطالب، تأملوا معناها: {وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا}، جماعة في مكة ما عندهم ماء وعندهم مشاكل وصحراء {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا * أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا *أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ} إذًا ما هي مطالبهم؟ مطالبهم من أجل شهواتهم، من أجل تغيير أحوالهم، فهم ربطوا صدق النبوة بما يتحقق لهم من منفعة دنيوية سريعة وعاجلة. إذًا مطالبهم يريدون منها تغيير أحوالهم ليس من خلال العمل وإنما من خلال الآية الكونية التي تنزل فتغير أحوالهم، فيكونون في حال وينقلبون إلى حال غيره.

وهذه حجة هؤلاء الكفرة وهي حجة الزنادقة في هذه الأيام، الزنادقة مراتب في زماننا هذا؛ ناس صريحون، أكثر ما يُوجدوا في إيران وتركيا وظهروا في تونس وفي مصر، وهم الذين يقولون: "أن الإسلام هو السبب فساد الأمم، ولا نريد الإسلام"، يعني الزنادقة الإيرانيون الكفرة وكذلك الأكراد والأتراك. الإيرانيون الفُرس عَبَدة النار هل تعرفون لماذا هم أكثر الناس أخذًا للعلم في تاريخ أمتنا؟ يعني أكثر الناس أخذوا العلم من تلك المنطقة

---

[٦٨] صحيح البخاري: (٧٣٢٠)، صحيح مسلم: (٢٦٦٩).

والعلماء اشتهروا فيها، هذه أصفهان في كتب اسمها (أخبار أصفهان) لعلماء كبار ثقات مُحدِّثين، كانت أصفهان التي هي سيخرج منها سبعون ألفًا من أعوان الدجال اليهودي، التي حوَّلها الروافض وقتلوا أهل السنة، فتحوَّلت من منارة كانت تُضاهي بغداد في نشر السنة والعلم، تصور هذه البلاد كم ظهر فيها من العلماء!، لماذا؟

السبب أن دين المجوس كان يمنع العلم إلا على طبقة معينة، فقط هم طبقة سدنة النار وأبناء الملوك، أما البقية فهم همج رعاع. هؤلاء لشوقهم وشغفهم وحبسهم الطويل عن العلم جاء الإسلام يقول: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} هذا العلم مبذول لكل الناس (بلغوا عني ولو آية)[٦٩]، {فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ} انطلقوا إلى العلم فصنعوا أمجادًا عظيمة من العلم.

طبعًا نحن العرب قبل الإسلام كنا أسوأ، فلا يأتي واحد قومي يقول: "قبل الإسلام كنا عظماء"، كنا لا شيء!، كان الفرس والروم يستكبرون عن إرسال حاكم من فارس أو من الروم ليحكم الجزيرة العربية؛ لأنها أهون وأدنى من أن يُرسَل إليها هذا الوالي. فهؤلاء الأتراك أصلًا جاؤوا من شرق آسيا قبائل همج رعاع لا قيمة لهم ودخلوا الدين وأسلموا؛ لأنه لا يوجد في تاريخ البشرية منذ آدم إلى اليوم أمة انهزمت فصارت بالدين الذي دخل به الهازم إمامًا على المنتصر إلا أمة الإسلام، لتعلموا قيمة الإسلام في حياة البشرية وماذا صنع الإسلام في العالم، يعني الأصل أن المنتصر يدخل على المهزوم فيسحقه، يقتله ويسلب ماله كما يصنع ما يُسمونه "الاستعمار" كذبًا واسمه "استحمار"؛ الاستعمار من التَّعمير، فيأتي هذا الاستحمار على بلد فيقضي عليه ويسلبه ثرواته.

العجيب في أمتنا أن الأمة المسلمة الصحابة العظام الأولياء أهل النور والتقى دخلوا الأمم فأسلمت الأمم بنورهم، فصار هذا المهزوم إمامًا بعد ذلك على أبناء المنتصر. والدليل الأتراك، والدليل المماليك، وهكذا. هذا علامة أن هذا الدين كما قال ﷺ: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا)[٧٠] الكتاب هذه هداية.

---

[٦٩] صحيح البخاري: (٣٤٦١).

[٧٠] صحيح مسلم: (٨١٧).

فهم هؤلاء الزنادقة هذه طبقاتهم، كما يقول المجرم جلال طالباني -رئيس الحزب في كردستان-: "جاءنا الإسلام بالإبل"، فالرجل يقول لا نريد الإسلام. وبعض هؤلاء في الدول العربية ظهروا، في تونس موجودون يكرهون الإسلام يعلنون ويصرحون: "الإسلام هو سبب فساد البشرية، لا تقولوا لنا تأويل الإسلام غلط، الإسلام نفسه باطل"، هؤلاء زنادقة صريحون، وهؤلاء أعداء للدين وأعداء الملة.

لكن هناك ناس أكثر ذكاءً يقولون:" ليست المشكلة مع الإسلام، ولكن المشكلة مع تفسير الإسلام"، هم في النهاية لا يريدون إسلامًا، لكن على قاعدة رودنسون وهذا فيلسوف فرنسي كان صديقًا لجمال الدين الافغاني ومحمد عبده لما نُفيا إلى فرنسا، فقال: "لا يستطيع أن يقضي على الإسلام إلا الإسلام نفسه"؛ لا بد أن نُوجد إسلامًا من داخله ينافس الإسلام، أما أن تأتي للإسلام مصادمة ستفشل، هذا الدين مغروس في القلوب لكن ميّعهُ، ارفع شعارات متعددة. وقضية إنشاء المؤسسات البديلة والشعارات البديلة والإسلام البديل أين تجدونها في القرآن؟ {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} مسجد!، إنشاء هذا فن، وهذه الشَّيطنة هي أعظم ما يُنتجه العقل، تتكرر ولا يُمكن أن تبطُل هذه الحيلة أبدًا، وهي أعظم من حيلة قولهم: {آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ} هذا في الأول نصف مؤمن ثم يكفر ثم خلاص يكشفون أمره، لكن مسجد! طبعًا تحت المسجد ضع: بشر، مفتي، شيخ، قائد، تنظيم، دولة، عالِم، طربوش، مؤسسة، ضع كل شيء أنت تستطيع أن تتخيله، وهذا لا ينتهي، ولا يستطيع أحد أن يُوقِفك.

فهذا لا بد أن يكون من الدين نفسه، مسجد لم يفتح كنيسة؛ لأنه لو فتح كنيسة سيظهر أمره، لو جاء ببِيَع لليهود مكشوفة، ولكنه فتح مسجدًا. هذه المؤسسات البديلة، تحت شعار أنه يجب أن يُفتح لها باب من الثقافة والفقه الإسلامي الذي علينا أن نفقهه وهو إيجاد الإسلام البديل. فهؤلاء الزنادقة لا يقولون بأننا نريد أن نُبطل الإسلام وأن نرد عليه، يقولون: نحن نريد أن نفهم الإسلام فهمًا جديدًا، هذا فهم قديم، هذا فهمكم. أو عن طريق إبطال الإسلام عمليًا، هكذا يقولون: ما الإسلام الذي تريدونه؟ الإسلام في القلب. أين الإسلام

الذي يعيش في الحياة؟ أين الإسلام الذي {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}؟ هذا لا وجود له، لأن الإسلام هو علاقة الإنسان بربه، لأنك لا تستطيع أن تحسم ما هو الإسلام الصحيح.

فهذه طبقة أخطر من الأولى، الأولى واضحة بيّنة، أما هذه أخطر لأن فيها مساجد، وفيها أئمة، وفيها طرابيش، وفيها دكاترة شريعة أيضًا!.

إذًا لماذا طلبوا هذه الآيات؟ أولا: تعنتًا. ثانيًا: ليصلح لهم الحال. كيف نطبقها على واقعنا؟ يقولون ما الإسلام الذي تريدونه؟ الإسلام أوصلنا إلى كذا، الإسلام لم يصلح أحوالنا، الإسلام لم يقع كذا وكذا، وهذا هو كلام المنافقين. هذا أين نجده في القرآن؟ أنا قرَّرت ألَّا أستعين بالأحاديث إلا للبيان فقط؛ حتى نتعلم أين نجد هذا في القرآن؛ لأن هذه هي الطريقة التي نريدها، حتى نعرف أن القرآن هو مرآة البشرية في نفوسها وأحداثها وأعمالها وأحكامها وأخبارها، القرآن هو المرآة التي ترى البشرية فيها نفسها ويرى الوجود نفسه، ولا يمكن أن نعرف الغيب إلا من خلال هذا القرآن.

هذا أين نجده في القرآن؟ افتحوا سورة النساء لنرى المنافقين، وهؤلاء المنافقين من هذا النوع تجدون خطابهم راقيًا، افتحوا صفحة (٩٠)، وهذه الآيات أنبهكم ارجعوا إليها وستجدون كلامي صحيحًا هي في سياق الجهاد، عند قوله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} فتمشي هذه الآيات وفي سياق ذكر آيات الجهاد: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ} فتح لنا حالة من حالات طائفة من طوائف الإسلام -وليس الكفر- في تعاملها مع هذه الحالة وهي حالة الجهاد.

يفتح لنا قوسًا يقول: انظر في داخل هذه المعمعة في الحديث العظيم عن الجهاد انظر إلى قوله: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ}؛ لأن مشكلة الموت هي مشكلة المشاكل مع أوامر الله، ونصف سورة آل عمران في غزوة أحد هو حديث عن الموت، وخُتم الحديث في سورة آل عمران عن غزوة أحد قوله: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا} تقريبًا ثلث سورة آلِ عمران حديث عن أحد والذين قالوا والمصيبة و{وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ} وإلى آخره، فكانت الخاتمة في هذه الآية الجليلة العظيمة {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} مع أنه يعالجهم ويقول لهم:

{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} ويعالجهم هناك في سورة آلِ عمران يقول: {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ} ما قال الموت، يعني الذي يهرب من القتل يمكن أن يموت، فيكون نوع موته شيئًا آخر غير القتل. لكن لما يكتب الله عليك الموت بنوع معين فهربت منه في موطن ماذا سيكون نوع موتك في الموطن الآخر الذي هربت إليه؟ هو القتل، قال: {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ} هربوا من القتل سيقع عليهم القتل في مضاجعهم. انظر قال: {أَيْنَمَا تَكُونُوا}، قضية الموت يا أخي في سياق الجهاد دائمًا تُطرح.

قال: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} هذا خطاب مؤمن أم غير مؤمن؟ هذه مهمه جدًا، لا يفاجئك بالكفر مرة واحدة ولا بالنفاق من أول لفظ، لا بد أن يقول لك مقدمات بها تقبل كلامَه الذي يَعقبُه، فهم في الأول نسبوا الخير إلى الله، لكن لما جاء الشر قالوا: الشر منك، كيف الشر منك؟ أنت الذي أتعبتنا، أنت جعلت هذا يحصل لنا، أنت طردتنا وخربت بيوتنا، أنت الذي أخربت مزارعنا، أنت الذي قتلت، أولادنا أنت الذي جعلتنا نُتخطَّف في الأرض مثل بئر معونة وغير ذلك، قال: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ}.

ولذلك هؤلاء الذين يقولون أن الدين لا ينفع لأنه لا يُغيِّر حياة الناس حتى تأتي الآيات، ما الدليل على صدقك؟ نتكلم عن الكفار هنا، أما بين المسلمين فيتحدث مشاكل كثيرة لها حلولها في القرآن، بين المسلمين وأخطائهم ومشاكلهم ومصائبهم وخصوماتهم، حتى تصل إلى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} كل هذا موجود في القرآن، لكن أتحدث عن الزنادقة هنا، الذين يقولون: ما الذي يُثبت أنكم على الحق؟ كيف نثبت له بأننا على الحق؟ ما هو دليلك أنت أيها المسلم في سياق هذه الآيات أمام الزنديق أن الإسلام على الحق؟

قلنا أن أعظم دليل في القرآن على صدق نبوة الأنبياء هو نصر الله لأنبيائه، هذا أكبر دليل؛ رجل واحد في الصحراء كل الناس أعداؤه، ثم بعد ذلك ينمو هذا النَّبْت الإيماني العظيم الإلهي الذي يرعاه، حتى يدخل مكة فتُطأطئ له، ثم تسيح جنود هذا الرجل حتى يبلغ الخافقين. هذا فعلٌ لا يُمكن أن يُرصد إلا من خلال تفسير واحد: أن الله معه. ويُكاد له كل الكيد، وتُجمع له كل الجموع مثل الأحزاب وغيرها، ومع ذلك ينتصر، هذا أعظم نصر، كما قلت لكم سابقًا أعظ من نصره لنوح، ونصره لهود، ونصره للوط، وهكذا، هذا أعظم بكثير.

فما هو أعظم دليل على أن الدين حق في هذه الأيام؟ هل ترون دينًا على ظهر الأرض يُحارَب كما يُحارَب الإسلام؟

الأعداء لخبرتهم في الشر أذكياء، أذكى حتى من آبائهم وأجدادهم في الشر، يُطلقون الشر ويُطلقون معه الحافظ له، موانع إزالته، ومن ذلك ما يُسمى "نظرية المؤامرة"، أطلقوها، والمؤامرة موجودة، والقرآن يُثبتها اذهبوا إلى سبأ تجدون الحل، صفحة (٤٣٢) وليأتِ واحد يقول: هذه لا تدل عليه، انظر إلى قوله، القرآن يقرر أن الكفار قالوا: {لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، بعد ذلك الله أوقف المستكبر والمستضعَف، المستضعَف قال: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ} وحوار الكفرة والمستكبرين كثير في القرآن، وحوار أهل النار في النار كثير في القرآن، تعقُّبوه فيه عظمة وفيه هداية لمن كان في قلبه ذرة من تقوى أو ذرة من وعي على حياته. فهؤلاء يرجع بعضهم إلى بعض، انظر ماذا تراجع هؤلاء القوم: {يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا **لَوْلَا أَنْتُمْ** لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} هذه ممكن أن يُنازع فيها أحد بالرغم من أنها واضحة {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْر اللَّيْل وَالنَّهَار} الجماعة مجتمعين وعاقدين اجتماعات اسمها "خلية الأزمة" ليلًا ونهارًا {بَلْ مَكْر اللَّيْل وَالنَّهَار} لا ينامون بالليل بينما نحن ننام، {بَلْ مَكْر اللَّيْل وَالنَّهَار إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ}.

فماذا فعلوا؟ هذه النظرية اخرجوا معها بعض الدخان، وهو الاستهزاء بمن يقول بها، يعني لما تقول أنت: يُخطِّطون، يقولون لك: من أنت ليُخطِّطوا لك؟ أنا أريد أن أسأل: نيكسون لما أخرج كتابه (نصر بلا حرب) ما كان هناك إسلام، ويل ديورانت صاحب كتاب (تاريخ الحضارة)، هذا مرجع لكل قرَّاء التاريخ في الغرب، هو أبو التاريخ في الغرب المعاصر، هذا رجل كتب كتابه ربما قبل ١٠٠ سنة أو أقل قليلًا، قال أن الأمة الوحيدة التي يكمن فيها عوامل نشوء حضارة ضد حضارة الغرب هي الإسلام؛ لأنه هو الدين الوحيد الذي يصبغ توابعه بعقيدة الاستعلاء، العزة.

نرجع للغة، الحضارة في لغة الغرب بالإنجليزي مأخوذ أصلها من الزراعة (culture) والثقافة (culture) وهكذا، فأصلها الطعام والشراب وهكذا. لكن العرب (الحضارة) من أين أخدوها؟ من (الحضور) والحضور لا يقع إلا بالغلبة والقوة والسطوة والحق، فكان معنى الحضارة في داخل لغة العرب أشرف وأعظم من معنى الحضارة في لغتهم قبل أن توجد واقعًا حتى في تصوُّر كلمة (الحضارة).

فهو يقول هذا والإسلام مُهان ومُستضعف وحالته لا يعلم بها إلا الله، ومع ذلك يقول لك الأمة الوحيدة التي يكمُن فيها عوامل نشوء الحضارة لتقابل حضارة الغرب هي الإسلام؛ السبب: أنه لا يمكن أن تنشأ حضارة تقفز على الآخر فتحضُر عنده إلا إذا كان عند أصحابها عقيدة الاستعلاء، العزة.

ولذلك يقول ويل ديورانت أن أفريقيا ما خرج منها حضارات؛ لأنه ليس عندهم هذا النَّفَس، ليس عندهم شعور العزة. قال والهند أيضًا إلا لما دخلهم الإسلام، محمود الغزنوي، لكن قبلها لم يكن يخرج حضارات. بخلاف الأمم الأخرى فعندها شعور الاستعلاء، انظر للإنسان الأبيض الغربي عنده شعور الاستعلاء العنصري، لكن فرق أن يكون عندك شعور الاستعلاء لإيمانك ودينك، وشعور الاستعلاء لأن جيناتك أحسن. هذا قذر وذاك عظيم.

فأخرجوا معها -كما قلنا لكم- الاستهزاء بمن يقول بنظرية المؤامرة، وهم يعلمون ولكن يؤجّلون، وإلا فالإسلام قادم رغم أنف مَن قَبِل ورغم أنف مَن عارض، والإسلام آتٍ وبإذن الله -عز وجل- ستزول هذه الغربة.

إذًا ما هو سبب طلبهم للآيات؟ أولًا: التعنت، وثانيًا: يأتي هذا العلماني فيقول: أنا لا أعترف بالإسلام حتى توجد آيات كونية له على ما قاله مشركو قريش.

نرجع للآية، {وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} قلنا: إما أنهم طلبوا ملكًا ليكون رسولًا، وهذا موجود في القرآن، وإما أنهم طلبوا معه ملك، والأمران في سورة الفرقان، نرجع لسورة الفرقان، الفرقان قبل الشعراء وبعد النور، هناك فن من فنون القرآن اسمه (**علم المناسبة**)؛ يعني: ما مناسبة ذكر هذه السورة بين هاتين السورتين؟ كما أن هناك المناسبة لذكر الآية بعد الآية. هذا فن من علوم العلماء العظام.

ماذا قال المشركون في سورة الفرقان؟ في الحقيقة هنا رد القرآن على طلبهم عظيم، عظيم جدًا، انتبه إليه ودقِّق، ألقِ بسمعك، تأمل، تذوَّق هذا القرآن؛ لأنك كلما تذوَّقته زاد إيمانك، تزداد محبتك له، فإذا ازددت محبة لكلام الله ازددت محبة لله، وكلما ازددت محبة لله ازددت عبادة له، وقربًا له.

{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ} اعترضوا على شخصيته، أنه يأكل ويشرب، ولا يمكن تحقُّق المِثال إلا بهذا، لا يمكن تحقق المثال بأن يقتدي به أتباعه إلا بأن يكون مثلهم؛ يأكل ويشرب، ويأتي أهله، ويجوع ويعطش، ويُضرب فتُكسر ثنيَّته، وهكذا.

{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ **لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا**} إذًا هنا طلبوا أن يكون معه ملك من أجل أن تحصل النِّذارة، قالوا: {فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} يعني الآن كما تخرج الدابة في آخر الزمان لأن العالم خلاص يختلف في آخر الزمن، ويُغلق باب التوبة. فالدابة التي تخرج في آخر الزمان ماذا تفعل؟ خلاص تأتي على الرجل أنت كافر أنت مؤمن وانتهى الموضوع. فيريدون أن يكون معه نذيرًا فيقول له: آمن بي، فإذا آمن به أدخله معه، وإذا كفر أنذره فمات أو قتله، أو صنع به ما أنذر به النبي، {فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} أي: يفعل المَلَك ما أنذر النبيُّ قومَه به مباشرة.

قال: {أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ} هذا نفس معنى ما قاله في سورة الإسراء، حتى يلحقه الناس، الناس تقول لهم تعالوا هذا رجل عنده علم وأخلاق وعنده تربية، كم الذين يتبعونه؟ لكن لو الآن جاءنا خبر، أن هناك رجلًا يوزِّع ذهبًا في الخارج، يقع علينا قوله تعالى: {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} هذا إذا أنا لم أخرج أول واحد!.

قال: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} ما الرد؟ تأملوا بالله عليكم هذا الرد العظيم، أين نقل الصورة والمشهد والحوار والكلام والمناظرة والمجادلة، كأنهم لم يكونوا موجودين، أغفلهم في كل كلامهم وذهب ليس إلى علاج ما يقولون، ولكن إلى علاج نفسيَّة المُخاطَب وهو رسولنا ﷺ؛

لأنه هو المهم، ماذا قال له الله -عز وجل-؟ قال: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ}، أنا أعجب كيف كانت هذه الآيات تقع على قلب رسول الله ﷺ! مع اليقين الكامل، كيف كانت تقع؟!

هذا الشيء عجيب، ولذلك لما كان النبي ﷺ كان في حالة ترقٍّ دائمٍ في الإيمان والمعرفة الإلهية، الكمالات لا نهاية لها، حتى رسولنا ﷺ هو يرتقي في كل لحظة، ولذلك هو محمد ﷺ، فتصوروا وقوع هذه الآيات على قلب صاحب هذه الآيات حين تنزل عليه، ويقول: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} يا إلهي!

فكيف نقل ربنا المشهد العظيم من حوارٍ معهم لا قيمة له إلا أن يُبين خسَّتهم ونذالتهم وتعنتهم وقذارتهم، قَلَب هذا المشهد كله إلى أن يُلقيَ عليه مشهد ماذا سيكون لك يوم القيامة، وهناك قاعدة: **لم يُصِب رسول الله ﷺ شيئًا من المكارم إلا ولأمته جزء منها**؛ لا يكون هناك خطاب في القرآن لرسولنا ﷺ إلا ولأمته لمن سلك سبيله جزء منه، فقال سبحانه: {تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا} والقرآن يقول: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً * إذا رَأَتْهُمْ..} القرآن أهم ما عنده هو الذي يؤمن به، ولذلك القرآن يُقرِّر أن الذكرى تنفع من؟ المؤمنين، هو يَعرض هنا فقط من أجلك أنت، القرآن لا يجري للكفرة من أجل أن يستعطفهم، هذا الخطاب للمؤمنين فقط، خطاب ذكرى فقط لأهل الإيمان. فأيُّ كلام يقوله عن الكفرة يقوله من أجله أنت حتى تستبصر، أيُّ كلام يقوله عن عذاب الله حتى أنت تجتنب ما يفعلون، أيُّ كلام في الجنة لك من أجل أن تقوى في إرادتك حتى تأتي هذه الأمور، خطاب لك أنتَ فقط.

انظر إليه في سورة هود كيف يخاطب رسوله، وهذا يدلُّكم أيها الإخوة الأحبة -باختصار سريع جدًا- على عظم مَهمة حمل أمانة الرسالة، تصوَّر هذا؛ أن يُنزل الآيات ويُريه ويرحل به ويخاطبه من أجل أن يقوى على حمل مهمة الرسالة، وأن لا يتنازل عنها، {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ} هذه تقال لمن؟ تقال لرسولنا ﷺ الذي ليس على الغيب بضنين، ويقول له القرآن: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ **كِدْتَ** تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ **شَيْئًا قَلِيلا**} هذا الشيء القليل هو حوار معركة الإيمان مع الكفر. لأن الذين ارتدوا في سورة محمد، بمَ ارتدوا؟ هل

ارتدوا بترك الدين كليًا؟ قالوا الدين كله غلط؟ اقرأوا: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ} لماذا؟ {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي **بَعْضِ** الْأَمْرِ} بعض!. وفي سورة المائدة {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ **بَعْضِ**} المعركة على البعض؛ يُعطيك أشياءً كثيرة هو، يفتح لك المساجد ويدعمك ويسمح لك، ولكن في بعض، في جزء هذا لا يسمح لك فيه.

ففي سورة هود انظر للخطاب، هذه مهمة لك، فلما ترى أنك مرتاح وليس عندك مهمات، ومشاغلك فقط بكم ربحت التجارة اليوم وهكذا، فاعلم أنك من الهمج الرعاع، لا قيمة لك. لما تعاني في كل يوم صبرًا في الدعوة إلى الله، وتلاقي في سبيل كلمة الحق، والمفاوضة عليها من أجل التنازل عنها، والحرب، وأنت بعد ذلك تذهب إلى القرآن، فاعلم أنك على سبيل الأنبياء، وما وُعِدَ به الرسول أنت موعود به.

تعرفون لماذا ربنا -عز وجل جلَّ في علاه- أخذ الرسول ﷺ إلى السماء؟ مع ما حصل من خيرات أخرى عظيمة، ذلك لأن رسولنا ﷺ حَزِن، أصابه عام الحزن، تعب، لا أحد يُعينه من البشر. الله قال له تعال، الناس لا يحترمونك، تعال لترى احترامك في السماء، تعال لترى الملائكة تسلم عليك وتعرفك وتراقب أخبارك، تعال هنا لترى من أنت!.

ولذلك في سورة الإسراء قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} حتى لا تشعر أيها المسلم بالغربة وأنت تُسبِّح والناس ساكتون لا يعرفون دين الله، وتعرف الحقيقة والناس يجهلونها أو يُعادونها، فلا تشعر بالغربة؛ لأن الأحجار تُسبِّح بتسبيحك.

كل هذا حتى لا تهتم بما يقول الكافر عن الإسلام، ماذا يقول أهل الضلالة في الحق، لا تهتم له ولو وقفت الدنيا كلها في وجهك في سبيل بيان كلمة الحق قُلها لا تخف، ولو خالفك كل الناس، لا تكن كالبقر تمشي بنظام القطيع. ولذلك أُسمي أنا سورة غافر "سورة الفَرَادة"، تعرفون معنى الفرادة؟ سورة غافر لها اسم آخر، تسمى "سورة المؤمن"؛ لأن فيها مؤمن آل فرعون، هذا الرجل الذي خرج من بيئة قومه في المُلك والسلطان وبدأ يصدع بكلمة الحق، هذا الفرادة، الإيمان هو فرادة، الإيمان لـمَّا يُطرح في القرآن -وهذا من فقه القرآن- في

السور يُطرح بصورة فردية أم بصورة جماعية؟ في سورة يس كم آمن؟ مؤمن آل فرعون كم آمن معه؟ فالقرآن عندما يطرح الإيمان يطرحه بصورة الفرادة، وأما الجُموع فهذه علمها عند ربي في كتاب.

نختم بسورة هود وانظر الرفعة الإلهية لرسولنا، أول السورة صفحة (٢٢٢) ، انظر إلى خطاب القرآن لرسولنا من هو الإنسان؟ انظر إلى خطاب القرآن يُعرِّفُك ما هو الإنسان، الذي تراه يلبس بدلة ومضبط، إيش هو الإنسان هذا؟ القرآن يكشف من هو هذا، الذي تظن أنه في ثبات وفي قوة ولا يجزع. فانظروا الرِّفعة الإلهية لرسولنا كيف يرفع القرآن مستوى التحدي والثبات والصبر، انظروا إليه، فبعد أن يطرح القرآن صورة الإنسان في حقيقته {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ...} بعد ذلك: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ}، ماذا قال القرآن؟ {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} لماذا يقول: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}؟ لماذا يضيق صدره؟ لتخلُّف هؤلاء البشر عنه، هذه نوعيتهم، وهذه طريقة تربية القرآن، فالقرآن كأنه يريد أن يقول له: أبمثل هؤلاء الناس تتأثَّر؟ أبمثل هؤلاء البشر تترك الهدى؟ {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا} هذه النوعية من البشر هذه هي صفاتهم؛ يجزعون يخافون يجبُنون وهكذا، يقع منهم التردُّد ويقع منهم الشك، يقع منهم الخوف، إلى آخره. أبمثل هؤلاء القوم بمثل هؤلاء الناس تترك الحق؟!

ولذلك حالة الإيمان حالة فردية وكلما كنت فردًا كنت أمة، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} لماذا؟ لأنه لم يكن على ظهر الأرض إلا هو وزوجته مؤمنون، وقال ﷺ: (رحمَ اللهُ أبا ذرٍ ؛ يمشي وحدَه، ويموتُ وحدَه، ويبعثُ وحدَه)[٧١]؛ لأنه هو له فهم خاص أراد أن يحمله على أشد ما تحمل النفس طاعتها.

هنا في الآية: {أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ} هذا كذلك دليل على ما نحن فيه، أنهم طلبوا معه ملك كما تُري الآية. بيَّنا ما معنى {قُضِيَ الأَمْرُ}. قال: {ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ} يعني إذا نزل الملك لا يردُّه رادٌّ، {وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ} فالله لم يُنزل ملائكة حتى يأتي وقتهم، فإذا حضر الملائكة حينئذ يحصل ما حصل مع إبراهيم، إبراهيم –عليه

(٧١) ضعفهُ الألباني في السلسلة الضعيفة وفي ضعيف الجامع.

السلام- لما مروا عليه -وذُكرت هذه في سورة هود، وذُكرت في سورة الحجر، وفي سورة العنكبوت- ماذا قالوا له؟ في سورة هود: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا}، {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} ثلاثة صفات. كان هناك أعرابي من اليمن سمع قوله تعالى في سورة النساء -والحديث في الصحيحين-: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} لما سمع هذا المدح الإلهي لإبراهيم، قال: "هنيئًا لأمه به والله هنيئًا لأمه به يا قوم".

فلذلك لما مروا عليه قال: {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} حتى لا ينزل عليهم العذاب وهذا من رحمته، ولغيابه عمَّا يرى، وقد قيل: "ليس من رأى كمن سمع"، فلما موسى -عليه السلام- أخبره الله: {إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}، لكن لما جاء وشافهم بيعبدون العجل {وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}، لماذا وقع منه هذا؟ لأنه رأى، في الأول ما رأى فقط سمع. ولذلك إبراهيم ما رأى الذي فعله قوم لوط فجاء يُجادل {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} ومع ذلك الله مدحه {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ}، فإذًا هذا معنى {وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ}، قوله تعالى: {لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ} أي: لا يتوقَّفون لحظة عن نزول العذاب إذا جاءتهم الملائكة.

ثم نأتي إلى قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا}، والحمد لله انتهت الصفحة الأولى.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الخامس عشر

الحمد لله، حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق، وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا وقائدنا وسيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهينا مع قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ}.

رأينا في هذه الآية ما تقدم من الكلام أنهم طلبوا معه ملكًا، لتقع النذارة بالملك؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يُعذِّب، فيكون معه ملك يُعذِّب العاصي ويُثيب الطائع للحظته. وهذا من الضلال؛ لأن الله -عز وجل- له سنن في الإهلاك، وله سنن في الإكرام. و**الناس يتركون الطاعات بسبب تأخر الأجر، ويتركون الأعمال بسبب محنة الله للعبد في تأخير العطاء**، وأعظم العبادات التي تُترك مِن قِبل المسلم لتأخر أثر هذه العبادة هو **الدعاء**.

الدعاء لا يمكن أن يُرد إذا اكتملت شروطه، الله -عز وجل- كتب على نفسه أن يُجيب كل دعاء، وله سنن في هذا. لكن ما الذي يحدث؟ الذي يحدث أن الإنسان يستعجل؛ فقال ﷺ: (لا يزالُ يستجابُ للعبدِ ما لم يدعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحمٍ، ما لم يَسْتَعْجِلْ). قالوا: "كيف يستعجل يا رسول الله؟" قال: (يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيبُ لي. فيستحسرُ عند ذلك، ويدعْ الدعاءَ)[٧٢]. تأملوا الحديث؛ لأن كثيرًا من الناس لا يتأملون ألفاظ الأحاديث فتختلط عندهم المعاني، وأقول: هذا من أَجلِّ ما ستفهمونه في هذه الجلسة، إذا فقهتم هذا كأنكم حزتم خيرًا عظيمًا، أعظم مما يُعطى أهل الدنيا، لو أن رجلًا رجع اليوم بملايين الدولارات، فهذا والله أَجَلّ.

في الحديث: (أفلا يغدو أحدكم إلى المسجدِ فيُعَلِّمَ أو يقرأَ آيتيْنِ من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ خيرٌ لهُ من ناقتيْنِ)[٧٣]؛ تعرفون الناقة ماذا تعني؟ فهذا أفضل من أن تُعطى أفضل سيارة اليوم؛ لأن الدابة -الناقة- ليس لها منفعة الركوب فقط، بل لها منافع عظيمة أخرى عند العرب، فهذه الآية خير، لكن هذا لمن يفقه.

---

[٧٢] صحيح مسلم: (٢٧٣٥).

[٧٣] صحيح مسلم: (٨٠٣).

ويقول: (يستجاب للعبد ما لم يستعجل فيترك الدعاء)؛ لما الإنسان يقول: "يا الله"؛ دعا فتحقَّق الدعاء؛ فسواءً ترك الدعاء أو لم يتركه فإنه ينبغي أن يُستجاب له اليوم أو غدًا، أليس كذلك؟ فكيف يقول: (يستجاب له ما لم يستعجل؟)؛ بمعنى أنه إذا ترك الدعاء لم يوجب الله له الدعاء في أوله. إذًا لماذا يُطلب منه دوام الدعاء لتقع الإجابة؟ إذًا المطلوب من أجل أن تقع الإجابة، ليس الدعاء مرة، لماذا؟ هذا ما نريد أن نفهمه في هذه الجلسة.

لماذا لا يُجيب الله -عز وجل- الدعاء من أول مرة؟ ويقول له: ادعو مرة ثانية، وتبقى تدعو وتدعو حتى يقع؛ فإذا دعوت مرة ومرتين وثلاثة، ولم تقع الإجابة فتركت فإنه لا يُستجاب لك، لا يقع المطلوب، أليس كذلك يقول الحديث؟ (يستجاب للعبد ما لم يستعجل)؛ يستعجل ماذا؟ الاستعجال: هو ترك الدعاء، يقول: دعوت مرة مرتين ثلاثة أربعة خمسة وكل يوم أدعو فلم تقع الإجابة؛ فيترك الدعاء، فلا تقع الإجابة، فهذا الاستعجال الذي يتعطَّل به إجابة الدعاء. ما معنى هذا الكلام؟

يُفسِّر هذا الكلام حديثان:

أولًا: حديث الثلاثة الذين دخلوا في الغار:

الدعاء قوةٌ غيبية عليك أن تفهمها كما تفهم القوة التي تشهدها في عالم المادة والشهادة، أنت ماذا تفعل؟ تحضر حبلًا وتحضر سيارة، فتسحب السيارة التي هي ثقيلة في الوادي، فتسحب فلا تتجاوب، فماذا تفعل؟ ماذا تقتضي الحكمة؟ تحضر سيارة ثانية فترتبط فيها الحبل وتسحب، فلم تستجب، فماذا تقتضي الحكمة؟ سيارة أخرى، فإن لم تستجب، هل تترك؟! ماذا تفعل؟ وهكذا تبقى تُحضر من القوى حتى يقع الفعل.

فالدعاء قوة، فلا بد من إحضار قوةٍ ملازمة أو مماثلة لما تريد من الفعل، فالدعاء قد يكون ضعيفًا لأول مرة لا يجيب إلا شيئًا قليلًا؛ فكيف يُستجيب؟ كما استجاب للثلاثة الذين دخلوا الغار؛ ثلاثة آواهم المبيت إلى غار، فنزل المطر، نزلت عليهم صخرة، أغلقت عليهم باب الغار، فقالوا: لا يُنجينا من هذا الذي نحن فيه إلا أن ندعو الله؛ الأول دعا، هل وقع الفعل؟ نعم، وقع لكن وقوعًا جزئيًا يلائم دعاءه؛ ففُتح الغار وتحركت الصخرة قليلًا، ولكن لا يستطيعون الخروج. فكان لا بد من سيارة أخرى؛ قام الرجل الثاني دعا دعاءً، فتحركت الصخرة ولا يستطيعوا الخروج، **حتى وقع من القوة في الدعاء مماثلة لما يُطلب من الفعل**.

هل استُجيب للأول أم لم يُستَجَب؟ استُجِب، انتبه للحديث: (يستجاب للعبد ما لم يستعجل)، استجاب لك لكن مازال هناك بقية. فالرجل الثالث دعا، فكانت الكفاية الملائمة للفعل، فتحركت الصخرة فخرجوا يمشون.

لما تقول للرجل: أنت حتى تمشي من هنا لوسط عمان، تحتاج إلى المشي. هل مُطلق المشي الذي يوصلك إلى عمّان؟ أم لا بد من مشيٍ مُعيَّنٍ بقدرة معينة ووصفٍ مُعيَّن؟ يقول لك: أنت تقول لي امشي لتصل عمان، ها أنا مشيت؛ فيمشي من هنا إلى باب المسجد. وقع المشي، لكن هل وقع المشي كفاية؟ نقول: لا بد أن تمشي مشيًا كفائيًا يحقق الفعل، المشي الملائم له في عالم السنن. وكما أن هناك سننًا في الدنيا هناك سنن في عالم الغيب. هذا مثال حتى نفهم الحديث.

الحديث الثاني: الله –عز وجل– قال عن العسل: {فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ}؛ فرجل استطلق بطنه فجاء أخوه للنبي ﷺ فقال: "يا رسول الله استطلق بطن أخي". فالنبي ﷺ قال: (اسْقِهِ عسلًا). فالرجل أمسك كمية عسل وأعطاه على ما استطاع؛ فزاد استطلاق بطن أخيه، فرجع للنبي ﷺ شاكيًا: "يا رسول الله زاد استطلاق بطن أخي". قال: (اسقه عسلًا). فرجع فشرب عسلًا زائدًا، فلم يقع إلا زيادة الاستطلاق؛ فجاء شاكيًا للنبي ﷺ وقال له: "يا رسول الله زاد استطلاق بطن أخي"، قال: (اسقه عسلًا)[٧٤]. فذهب فسقاه عسلًا فشفي.

فأين المشكلة؟ المشكلة أن العسل الأول لم يكن فيه كفاية، لذلك يُعطيك الطبيب دواءً ويقول لك: هذا الدواء يشفيك، فهل تأخذ أول حبة فترجع كما أنت أم تكمله؟ فلماذا نُطبِّق هذا في عالم السُّنن المادية ولا نطبقه في الأسباب الأخروية الغيبية؟! يقول لك في الحديث: (يستجاب لك)، انفتح الباب، أنت رفعت يديك للسماء فبدأ تحقيق الفعل؛ أنت مشيت ولكن أنت في عالم الغيب لا ترى، لا يوجد صخرة تراها تنزل. ففي عالم الغيب يتجمَّع هذا الفعل بسبب الدعاء، كل يوم تدعو تضع في الميزان شيئًا من الثِّقل الملائم لما تطلب، فيزيد ويزيد حتى إذا وقعت الكفاية من الدعاء وقعت الإجابة.

من هنا لا تقل: الله لم يستجب لي؛ لأنك لا ترى إلا عالم المادة، عالم الغيب فيه ملائكة، وعالم آخر عليك أن توقن به كما أخبرك به رسول الله ﷺ. تدعو مرة ومرتين وثلاثة وأربعة وخمسة، هذا الفعل عظيم يحتاج سنة من

---

[٧٤] صحيح البخاري: (٥٦٨٤).

الدعاء، سنتين، أربعة، خمسة، عشرة، ويستجاب لك. وكلما كان الدعاء قويًا كان ثقيلًا؛ الدعاء له أثر، فالعبرة ليست بالحجم ولكن العبرة بالنوع والوزن.

فالقصد يستجاب لك، لا يمكن أن ترفع يديك إلى السماء فتدعو الله ولا يستجيب لك؛ (إنَّ اللهَ تعالى حييٌّ كريمٌ، يستَحي إذا رفَع الرَّجلُ إليه يدَيهِ أن يردَّهُما صِفرًا خائبتَينِ)[٧٥]، هذه العبد لا يرضاها، فهل يرضاها الله؟! لكن لله سننًا لا بد أن تفهمها، هذا من أجل أن تبقى داعيًا، تدعو كل يوم، ادعو الله، ادعو الله، فلا بد أن يأتي.

هنا يعلمنا القرآن ما يسميه علماء البلاغة (**أسلوب الحكيم**)، هذا يقوله السكاكي -أحد أئمة البلاغة- يقول: "هذا أسلوبٌ الحكيم"؛ سنراه في القرآن رائعًا، هذا يعلمنا نحن كيف نتكلم؟ كيف نجيب؟ كيف نفهم القرآن؟

هم طلبوا قالوا: {لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ}، فقال: {لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ}؛ وانتهينا منها.

قال: {لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا}؛ هم في هذا الموطن لم يطلبوا مَلَكًا رسولًا، فبعد أن انتهى القرآن من ذكر قضية مشاركة الملك في وجود الرسول ماشيًا بجانبه؛ تكلم عن قضية إرسال الملك رسولًا، هذا شيء آخر. هم طلبوا أن يكون معه ملك، ولكن في الآية التي وراءها تحدَّث عن قضية لو أنه أنزل ملكًا رسولًا للناس، وهذه طلبوها، قال -سبحانه وتعالى- في سورة الإسراء: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً}.

وقلنا: هذا كله كذبٍ مِن قِبل التعنُّت، ولا يتحقَّق المثال والعبرة إلا بوجود رجل، {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ}، فقط الميزة بيني وبينكم أنه يُوحى إليَّ فقط، وإلا فهو رسول ﷺ بشر يأكل ويشرب ويتزوج ويكون له الأولاد، بل إن عنده ﷺ من المعاناة أشد مما عليك أنت أيها الإنسان العادي؛ (أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ)[٧٦]. النبي ﷺ وهو في مرض موته، هذا آخر حركة له في هذه الدنيا، لما رجع من دفن واحد من الصحابة دخل شاكيًا رأسه،

---

[٧٥] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (١٧٥٧).

[٧٦] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (٩٩٣).

فقالت عائشة له: "وارأساه"، قال لها: (بل أنا وارأساه)[٧٧]، وقال: (إني أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجُلانِ منكم)[٧٨]؛ عندما يتألم النبي ﷺ من مرض في رأسه، يصاب بألمٍ مضاعف عمّا تصاب أنت، لأن عليه البلاء أشد.

الناس من جهلهم، يظنون أن العطاء الإلهي يكون بأن يعطيه الله ويمدُّه ويوسع عليه، وليس كذلك؛ الله سلب رسولنا أباه، وسلبه أمه، لم يرزقه الولد. نصف سورة الأحزاب، التي في شطرها الأول، تتحدث عن أعظم فتنة أصابت مجتمع المدينة وهي فتنة الأحزاب، ويشطر القرآن السورة بين هذه الفتنة التي كادت أن تجتاح المجتمع النبوي، ويقرنها بمشكلته في بيته؛ فبعد أن ينتهي من قوله: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، قال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}.

أنا أريد أن أسأل؛ الإنسان عندما يطلب شيئًا جميلًا، هل يذهب إلى شيءٍ يتخيله أم إلى شيءٍ رآه؟ إلى شيءٍ رآه؛ يعني لو جئت بواحد في البادية، وقلت له: ماذا تريد من النعيم؟ فيقول لك: بيت شعر جميل ومفروش، وهكذا. ليس معقولًا يتخيل قصرًا من قصور الملوك في المدينة، لا يعرفها ولا يتخيلها. فلا يذهب اللسان إلا ما يتخيل الذهن، والذهن في النهاية محصور بما مرَّ عليه من أمثلة؛ ولذلك لما الله أراد أن يتحدّث عن نفسه، قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، هو غير كل شيء ترونه، فقطع هذا. ولأن الإنسان لا يمكن أن يذهب ذهنه إلا لما رآه، يظل يطوره قليلًا، ولكن في النهاية هو أسير ما يراه.

فتصوروا هؤلاء النسوة أمهات المؤمنين، ما هي الدنيا التي يطلبنها؟! مع ذلك الله يقول: إذا تعلقتن بالدنيا مثل هؤلاء الناس: {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً}، ثم الآيات حتى نهايتها وهي تتحدث عن البيت المُصغَّر العظيم الذي تتنزَّل فيه الملائكة: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}، هذا مصدر الوحي.

فالقصد أن أقول: هذا الرسول ﷺ وهو حبيب رب العالمين هو أعظم الناس بلاءً حتى في شخصه ﷺ، وحتى في بدنه، وحتى في طعامه، تسعة بيوت لا يجد فيها إلا الماء، وهو الذي خُيِّر أن تمشي جبال مكة وراءه ذهبًا، وأراد أن يجوع يومًا فيسأل الله، ويشبع يومًا فيحمد الله؛ فما بين السؤال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، بين الصبر والشكر.

---

[٧٧] صحيح البخاري: (٥٦٦٦).

[٧٨] صحيح البخاري: (٥٦٤٨)، صحيح مسلم: (٢٥٧١).

انظروا إلى يوسف –عليه السلام–، انظروا إلى أيوب، انظروا إلى يعقوب، الأنبياء حياتهم حياة البلاء، وهم بشر؛ فلذلك على الناس أن يقطعوا رغبتهم في أن ينزل عليهم الملك.

فبعد أن تحدث عن سؤالهم أن يكون معه ملك، أجابهم عنه ثم زاد، وهذا أسلوب الحكيم؛ مع أنهم سألوها في موطن آخر، ولكن ليس في هذا الموطن، فزاد بيانًا بأن قال لهم: {وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ}، لما تروا الملائكة لا مجال للتراجع، ولا مجال لإعطاء الوقت ولا للإنذار. ولكن تابع القرآن حديثه، بقوله: لو أنزلنا ملكًا رسولًا وهذه زيادة. هذا يسمونه أسلوب الحكيم.

ما هو أسلوب الحكيم؟ إما أن تُجيب أكثر من سؤال السائل، يعني ماذا سأل الصحابة، لما سألوا عن ماء البحر؟ سألوا عن الوضوء به فقط، لم يسألوا عن طعام البحر ولا غيره، فالنبي زادهم ﷺ، قال: (هو الطَّهور ماؤه، الحِل ميتته)[٧٩]. انظر هذه الحكمة القرآنية في أن يجيبهم فيما هو أجلُّ مما يسألون عنه، أو زيادة من أجلِ أن ينبههم إلى عظم شيءٍ، أهم مما سألوا عنه.

في سورة البقرة، قال سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ}؛ يسألون ماذا ينفقون؟ عن المادة التي يُنفقون أو النسبة التي ينفقون منها من أموالهم؛ القرآن لم يُجبهم على هذا، ذهب إلى شيءٍ آخر، وأجَّل جواب سؤالهم. أنا أريدكم أن تفتحوا المصاحف، حتى إذا مررتم عليها مرةً أخرى، وأنتم تقرؤون فيها تتذكرونها، صفحة (٣٣). ماذا سألوا؟ انتبه لم يُجبهم القرآن على سؤالهم، إنما أجابهم على أجلّ مما سألوا عنه، فلما نبَّههُم إليه أجابهم على سؤالهم بعد آيات، قال: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ}، ماذا ننفق يا رب؟ ماذا أجابهم؟ عن مصارف الإنفاق، لم يُجبهم عن ماذا ينفقون لأن هذا أجل؛ قال: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ}.

ولكن هل ترك الجواب؟ لا، لم يترك الجواب، أبقاه حاضرًا، من أجل أن يعودوا إليه.

لما واحد يجيء لك يقول: يا أستاذ! أصلح لي هذا الجهاز، وأنت تريد منه شيئًا آخر، تأخذ الجهاز منه، تقول له: قبل ما أصلح لك هذا الجهاز عندي مطالب، فهو مضطر أن يسمع، فيبقى حاضرًا ذهنه إليك، من أجل أن يقضي حاجته، خلال هذه المدة في حضور الذهن، عليك أن تستغلها.

---

[٧٩] صححهُ البخاري في كتاب (الاستذكار). وغيره جمع من السلف.

وهذا استخدمه يوسف -عليه السلام-، فلما هم سألوه وقالوا: {إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا}؛ هم ينتظرون الجواب، فهو رحل بهم إلى أمورٍ أهمّ من قضية تأويل الرؤيا، رحل بهم إلى قضية: {أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}، رحل بهم إلى الدعوة إلى الله.

فهذا أسلوب الحكيم؛ لأنه يُلقي إليك بذهنه مصغيًا مهتمًا أن يعرف ماذا يريد؛ فأنت انتبه! وأعطه ماذا تريد أنت وليس هو.

فهم قالوا: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ}، فأجابهم عن مصارف الإنفاق، ثم أجابهم عن هذا السؤال، في الصفحة التي بعدها، في قوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ}؛ وانظروا إلى حكمة الرب لم يضعها في آية مستقلة، ألحقها بآيةٍ تتعلق بأمر آخر؛ {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}؛ ما هو العفو؟ كل ما زاد عن الحاجة، والنبي ﷺ كما في الصحيحين من حديث أنس، "كان يقبل من أصحابه العفو"، يعني يقبل منهم ما يُقدِّمون، ولا يسألهم، {إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}؛ ولذلك: (إياك وكرائم أموالهم)[80]، لا تمتحنوها، النفوس لا تُمتَحن.

نذهب لسورة الأنفال صفحة (١٧٧)، عجيبة هذه السورة، عجيب كيف هذا القرآن يرحل بهم هذه الرحلة الطويلة عن سؤالهم، لا يجيبهم إلا في منتصف السورة. هم يسألون عن الأنفال، فالله أولًا جرَّدهم منها، لأنهم اختصموا فلا بد أن يُربيهم؛ أنت لما أولادك يختلفون على شيء اختلافًا غير جيد، ماذا تفعل؟

رضي الله عنهم ما في البشرية بعد الأنبياء أعظم أخلاقًا من أصحاب رسول الله ﷺ، لكن اختلفوا فيها وتقاتلوا، من الذي يأخذ الأموال؟ فقال: هذه ليست لكم، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}؛ فسلبها منهم، ليقطع رغبتهم فيها، ويؤدِّبهم من أجل إخراج هذه الأموال والأنفال من قلوبهم. ثم رفعهم في رحلة عظيمة، وشوق قلبي لا يتلاءم إلا مع عظمتهم، إلى ما ينبغي أن يهتموا له، وهو ماذا؟ {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}؛ انظر لهذا القرآن من أجل أن تعرف أن الصحابة من ربَّاهم، هذه التربية لم تبقَ فقط كلامًا يتردد في الكتاب، كل ما ورد في القرآن من أدبٍ وتربية وإعداد وأوامر إنما تمثَّلت بأصحاب رسول الله، لما يقول: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}؛ هل حصَّلوا هذا أم لم يُحصِّلوه؟ هل انتبهوا إلى أهمية هذا التنبيه القرآني فصاروا أهلًا له أم لا؟ بل أخذوه فورًا وتابوا إلى الله واستغفروا.

---

[80] صحيح البخاري: (١٤٩٦).

نحن اليوم قسَّمنا القرآن؛ آيات النار للكفار، وآيات الجنة لنا، وآيات الجهاد للصحابة؛ قتادة بن دعامة السَّدُوسي قال: "والله نِعم بنو العم لكم"، جاءت الآيات: {مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} و{الظَّالِمُونَ} و{الْفَاسِقُونَ}، وبعضهم قال: هذه نزلت في اليهود والنصارى.

فاعلموا أن هذه التربية تمثَّلت حقيقة، ووقعت في قلوب أصحاب رسول الله، كما يحب الله. فمتى أجابهم القرآن؟ سكت القرآن، وذهب في التربية الإيمانية، وفي التذكير ماذا وقع، بأن هذا النصر من عند الله وليس من عندكم، وآيات بدأت بـ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}؛ انظر الخطاب الإيماني كم مرة؟ خمس مرات متتابعات، ثم جاء خطاب إيماني آخر. ولكن خمس آيات متتابعات في خطاب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، هذه تنزل على من؟ على أصحاب رسول الله، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}، هذه واحدة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ}، هذه ثانية، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، لو لم يوجد صحابة يفسرون القرآن لنا لكان يأتي إليك واحد بطربوش على رأسه، تقول له: ما معنى: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}؟ يقول لك: يا أخي الذي يُحييك أن تأكل جيدًا وتلبس جيدًا؛ وفي {لِمَا يُحْيِيكُمْ} بإجماع المفسرين: الجهاد، الجهاد الذي فيه موت إحياء!

ثم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} وأعظمها ما خُتم به هذا الخطاب، وخاتمة المطاف لكل عابدٍ ولكل تقي: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا}؛ قمة ما يتحصَّل عليه العبد، أن يقذف الله في قلبه الفرقان، نور الهداية، بحيث يفرق هذا القلب ليس بين الشر والخير، فبين الشر والخير، تُفرِّق به القطة، وتفرق به الدابة، تفرق بين النار والقمح، تفرق بين البعر وبين الشجر. **لكن هذا الفرقان يُفرِّق بين خير الخيرين وشر الشرين**. أدق الشر الله يكشفه لك؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا}؛ هذا الذي يسعى إليه المؤمنون، ويحثُّون الخطى إليه جاهدين، بأن يتحصلوا هذه النهاية.

القصد؛ افتتح السورة بقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ}؛ متى تم الجواب؟ بعد هذه التربية الرائعة، وذكر خبر قصة بدر، وما وقع فيها، إلخ، في نصف السورة بالتمام حينئذ وقع الجواب، صفحة (١٨٢) آية (٤١)؛ قال: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ}، هذا أسلوب الحكيم يا مشايخ، وهو كثير في القرآن.

قال –سبحانه وتعالى-: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ...}، دائمًا الجعل بمعنى الصفة وليس في معنى الخِلقة، {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا}؛ أي لو جعلنا خِلقته ملكًا، وهذه تروها مثلًا لما قدَّمنا أن الجعل غير الخلق؛ قلنا: الخلق: هو إيجاد الشيء من العدم، والجعل: هو ترتيب صفة هذا المخلوق على هيئةٍ ما، {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} في سورة الزمر واضحة بيّنة، صفحة (٤٥٩) آية (٦) من الزمر: {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}، ماذا قال؟ {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا *وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}؛ أي خلقها لكم على هذه الصورة.

فقوله: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا}؛ أي: لو أننا أنزلنا إليكم رسولًا ملكًا، لكان في حقيقته ملكًا، ولكن: {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}؛ أي لجعلنا هيئته الظاهرة على ما يقع منهم من الأفعال، وهو: البشرية. أي: لو أن الله أنزل ملكًا لما رأوه إلا بشرًا. ما معنى: {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}؟ اللباس: هو الستر، والتَّلبيس: هو الخداع؛ لأن الحقيقة هذه ماذا؟ نظارة، فإذا ألبستها لباسًا ما، لتكون هذه مصنوعة من فضة مثلًا، فتضع عليها الذهب، هذا اسمه تلبيس: يعني خداع. فكيف يقع الخداع؟ بتلبيس الشيء غير حقيقته. فقوله: هذا لبَّس عليه، وطبقوا القاعدة –التي ذكرناها سابقًا- على هذه: لبَّس وسبَّل وسلب، كلها بنفس الجذر.

قال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا}، بعضهم يقول: يعني الله لا يستطيع أن يُنزل ملكًا! الله –عز وجل- خلق ملائكة عظامًا، يقول في الحديث: (أطّتِ السَّماءُ)[٨١]: ما معنى أطّت؟ يعني: مالت لثقل ما عليها، وانظروا إلى عظمة هذا اللفظ، (أطّت) لا يجتمع فيها صفة الفعل فقط، ولكن يجتمع فيها صوت الفعل؛ صفة الفعل: الميلان، ولما يميل الثقل يُصدر صوتًا، هذا موجود في القرآن؛ مثل قوله: {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}؛ هذه {هَيْتَ}: فيها كلمتان: الكلمة الأولى: تهيَّأتُ إليك، والكلمة الثانية: أَقبِل؛ فهي لم تقل له: {هَيْتَ لَكَ} تعال فقط، ولكن قالت له: تهيأت أنا لك فتعال، فهذا كثير في القرآن.

انظر إلى قوله –سبحانه وتعالى- لما ذكر عيسى –عليه السلام-: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا}؛ كيف ضُرب ابن مريم مثلًا؟ {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ}، {مَا} هذه قال المفسرون لما نزل قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}؛ فقال المشركون: إذًا عيسى في جهنم لأنه يُعبد من دون الله، وهذا من قبيل التلعُّب؛ فإن العرب تعرف أن (ما) لا تكون إلا لغير العاقل، لكن (من) لا تكون إلا للعاقل؛ فلما قال –سبحانه وتعالى-: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ}، فما كان ينبغي صرفها للعاقل عيسى –عليه السلام-، ولكن هو من

---

[٨١] حسنهُ الألباني في صحيح الترمذي: (٢٣١٢).

قبيل التلعُّب، فقال هنا: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}؛ قال ما ضربوه لك إلا جدلًا، على سبيل التعنت أنه في جهنم، فقال رد عليهم: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}.

أهل البلاغة واللغة يردُّون عن القرآن أكثر من الفقهاء، والذي نصر القرآن في زمن الزنادقة هم أهل اللغة، كما أن الذين شموا رائحة الزندقة المعاصرة هم أهل اللغة، قبل المشايخ، بعض المشايخ لأنهم مساكين دخلوا فيها وانضحك عليهم؛ لكن أهل اللغة الذين يعترفون بقداسة هذا البيان العظيم، تذوَّقوا هجمة الزنادقة على الإسلام أول ما بزغ شرهم، والدليل: أن أكثر الذين حملوا راية الدفاع عن القرآن هم أهل اللغة، وشراستهم وقوتهم ونصاعة أمرهم ووضوح أسلحتهم، كانت خيرًا مما كان عند الفقهاء؛ يعني أنت لما ترى مشايخ الأزهر مثلًا، باعتبار مصر منذ وقت طويل هي مركز العالم الإسلامي، ولذلك كان نابليون مهتمًا بها، لكن كان مهتمًا بعكا أكثر.

نابليون الآن تُدرَّس نظرياته العسكرية في كبار الكليات العسكرية في العالم، وكان يقول: "إن مفتاح السيطرة على الهند احتلال عكا"، لكن أنا لو تسألوني لا أفهم، أنا أنقلها لكم، هذه لا يفسرها إلا واحد عسكري؛ إن مفتاح السيطرة على الهند، هو دخول عكا، لذلك الله -عز وجل- منعه من دخول عكا. مصر دخلها كما يقولون: "مثل شربة الماء"، وعند عكا سقط. فمصر من ذلك الوقت وهي تمثل مركزية العالم الإسلامي؛ بعد ذلك ضعفت المركزية بسبب؛ المال في بعض البلاد، مثال: الآن وسائل الاتصال. لكن كان الكتاب أولًا لا يُنشر إلا في مصر، وإذا أراد الإنسان من العلماء الشهرة، لا يذهب إلا لمصر؛ مثل الأستاذ محمد رشيد رضا، هذا شامي، ذهب إلى مصر من أجل الشهرة. حتى أصحاب الصحافة مثل بشارة تُقلا، الذي نشر (الأهرام)، فكان كل واحد يريد شيئًا يذهب إلى مصر.

فبدأ هؤلاء زندقتهم في الأزهر وعلى المشايخ، -ويذكر هذا الجبرتي في قصة طويلة، لا أريد أن أقف عندها، ولكن لكي تعرفوا قيمة اللغة وأهميتها-. فسقط المشايخ، حتى إنهم صاروا يؤوّلون القرآن والسنة تحت رغبة المستعمر، وتحت رغبة الاكتشافات الحديثة، ويعطونهم الفتاوى التي تلائم المستعمر. من وقف ضدهم الموقف الصلب؟ أئمة اللغة؛ انظر إلى موقف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله- في كتابه العظيم الذي سماه: (تحت راية القرآن)؛ اعتبر أن الدفاع عن اللغة العربية هو دفاع عن القرآن الكريم.

انظر شراسة الأستاذ محمد محمد حسين! يقول أحد أساتذته: مكث شهرًا كاملًا وهو يُدرِّس في جامعة بيروت العربية عن معركة القبعة والطربوش؛ لأنه كان يعتبر أن معركة الطربوش هي معركة التراث، معركة القيم، لما أنت بتلبس القبعة الفرنسية، أو تلبس القبعة الأجنبية، فهو علامة تخلِّيك، عن ثقافتك.

توماس فريدمان هذا أكبر كاتب في أمريكا، ويكتب في النيويورك تايمز مشهور وهو يهودي، قرأت له مقالًا يقول فيه أنه بمجرد أن لبس العالم لباسنا الغربي هذا دلالة سيطرتنا على العالم؛ يعني في بلده فليلبس ما يشاء، مثلًا في الهند يلبس الإزار، في الدول العربية يلبس الدشداش، في الصين يلبس القُفطان إلخ. لكن حين نريد ثقافة إنسانية فلا يُلبس إلا اللباس الغربي. لم يقلها ابن تيمية، ابن تيمية قال: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)، أليس كذلك.

طبعًا بإجماع أهل الملة أن أعظم جيل يفهم اللغة هو جيل الصحابة، قالوا: كيف تقولون هذا وعمر لم يفهم بيت شعر؟! الزبرقان بن بدر كان واليًا لعمر، فالحُطيئة كان شاعرًا هجّاءً فهجاه، قال له:

دع المكارم لا ترحل لبُغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

الطاعم اسم فاعل، هو الذي يُطعم، وليس مطعومًا، مطعوم اسم مفعول يقع عليه الفعل. فهذا مدح في ظاهره، وهذا من ذكاء العرب، قلنا إن العرب عفاريت في اللغة!، فقال له: اقعد إنك أنت الطاعم الكاسي، فكلمة (اقعد) هي المشكلة. فجاء الزبرقان بن بدر لعمر –رضي الله عنه– وقال له: هجاني الحطيئة، قال: ماذا قال؟ قال: لا أرى فيها شيئًا، ومن يشهد أن هذا هجاء؟ فقال: ما يشهد إلا شاعرٌ مثله، فأتوا بحسان، هل هذا هجاء، قال: هو لم يهجُه ولكن سَلَحَ عليه!

فقال صاحب (طبقات فحول الشعراء) ابن سلّام: هل عمر عجز أن يفهمها؟ قال: لا، هو علمها ولكنه قاضٍ، لا يقبل إلا بشهادة شاهد.

قالوا: كيف جهل عدي ابن حاتم قوله تعالى: {حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}، قال من الفجر، فكيف ذهب ووضع عقالًا أبيضًا وعقالًا أسودًا وصار ينظر؟! قالوا: لا، الآية في أول نزولها كانت: {حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ}، ثم نزل قوله: {مِنَ الْفَجْرِ} ليقطع هذه الظنون.

ففي الزخرف قال: {وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ}؛ يخلف بعضهم بعضًا، لجريان سنة الخلافة في الأرض، قال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}؛ هنا حكمة المقال،

عندما يُنزل الله –سبحانه وتعالى– إنسانًا رسولًا للبشر، ما المقصود به؟ وضوح الأمر؛ فأنهم إذا قالوا: نحن لا نفقه هذا، قلنا لهم: فقِهَها رجل، وإذا قالوا: هذا لا نقدر عليه، قلنا: قدر عليه رجل. فلذلك الأنبياء يوم القيامة هم حجة الله على أقوامهم، هكذا يتم البلاغ التام والحجة التامة.

فهم عندما يريدون الملائكة ليقع التلبيس، ما هو التلبيس الذي يقع؟ التلبيس الذي يقع هنا هو حُجَّةٌ باطلة يوم القيامة، يريدون أن ينزل ملك، فإذا نزل ملك صارت عندهم الحجة؛ هذا ملك ونحن بشر لا نستطيع أن نقوم بما يقوم به، هو إذا مشى في الأرض تُفتح له الأرض، تمشي أمامه الجيوش، يُزيل الجبال، يقضي على الأعداء، فهو ملك!

فانظر، وهنا يأتي العدل الإلهي في القرآن، قال: لو أرادوا هذا التلبيس هم، لوقع التلبيس الإلهي عليهم، وهذا من مكر الله بهم؛ فلو أرادوا هذا التلبيس في إيجاد الملك ليقع التلبيس في عدم المتابعة، لأوقعناه بهم منا على جهة المكافئة لهم؛ بأن نُنزل ملكًا في الباطن بشرًا في الظاهر، ويقع عليهم الحجة بأشق مما هو عليهم الآن من وجود الرسول البشري!، {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}؛ استخدم كلمة (اللبس) إذًا لجعلنا لباسه أي ظاهره رجلًا، ولكان فعله في الباطن فعل ملك. فكيف سيكون حالهم؟ {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}، لكان في ذلك مشقة، وهذا من عظم مكر الله، ذلك بأن القرآن الكريم يجازي على الفعل بالفعل نفسه: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}؛ الله يقع منه الفعل على ما يقع.

ولذلك المنافق في الدنيا ماذا؟ مسلم وفي الآخرة وفي الباطن؟ كافر، فجزاؤه: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ} باطنه فيه المؤمن، {وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}؛ هذا مناقض مثل ما هم عليه في الدنيا؛ أنهم في الباطن كفار، وفي الظاهر مسلمون، فهؤلاء الله يعذبهم، باطنهم فيه الرحمة، يعيش المسلمون فيه بالرحمة، والمنافق يرى أنه في عذاب؛ فهذا من قبيل الإنصاف الإلهي، والمقابلة الإلهية لما يقع منهم.

ولذلك لما مررنا على الآية –وهي آية الاستكبار–، وقلنا هذه نظرية المؤامرة، ماذا قال القرآن؟ {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا}؛ ماذا قال؟ {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا}؛ لماذا قال (الأغلال في أعناق)؟ لأنه كان في الدنيا على هذه الهيئة من الاتّباع في جعل نفسه دابة، لأنه مُستضعَف، ومشى كالدابة وراء سيده المستكبر، كأنه ألغى إرادته وفي عنقه الحبل يجره سيده كما تُجَرّ الدابة؛ والله أراد منه أن يكون إنسانًا، فعامله الله: {وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا}.

ليس فقط العذاب، ولكن صورة العذاب كذلك، ماذا قال بعدها؟ {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؛ فهذا هو العدل الإلهي.

ثم جاء -سبحانه وتعالى- إلى قوله: **{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}**.

هذه تكررت في القرآن كثيرًا، إلا في موطن واحد، بدأت بهذا المطلع العظيم، وقال في سورة الرعد: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ **فَأَمْلَيْتُ** لِلَّذِينَ كَفَرُواْ}؛ وإلا في باقي الآيات: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ **فَحَاقَ بِالَّذِينَ**...} هذه لماذا تنزل؟ قلنا هذا القرآن خطاب لمن؟ للرسول، أولًا هو خطاب للرسول. فإذًا ما المقصود بهذه الآية؟ المقصود هو: وعظ النبي، ورفع الإصر عنه، {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ} يقول هذا الطريق مسلوك قبلك. ما هو الأشق؛ أن تسلك طريقًا مسلوكًا مُعبَّدًا، قد مشى فيه الناس من قبلك؟ أو أنك تمشي في طريقٍ موحشٍ لم يسلكه غيرك؟

فهنا يقول الله: هذا طريق مسلوك يا محمد! طيب أين عظمته إذًا؟ لماذا ليس هو الأول؟ **للبدايات مشقَّات وللنهايات كمالات**، قال النبي ﷺ: (إنَّ مَثَلي ومَثَلَ الأنبياءِ من قبلي ، كمَثَلِ رجلٍ بنى بيتًا ، فأحسَنه وأجمَله إلَّا موضِعَ لبِنةٍ من زاويةٍ -كأن البيت لم يتم- فجعَل النَّاسُ يطوفونَ به ، ويعجَبونَ له ويقولون : هلَّا وُضِعَت هذه اللَّبِنةُ ؟ قال : فأنا اللَّبِنةُ ، وأنا خاتمُ النَّبيِّينَ)[٨٢]. فالبدايات لها مشقات والنهايات لها كمالات. الجمال جمال الكمال؛ ولذلك: {الْيَوْمَ **أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ**...} ما الفرق بين الكمال والتمام؟ **الكمال: عودٌ إلى الأصل، والتمام: عودٌ إلى الصِّفة**. أكملت البناء: أتممت زينته. فالقرآن والدين انتهى كماله في أصله، وانتهى وتمَّت زينته في صفاته.

فإذًا ما المقصود بهذه الآية: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ}؟ هذا تطمين ورفعة درجة الصبر في قلب الرسول ﷺ، وسنرى هذا بجلاء في سورة الأنعام، كيف يرفع القرآن هذه النفسية، إلى درجةٍ عظيمة من الثبات، ومواصلة الطريق، كما يقول: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ}، ثم قال -سبحانه وتعالى-: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ}.

---

[٨٢] صحيح البخاري: (٣٥٣٥)، صحيح مسلم: (٢٢٨٦).

يا إخوة! أي داعٍ إلى الله، وأي خطيب، وأي مجاهد، يظن أنه هو المقصود في المعركة، هذا فاقد لمعنى الإخلاص؛ ولن يقع عليه النصر كما ينبغي، **يجب أن يفهم أن المعركة: هي معركة بين الله وأعدائه**، أنت ما دورك؟ ليس لك شغل، أنت فقط بلِّغ ما أُنزل إليك من ربك، امشِ في الطريق؛ النتائج ليست عليك، هذا يضل فلا تغضب، في سورة الشعراء: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}؛ ماذا تتوقَّعون بعد هذه الآية؟ كما قلنا لا بد من ذكر الآيات التي غفلوا عنها، ماذا قال بعدها؟ {أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}؛ لتعرفوا كلما سمعتم مقالة كافرٍ عن طلب الآيات كيف يجيبه القرآن.

الله -عز وجل- في هذه السورة يرفع النبي ﷺ من المواجهة، ويجعل المواجهة بينه وبين أعدائه فقط، وأنت فقط أداة ربانية للفعل. فيقول: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ}؛ وهذه (استهزئ) مرَّت معنا سابقًا في السورة، متى تكون الخاتمة متى يقع البلاء والعذاب؟ عند الاستهزاء.

قال: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ}؛ حاق: وهذه فيها معنيان في نفس الكلمة؛ حاق: أي وقع عليهم ما يستحقون. وحاق: أي اتَّصل بهم، فلم يخرجوا منه قط، يعني أدارت بهم فلم يخرج منهم أحد، ولم تقع النجاة لأحد ووقع البلاء عامًا، فهذا حاق بهم. وكذلك تعني أصابهم ما يستحقون.

قال سبحانه: {فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}؛ هذه أين تضعونها في التفصيل أم في اللمحة الدالة؟ تأملها، فكر فيها، يجب أن تفهمها بنفسك؛ القرآن يا إخوة له مذاق عند أجهل الجهال في اللغة، يجب أن تتمتَّعوا؛ هذا الذي أقوله لكم، وليس -والله- من أجل فقط أن أفاعلكم؛ هذا هو الدين، هذا الحق، هذا الذي قاله كبار العلماء، عليك أن تتمتَّع؛ بالله عليك أحضر أي كلام، كلام كائنٍ من كان، وأنت تترنَّم تتغنَّى بقوله: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ}؛ وأنت لا تفهم أين البلاغة هنا، ولماذا قدَّم علَّم القرآن على الخلق، لكن أنت تشعر أنك أمام شيء عظيم، هذا هو المطلوب. وكلما ردَّدته في لسانك، كلما انصبغت معانيه العظيمة في قلبك؛ فتُدرك بفطرتك ما لم يدركه العلماء.

لقلنا لما قال الله -عز وجل- في سورة البقرة: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ}؛ تفصيل. انظر في البقرة كلمة (كفر) كم مرة وردت في هذه الآية: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}؛ لا إله إلا الله.

لو واحد الآن قال: يا إخوان الفعل الفلاني كفر، والفعل الفلاني كفر؛ بعد قليل سيقولون له: خلص توقف، تكلم لنا عن الإيمان. فتصور هذه الآية كم تردد كلمة (الكفر)؟ يريد أن يرسخ هذا المعنى في ذهن سامعه.

فانظر إلى هذه الآية في هذا المعنى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}.

ولنرى في قوله تعالى: {بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، في الدرس القادم -إن شاء الله-.

وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس السادس عشر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

كنا مع قوله تعالى: **{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}**.

قلنا أن هذه الآية هي تسلية وتثبيت لقلب النبي ﷺ، ومن مهمّات القرآن العظمى تثبيت قلب الدّاعي وبناؤه النّفسي الـمُحكم، القرآن في أعظم قضاياه غير قضية بناء العقل وعلميّته، ونرى هذا جليًّا —البناء العلمي وأدوات العلم- في سورة النجم: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}، {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}؛ الضلال غير الغِواية، **الضلال: عدم معرفة الحق ابتداءً**، **الغِواية: معرفة الحقّ ثم مخالفته**، فهو ينفي عنه جهالته بالحق، وينفي عنه ربنا —سبحانه وتعالى- أنه خالف الحق بعد أن علَّمه الله إياه، وهكذا سورة النجم فيها هذا التفصيل.

فالقرآن في بنائه لعقل الإنسان المسلم شيءٌ عظيم، وكذلك في ردّه على الشّبهات، ولكن أعظم ما في القرآن بالنسبة إلى المسلم وخاصة الذي يُعاني في أوساطٍ مخالفة له، **هي قضية البناء النّفسي**. وهذه تحدّث عنها

القليلون، الأفكار يُمكن أن تنتقل وأن تحدث في عقل السامع بسرعة، بمعنى أنّك تريد أن تقنع إنسانًا بفكرة فيمكن في جلسة، وممكن بجرّد أن تخاطبه بالحق يهتدي. ولكن أن يصبح لهذا الحقّ حضور في قلبه متفاعلًا في كيانه فتلك مسألة أخرى، هذه تحتاج العمر كله.

الناس كلهم متفقون على أن الصبر جيّد، وأنه خير من الجزع لكن كيف يستقرّ في قلب الإنسان عمل الصبر؟ وأن يعمل به وإذا وقع عليه البلاء يتفاعل مع الصّبر تفاعل الإنسان مع ملكاته؟

العلم يتفق الكل على أنه حسن، وهو خير من الجهل، لكن كيف يصبح العلم مَلَكة في النفس؟ ومعنى مَلَكة أي لا تحتاج إرادة لاستخدامها، هي موجودة في الإنسان؛ البصر بمجرّد أن تفتح عينيك حين تسمع صوتًا فتريد أن ترى الحدث فقط من غير أن تقول لإرادتك انبعثي من أجل أن تُبصري هذا الحدث، فورًا تتفتَّح عيناك وتبصر هذا الحدث، هذه مَلَكة. هذا هو العلم الذي يريده القرآن من العابد وهو أن **يصبح هذا القرآن مَلَكة نفس بحيث يتفاعل معه في كلّ لحظة**. بالنسبة للعلم هناك مرتبة مع القرآن فقط أصابت قلّة في التاريخ الإسلامي، يقولون: "فلان أَحْضَرُ الناس لآية"، وهذه وُصف فيها إمام الأئمة ونجم الأئمة مالك. ما معنى هذا الكلام؟ بمعنى أنه إذا وقع الحدث فورًا تخرج الآية مِن قلبه حاضرةً لجواب هذا المشهد، وتنطلق على لسانه.

إمام هذه المرتبة بالنسبة للمسلمين هو أبو بكر، ورأينا هذا جليًّا في قضية وفاة النبي ﷺ، الناس كلهم يقرؤون سورة آل عمران، {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ} لو قيل له ابحث عن هذه الآية بزمن الهدوء يذهب ويبحث عنها ويقرأها بهدوء وعناية فتخرج له الآية. كيف غفل عنها كل الصحابة وهي بين أضلع صدورهم؟ فلأن البلاء عظيم تاهت الأذهان وغابت العلوم، ولم يستحضر هذه الآية إلا الصّدّيق. ولذلك "أحضر الناس لآية" هذه مرتبة عظيمة، تكون إذا اختلط القرآن بدم المرء وعقله وقلبه فصار له مَلَكة.

الآن ما هي درجة انتقال الإرادة في علمٍ أردته لتُحدث عملًا ما؟ لتحمل شيئًا ما مثلًا؟ بمجرّد أنك تريده تحضر إليك، والقوة في داخل بدنك تحمله، ولا تذهب لتُحضِّر نفسك وتُجهّز إرادتك من أجل أن تحمله فورًا، تحمله لأن إرادتك بالنسبة لهذا تتوافق مع قدرة عظيمة لديك، هذا بالنسبة للعلم.

ولذلك أعظم ما يصل إليه الناس هو أهل الإيمان في الجنة، قال: (يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما يُلهَمونَ النَّفَسَ)[٨٣] لا تنبعث إرادتهم إلا كما تنبعث إرادتهم في التنفس، هل تتذكر أنك تتنفس؟ هي إرادة منك، لكن هذه الإرادة مَلَكة نَفْس تتحرّك في داخلك من غير مُعوِّقات، وكذلك التسبيح في هذه المرتبة للإنسان في هذه الدرجة.

بعض الناس يقول لماذا احتاج النبي ﷺ ثلاثة عشر عامًا؟ يمكن لبعض الناس أن يقولوا حِكَمًا كثيرة؛ حتى يتحقَّق الهجرة وغيره، ولكن من المهمات العظيمة في هذه الظروف أن يصبح هذا الدين بالنسبة لأتباعه مَلَكة نفس، حالة نفسية. ولذلك **كل الآيات –وهذا بالاستقراء– التي فيها قيام الليل نزلت في مكّة**، بل هي من أوائل الأوامر بعد الأمر الكلي لدين الله {اقْرَأْ}، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} وهكذا كل الآيات التي فيها ذِكر قيام الليل إنما ذُكرت في مكة المكرمة؛ لأن هذا من البناء النفسي، اهتم بنفسك. ما معنى أن تهتم بنفسك؟ ليس ما يريده بعض الجهلة من العبادة البِدعيَّة ولكن المقصود **بالتَّزكية العلميَّة** وهي مقصدة طلبه إسماعيل وإبراهيم –عليهما السلام– من ربّهما في أن يبعث لهذه الأمة نبيًا يحقّق فيهم التّزكية. ما معنى التزكية؟ **أن يُصبح العلم مَلَكة نفس.**

ولذلك لما ربنا يقول في هذه الآية: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} هذا كله من أجل بنائه، اطمئن {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ}، لكن السؤال: هل هذا تطمين لرسولنا بأنه سيُعذِّب أعداءه؟ لو جاء جاهل واعترض على هذا بقوله: "إنه ليس من الرحمة في أن يُطمَّن ويُسلَّى قلب هذا النّبي بأن يقول له سأُهلك أعداءك"، هذا ليس لكلّ أعداءه، هذا لأعداء على درجة خاصة من العداوة وهي: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ}. وقلنا إن أول درجة هي الإعراض، الدرجة الثانية هي: التكذيب، الدرجة الثالثة هي: الاستهزاء، فلما يصل الأمر في قَفْل القلوب بالاستهزاء حينئذ لا يمكن أن يفرّج عن قلب الذي استُهزئ به إلا تدمير الذي استهزأ به. راقبوها في أنفسكم، هذه فطرة.

واحد يُعاديك ويُخالفك، يردّ عليك قولك، يقول: هذا الكلام غير صحيح، ممكن لا بأس. لكن أن يكون مستهزئًا بك فتلك حالة لا يمكن للنفس أن تطيق معها إلا دمار هذا المستهزئ، ولذلك الله –عز وجل– جعل

---

[٨٣] صحيح مسلم: (٢٨٣٥).

أنه {حَاقَ بِهِمْ} والعلماء قالوا: حاق بمعنى وجب، وقالوا: حاق بمعنى أحاط. والصواب أنها كلمة تحمل المعنيين، هذا سر القرآن.

فلذلك هذا الاستهزاء الذي حدث منهم، وانتبهوا إلى أنه لم يقع العذاب إلا بعد الاستهزاء وليس بمجرّد الإعراض، وهذا نكرّره لأنه من أعظم ما يحبّه الله هو أن يُعذر وأن يُقيم الحجة، لو أنه قيل له آمن فكفر، أو أعرض وقال: أنا لا أحب أن أسمع هذا الكلام فعذّبه، لبقي له مجال الحجة. لكن عندما ينتقل من الإعراض إلى التكذيب وإلى الاستهزاء، وانظر ما الفرق بين سخر واستهزئ؟ واستخدام هذين اللفظين في هذه الآية لأمر بيانيّ، لا فرق علميًا ولغويًا بين استهزأ وسخر، لكن انظر إلى ماذا تتعدّى كلّ واحدة. يقال: سخر به واستهزئ منه؛ فإنّ استهزأ تتعدّ بـ(من)، وسخر تتعدّى بـ(ب)، والباء للإلصاق تلتصق به، لكن (من) أقل ما يُقال أنها بيانيّة أي صارت حالة الاستهزاء حالة دائمة محيطة له، وإما أنه سخر منه حتى وصل إلى أعماقه منه.

ولذلك لما قال: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ} معناها أن الله –سبحانه وتعالى– قدَّر لهذا العبد أن يقع منه الاستهزاء الطويل الذي وصل إلى عُمق الإيذاء في نفس النبي ﷺ، وهذا من الإعذار، ولذلك ما قال: "كفروا فعُذّبوا فيها" ولكن قال: استهزأوا فوقع العذاب؛ دلالة على أن الله أعذر لهم، تركهم حتى وصل كفرهم إلى منتهاه وإلى عظمته، فقال: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ}. وارجعوا إلى قضية طول المدة، افتحوا الآية قبل التي قبلها، ماذا قال؟ {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا **لَقُضِيَ** الْأَمْرُ **ثُمَّ**..} لماذا استخدم هنا قوله: (لقضي الأمر) ولكنه لما ذكر الإنظار قال (ثم)؟ لأن الإنظار يحتاج إلى وقت، ولكن قضاء الله بأنهم كفروا هذا قد تم وانتهى أمره، ولكن من أجل أن يقطع حُجَّتهم استخدم أسلوب (ثم). ولأهل البيان أقوال أخرى جميلة في هذا ولكن يكفي أن نستدل فيما نحن فيه بأن الله –سبحانه وتعالى– لا يُعذِّب حتى يتمّ البلاغ وتقع الحجة التامة، ولذلك لم يعذبهم حتى وقع الاستهزاء.

ولذلك قال: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} يقول له: الطريق مسلوك لست جديدًا على هذا الطريق، وهذا طريق الأنبياء كلّهم قد استُهزئ بهم، وكلّهم قد قيل فيهم ما قد قيل فيك، وإن كان رسولنا ﷺ قد عانى في قومه أشدّ قال: (فرعوني أشد من فرعون موسى)[٨٤] يقصد أبا جهل.

الآن أيها الإخوة عند قوله: {فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ} لماذا لم يقل -جلّ في علاه-: "فحاق بالذين استهزأوا به" وقال: "سخروا منه"؟ بعض العلماء قالوا: لأنها ثقيلة على اللسان. بعض العلماء قال لماذا يقول: "أراضين"، قالوا: لأنها ثقيلة على اللسان، والقرآن: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} ومن الذكر تسهيل لفظه، وإن كان التسهيل أعظم من هذا بكثير، ولكن مِن التسهيل أنك لما تقرأه تجد في قراءته السهولة والتيسير.

لكن ما يهمنا في قوله: {فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، نحن تكلمنا عن قضية مهمة وأكررها؛ والتكرار ضروري في مثل هذه القضايا لأن الناس في غفلة عنها، وهو ربط عالم الشهادة بعالم الغيب، وربط عالم الغيب بعالم الشهادة، وربط حركة عالم الشهادة بقضية الإيمان. يعني بمَ عُذّب هؤلاء المُستهزِئون؟ عُذّبوا بعمل يتعلق بموضوع الإيمان، وهو الاستهزاء بالرسول فوقع العذاب عليهم لعمل من أعمال الإيمان، إما أن يكون إيجابًا لهذا الإيمان وإمّا أن يكون سلبًا في موقف الإيمان. فإذا وقع الأمر على أمة من الأمم **فيجب على المؤمن أولًا أن ينظر إلى ارتباط هذا الفعل بقضية الإيمان**. والناس في غفلة عن هذا!.

وأكرر وأقول بأن **السنن هي حجاب عن رؤية المرء ليد الله الفاعلة في الوجود**، الناس يفسّرون صارت كثافة مطر جاءت أنهار..، لكن السؤال: من الذي أحدث هذا؟ ارجع كما قال ﷺ: (فمن أعدى الأول؟)، من الذي أحدث هذا الفعل ابتداءً؟ ولذلك: {قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ}؛ ما من نبي إلا وهو يُنذر أمته بالوحي؛ يقول إنكم إن آمنتم كان بكم كذا وكذا، فإن عصيتم وقع عليكم كذا وكذا. **فإذًا وقوع الأعمال في الوجود يقع بارتباطه بالإيمان.**

[٨٤] ذكره الإمام فخر الدين الرازي في كتابه (التفسير الكبير) ولم نقف فيه على حكم.

وهذا في تفسير الحالة الاجتماعية لمجتمع تام، وكذلك يُفسَّر به الحالة الفردية للإنسان؛ بمعنى المرء يُعذَّب لمعصيته، ويُجازى بالخير لطاعته، فإن كان من أهل الطاعة وقع عليه البلاء ابتلاءً، من أجل أن يرفع شأنه ويُطّهر عنه سيئاته كالمرض (طهور إن شاء الله) [٨٥]، (من سَرَّهُ أن يُبسطَ له في رزقِه، أو يُنسأَ له في أَثَرِه، فليَصِلْ رحِمَه)، (لا تُوكي فيُوكي الله عليكِ) وهكذا، فيجب علينا أن نستحضر هذا دائمًا لأنه من مهمات المعارك الكبرى بيننا وبين خصوم الإسلام، هم يريدون أن يفصلوا بين هذا العالم المشهود الذي نشهده وعالم الغيب، عالم الغيب الطاعات، ولكن الدنيا كلّها تزول، (لا تقومُ السَّاعةُ على أحدٍ يقول: اللَّهُ، اللَّهُ). تعبد الله -عز وجل- هذا له أجر وله عظمة وله راحة وله اطمئنان إلى آخر ذلك مما يُحدث من الإيمان.

قوله: (فحاق) ترون أنها أخذت هذين المعنيين؛ الأول قلنا: وجبت، يعني يستحقون فهي من حقَّ أي وجب عليه. والثاني أنها أحاطت. لكن هل هي إحاقة عدديَّة أم إحاقة كيفيَّة؟ أم هما المعنيان معًا؟

يعني هل الله دمَّرهم عددًا فلم يُبقِ منهم أحدًا؟ أم أنهم دمرهم فلم يُبقِ منهم شيئًا؟، ولذلك قال الله —عز وجل-: {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}، ولما دمر الله ٠عز وجل- قوم لوط: {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا}، حاق أي محقًا عددًا وكميةً كذلك.

فقال سبحانه: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} يطمئنه، وقلنا أن هذا لا يقع بمعنى الرضا على قلب النبي إلا بمن يستهزئ به، ولذلك الله -عز وجل- يقول: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}، وقال: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}، هذه كلها مُفسِّرة لهذه الآية الجليلة.

هذا قلنا سابقًا أنه عند أهل البلاغ يسمّى **الالتفات**؛ وهو حديث الحضور ينتقل إلى حديث الغيبة، أو حديث الغيبة إلى حديث الحضور، يعني يكون يتكلم لواحد خطاب المتكلم ثمّ يلتفت إلى خطاب الغائب، أو يكون متكلمًا حديث الغائب فيتكلم حديث الحضور.

---

[٨٥] صحيح البخاري: (٣٦١٦).

وأول سورة وهي الفاتحة دليل على هذا من قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} انتقل إلى {إِيَّاكَ}، كانت حديثًا عن غائب -سبحانه جلّ في علاه- ثم قال: (إياك) حديث الحضور. انظر هنا {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ} كان الحديث للنبي ﷺ لأنه هو المقصود به، ثم جاء الخطاب إلى أعدائه، وهذا هو بناء السورة القرآنية، يجب عليك أن تنتبه له، ومرات يقع الخطاب بين شخصين في نفس السورة، ويقع في السياق في ذهن الناظر إليه اضطراب؛ نحن ضربنا مثلًا في سورة النحل لما كان الحديث عن الآيات ثم قال: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} كان حديثًا عن آيات كونية ثم انتقل إلى آيات تشريعية. ومثل قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا} هنا أي زاد؟ يعني الطعام والشراب والثّياب، ثم بعد ذلك قطعها بقوله: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} هذه طريقة قرآنية يجب أن ننتبه أنه في السياق الواحد يقع خطاب لأمرين اثنين، ذلك لحكمة وبلاغة عظيمة. انظر إلى قوله في سورة الأعراف في آخرها {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}،آية (١٨٩) هذا خطاب أول ما يخطر في البال أنه لآدم، لكن انظر بعدها كيف انتقل الخطاب من آدم إلى ذريته العصاة قال: {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ}، هل آدم جعل لله شريكًا؟ ولكن بعض المفسرين ممن يأتي بالإسرائيليات والأخبار الموضوعة جعل السياق واحدًا وزعم أن آدم -عليه السلام- فعل كذا وكذا مما لا يجوز على الأنبياء، وذلك لأنه لم ينتبه إلى أن السياق مُركَّب على خطابين على طريقة قرآنية معهودة فيه.

قال -سبحانه وتعالى-: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} هذه الآية الوحيدة التي فيها (ثمّ)، وفي سورة النمل: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}. الآية: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ} وردت أيضًا أي سورة في الأنبياء، والتي بعدها {قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ} خلال تسلية قلب الرسول ﷺ بعد ذكر كفر الكفّار.

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا} أول شيء هذا أمر من الله -عز وجل- لهؤلاء الكفرة، وقلنا أن كلمة (الرؤية) في القرآن لها معنيان؛ إما الرؤية البصرية وإما الرؤية العلمية، كيف نفرّق؟ قلنا أنّ الرؤية العلمية تأخذ مفعولين، أنت تقول: رأيت الحصان جميلًا، الحصان مفعول أول وجميلًا مفعول ثانٍ، دلَّت على أن الرؤية هنا علمية.

لكن أن تقول: رأيت الحصان، فتدل على الرؤية البصرية. فهنا لا بد من النّظر إلى الأمرين في موضعهما، فهذا أمرٌ من ربّنا لكفّار قريش لرؤية العاقبة التي حلّت بالأقوام الذين أحاطوا بهم.

قال –سبحانه وتعالى–: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، فالله –عز وجل– يريد أن يقول لهم اخرجوا انظروا هذه القرى التي حولكم بمَ دُمِّرت، بم أُهلكت؟ بما تقدّم ذكره {فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ}، فقوله: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} يا كفار قريش وانظروا كيف كان عاقبة من كذَّب ومن أجرم ومن استهزأ ومن عصى.

ومن مهمّات القرآن العظيم بيان أنَّ الإنسان هو الإنسان؛ فما هي حجة كل قرية ترفض هذه النذارة؟ "لسنا كذلك"، نظرية نهاية التاريخ، كلهم آمنوا بها وكلهم زعموا أن هذا وقع على الأمم السابقة لوجود كذا وكذا خطأ في التطبيق، وجود عوامل أخرى معاندة، وجود أعداء ووجود خصوم، ولم يلتفتوا إلى يد الله الفاعلة في الأرض، والله –عز وجل– يربط أن هذا الفعل لا بد أن يتكرر ما دام وُجد مسبِّبه؛ فلا بد أن يقع العذاب إذا وُجد السبب، والسبب هو معصية الله. والسّير في الأرض هو الضّرب، السير هو المشي، سار: ضرب.

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} فلماذا قال في هذه الآية: (ثم انظروا) وفي الآيات الأخرى قال: (فانظروا)؟

بعض أهل البلاغة لهم كلمة جميلة، قالوا: هنا أقام النظر سببًا للمشي؛ فكأنه يأمرهم {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا} أي اذهبوا للأرض من أجل النظر. لكن لو قال: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا} إنما هو من أجل بيان أن النظر أمرٌ يحدث في السّفر والسّير دون الأمر به. يقولون: لو أن رجلًا خرج مثلًا من أجل التجارة أو من أجل النزهة وليس من أجل النظر، فمن حقّ هذا السّير عليه أن يُشرك النظر فيما خرج إليه. ولذلك قالوا: (أبطأ به)، وأنا قلت لكم: البلاغيّون لا يقبلون أبدًا التفسيرات السريعة، مثل: "ثم: للتراخي"، لكن يبحثون في لماذا تراخت (ثم)؟ تراخت ثمّ لأنها ليست المقصودة أولًا، لكن لما كان النظر هو المقصود جاء بقوله (فانظروا).

فلما جاء النظر شيئًا زائدًا عن مرادك في الخروج، أنت خرجت من أجل التجارة فلا تُفوّت وأنت خارج من أجل التجارة أن تنظر؛ لأن كفار قريش هؤلاء يخرجون للسّفر في الشمال والجنوب في –رحلة الشتاء والصيف–

من أجل التجارة، فيقول لهم وأنتم في خروجكم هذا {ثُمَّ انْظُرُوا}. فهم يمرّون على مدائن وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}، ما زالت المسألة فيما نحن فيه فقط من أجل تذوّق القرآن.

لما ذكر الدمار علّقه على الاستهزاء {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ... فَحَاقَ} لكن لما ذُكر التّكذيب جعله عاقبة، قال: {سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}؛ الاستهزاء (فحاق) لأنه إذا وقع الاستهزاء فهو نهاية النذارة، نهاية إقامة الحجة، ولكن التكذيب ذكر عاقبته، وهذا مما يدل على ما نحن فيه.

كما أنه –جل في علاه– سلَّى قلب رسوله ﷺ وطمأنه بأنه {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} فلن يضيّعك، ما دمت أنت على طريق {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ} على ما مشى عليه الأنبياء فالعاقبة واحدة التي وقعت على الكفار الذين كذبوا بالأنبياء، ولذلك في سورة الشعراء الله جعل لكل نبي من الأعداء ما كذب به المرسلين، قال –سبحانه وتعالى–: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} قال: (المرسلين) ولم يقل: (الرسول)؛ لأن التكذيب بالرسول هو تكذيب بكل الرسل، ويُعبَّر عن الاثنين اللذين حملا نفس الرسالة بـ(رسول)، أين هذا؟

في سورة طه قال: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا **رَسُولَا** رَبِّكَ} افتحوا سورة طه صفحة (٣١٤) آية (٤٧)، انظر إلى قوله تعالى لترى أنه يُعبَّر عن العدد بنفس المعنى وإن تعدّدت الرسل لكن هم شيء واحد، انظر هنا ما قال في طه من أجل أن يبيّن العدّة له لأنه أمام فرعون، وفي قضية الحديث عن موسى وهارون، هارون له حضور هنا في هذه السورة. في الشعراء صفحة (٣٦٧) آية (١٥) و (١٦) قال: {قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآَيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا **رَسُولُ** رَبِّ الْعَالَمِينَ} أنهما اثنان –عليهما السلام– ولكن لما كان أمرهما واحدًا بالرسالة عبّر عنهما بالمصدر وقال: (رسول).

قال: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ}، لماذا في الشعراء قال: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ} وما قال أخوهم، في سورة الشعراء: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ

أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ}، {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ}، وقال: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ}؛ هذا أدب، وهذه للذين يريدون أن يقولوا: "إخواننا اليهود وإخواننا النصارى"، فيجوز أن تقولها على جهة الإنسانية، كما قال في سورة آل عمران: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} فسماهم إخوانهم لأنهم إخوانهم على جهة النسب، لكن على جهة الأدب أن لا تجعل هذه في كل موطن فيه شبهة الانحراف وشبهة الضلال. والقرآن يعلّمنا هذا الأدب، فلما جاء إلى قوله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} نفى عنهم الأخوّة، ولم يقول أخوهم؛ لأن هذه النسبة لا يجوز أن يُنسب شعيب في هذا الموطن لأخوتهم، لأنهم أصحاب الأيكة، وفي أيكتهم عصوا ربهم، قال: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}، فهم في أيكتهم عصوا ربهم، فلم ينسب الله تعالى أخوة شعيب لهم، لأنه سمّاهم هنا باسم كانوا به عصاة لله.

فهو ليس أخوهم في الأيكة، ولكن أخوهم في مدين، في آية أخرى نُسب شعيب لهم في سورة الأعراف وفي سورة العنكبوت. في سورة العنكبوت قال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} فنسب الأخوّة إليهم.

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} إذًا بعد أن ذكر ربنا –سبحانه وتعالى– أمر تطمين رسولنا ﷺ فذكر أنهم لا بد أن يمشوا وأن ينظروا. وهم سيرفضون ويقولون كما قال: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ} ماذا رد عليهم القرآن؟ قال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: "كنت أقرأها ولا أعرف أي جمع سيُهزم هذا، حتى رأيتهم يوم بدر هُزم الجمع وولّوا الدّبر"، وهذه مسألة يُخفيها القرآن كثيرًا حتى يأتي وقتها، هذا من قراءتك لكتاب ربك، **أن الله –عز وجل– يُخفي أخبارًا في داخل القرآن حتى يأتي وقتها**، مثال ما ذكرنا: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} هذه أُخفيت للمرتدين.

سورة المزمل من أوائل ما نزل من السور في القرآن، انظر ماذا يقول ربك فيها: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ

فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، أين هؤلاء الذين يقاتلون؟ هذه من أوائل السور التي نزلت في مكة.

فكلهم يقولون: "نحن لسنا كذلك، نحن دائمون، باقون، هذه الدولة ستبقى إلى نهاية العالم"، ولا تدري الغيب ماذا يخبئ لهم من الهلكة والدمار والتغيير والتبديل، هذه سنة {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}، {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا} ليس هناك شيء باقٍ، لا دولة ولا نظام ولا حكومة، كل هذا سيزول، وسيتم الاستبدال، وذلك بقدر الله -سبحانه وتعالى-.

فالله يقول لهم: {سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} انتبهوا، لكن على قلوبهم غشاوة لأنهم دائمًا يجعلون لأنفسهم خصوصيّة أنهم خلاف السنة، هذه السنة لا تنطبق علينا، لماذا؟ أخذوا {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}، ما معنى الزبر؟ الكتاب. قلنا (قرطاس) سُمّي من القطع، وإلى الآن بلاد المغرب العربي تسمي قطّاعة اللّحم (مِزبار)، ولذلك الفلاحون يسمُّون ذَكَر الطفل الصغير (زُبُر) لأنهم يقطعونه.

{أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} يعني الكتب، فكما أن الكتب تُقَرْطَس أي تُقطّع كذلك (زُبُر) يعني تُقطّع نفس المعنى.

الآن بعد أن انتهى الخطاب القرآني في ما تقدَّم من تعظيم الله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ}، وذكر إلهيته وربوبيته، واليوم الآخر، وذكر قضية الرسل وتاريخ الرسل الناس، فبعد أن أفاض في هذا، والقرآن أعظم ما فيه هو الحديث عن الله، فإما أن يتحدَّث عن نفسه بصفة مطلقة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وإما أن يتحدَّث عن نفسه وعلاقة الآخرين به، وما يُعطيهم من نِعَم وما يُقابلونه هم من معاصٍ.

انظر إلى قول الله تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} هذه تربطها مع {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}. فقوله -سبحانه وتعالى-: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ما المناسبة بينها وبين التي قبلها؟ {ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}؟ من الذي ورث هذه القرى؟ {فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ

مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}؛ الذي ورثها هو الله فهي له، كانت لهم تمتعوا فيها بعض الأوقات ثم كانت وراثتها لرب العزة، هو الوارث من أسمائه.

نمر على بعض أهل البدع، بعض الناس يحتجُّون بآية في سورة الأنعام، لم يأتِ وقتها ولكنها مثل هذه، يقولون (قل لله) يعني أنت تقول: (لله). وهذه جواب لسؤال سابق وهو: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فنذهب للذي يحتج به المبتدعة لذكر اسم (الله) المفرد، وما ورد في السنة ذكر اسم الله المفرد: "الله، الله، الله"، في السنة موجود "سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، الله أكبر، حسبنا الله ونعم الوكيل، إلخ". لكن لا يوجد ذكر تقول: (الله)، ويحتجون بمثل هذه الآية {قُلْ لِلَّهِ}، كما أنهم يحتجون بآية بعدها في سورة الأنعام صفحة (١٣٩): {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ}.

أعظم ما يُسبّ به رب العزة والجلال بعد الحديث الباطل في صفاته وأسمائه وأفعاله والكفر بربوبيته نسبة أمرين له؛ الكذب عليه بأنه لم يُرسل رسولًا ونفي دار الآخرة؛ لأنه لولا وجود الدار الآخرة لكانت هذه الدنيا عبثًا من العبث لا قيمة لها، ولا يمكن إدراك أن الله حكيم فيما خلق هذا الوجود إلا بإيمانك بالدار الآخرة، ولذلك قال -سبحانه وتعالى-: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}، لو لم يكن هناك دار آخرة لسُمّي ربنا ظالـمًا -نعوذ بالله-، ولكانت هذه الدنيا بما وُجدت فيه من أكوام وعطاء ونِعم وحكمة وتدبير لهوًا لا قيمة له.

فالذي يرجّح جانب الحكمة، بل يجعل للحكمة أصلًا لهذا الوجود وفي فعل الربّ في هذا الوجود هو أن تؤمن بالدار الآخرة، ولذلك الذين يكفرون بالدار الآخرة يكفرون بالله ليس فقط على جهة على كذب خبر الأنبياء، بل لأنهم يكفرون بالله؛ أي يكفرون بحكمته ويكفرون بعدله ويكفرون بقُدُّوسيَّته.

تصور أنه لا توجد دار آخرة، فهذا الظلم الموجود أين النَّصفة فيه؟ أين العدل الذي نراه في هذه الدنيا؟ لماذا يموت هؤلاء المظلومون ويستكبر هؤلاء المتكبِّرون المجرمون؟ لماذا يكون هناك أغنياء وفقراء؟ لماذا يكون هناك طائعون فلا يرون إلا العذاب والمشقّة وآخرون مستكبرون ولا يُعطَون إلا المال والجاه؟! ولذلك قال –سبحانه وتعالى– في سورة الرعد: {وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}؟ ماذا قال ربنا؟ {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ}.

فأعظم كفر بالله هو عدم الإيمان بالآخرة، وكل الشريعة تبطُل وكل الكتب وكل الرسل، وخلق السماوات والأرض لا يكون له قيمة إلا بوجود الدار الآخرة. ولذلك قضية وجود الدار الآخرة مركزيَّة، هي المكون الثالث بعد الربوبية لله وبعد الامتثال لرسول الله، الركن الثالث من أركان تكوين الشخصية المسلمة هو الإيمان بالدار الآخرة. والثاني: إرسال الرسل؛ الله غيب ويحب ويُبغض، وخلق خلقًا بمقصد، ويدمّر ويُعطي، ويقطع ويصل، كيف نعرف حكمة هذه الأمور من غير رسل؟ ولذلك {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}، هذا أتيت به من أجل هذه الآية. كلمة (من شيء) لها ارتباط فيما يأتي في الآية التي هي أول آية في الورقة القادمة، {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً}.

{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}.

الآن أظهر لنا ربنا –جل في علاه– صفة عظيمة قامت عليها السماوات والأرض وهي **الرحمة**، وهنا عمَّت الرحمة في السورة، قلنا دائمًا انتبه للفعل الواحد وتنوّعاته في السورة الواحدة، لما قلنا في قوله تعالى في سورة يوسف: {وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ الله} ثم في آخرها {حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ}، يجب أن تعرف تنوع اليأس هنا وهناك، فهو ليس واحدًا، وهكذا القرآن كله. في سورة يوسف كذلك {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} الحكم التشريعي، ثم على لسان يعقوب {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} الحكم التكويني.

انظر إلى الآية هنا الرحمة العامة الشاملة للكون، أين الرحمة الخاصة في هذه السورة؟ افتحوا صفحة (١٣٤)، آية (٥٤) {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، هذه الآية من

أعظم ما يُسلّي قلب العابد، ويُحزنه أن لم يَعِش مع رسول الله ﷺ. هنا الرحمة الخاصة. وفي قوله: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} هذه الرحمة العامة. وقال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} هذه الرحمة العامة {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ..} هذه الرحمة الخاصة، إذًا كل الناس مرحومون، وهناك رحمة خاصة لأهل الإيمان وهي التي دعا بها موسى لما اعتذر قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} انظروا إلى هذا التكرار.

الأسئلة:

١. يقول الله –سبحانه وتعالى–: {قل سيروا في الأرض ثم انظروا...} هذا الخطاب أليس للكفار، فكيف يخاطب القرآن الكفار وهم لا يستمعون له ؟

الشيخ: هذا ليس فقط في هذه الآية، يسأل أخوكم سؤالًا يسيرًا أجاب عنه العلماء قديمًا، وهو كيف يخاطب القرآن الكفار وهم لا يستمعون له؟ هذا من قبيل إقامة الحجة عليهم، ومن قبيل التّنزُّل. وهذه الكلمة للرازي هو وأخذها مَن بعده، كيف قال: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ}؟ قال: هذه مربوطة فيمن قبلها، –فقط لتكون الإجابة أوسع مما سألتم–، فقال: هؤلاء الذين قالوا: {لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ} قال: هذه إنما قالها بعضهم على سبيل الاستهزاء، فجاء الرد {مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}.

الجواب الآن، لو افترضنا أن أناسًا يجادلون على جهة الحق، وأنهم يريدون الصواب، فبمَ تقطع حجتهم؟ النظر إلى الأمم السابقين؛ فهذا من قبيل التّنزُّل في الخطاب لأناس يُظهرون أنهم يريدون الحق ولم تستطع إقناعهم، فأنت تتنزل بالخطاب: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} فهو من قبيل التنزل في الخطاب لهم مع أنهم مستهزؤون، لكن لو قيل أن فيهم فلانًا ليس مستهزئًا فسبيله أن ينظر.

وهنا دليل مهم وهو الدليل الكوني، ولا أريد أن أخوض فيما يقوله البعض من أنه يجب أن يكون الدليل عقليًا، بمعنى أن لا يكون كونيًا؛ لأن الدليل الكوني يقولون بأنه دليل يترفَّع عنه الكبار، فينبغي أن يكون الحوار عقليًا. لكن القرآن لا يقبل هذا الكلام، القرآن يريد أن يُقيم الحجة، من أعظم حجة أن تُقنعه لفظًا أم تحضر له الحقيقة واقعًا؟ فهو يريد أن يقطعهم ولذلك قال: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} هذا واحد.

وهذه الفائدة أن المثال عند العلماء خير من المقال، المثال خير من القياس والكلام؛ ولذلك القرآن تقوم تربيته على المثال، كما قال ﷺ: (وصلوا كما رأيتموني أصلي)[٨٦] فيُقيم لهم المثال لتحصل العبرة. تعرفون ما معنى العِبرة؟ لماذا تُسمّى الدمعة عَبرة؟ لأنها تعبر من العين إلى الخد، والذي تقطعه من مكان لمكان عبرته معبر، فهي عِبرة لأنها تَعبُر من التاريخ إلى الواقع، فهو يحضرها من التاريخ الماضي السحيق لتكون عبرة له، فأولًا هذا مثال فانظر. ثانيًا وهو المهم جدًا: وهو إقامة النتيجة على دلالة الحق، النقاش يدور حول صدق النبوة، وأقام ما أحدثه في المكذبين دليلًا على صدق النبوّة، فهو دليل استخدام الأثر على قوة الصواب والسبب.

٢. سائل: (...) الإمام السعدي في تفسيره لقوله تعالى: {قل سيروا} قال أن هذا يشمل سير الأبدان وسير القلوب. ثانيًا في قضية الرحمة العامة: هل يُفهم من ذلك أنه يجوز الترحم على الكفار مثلًا بهذه النية؟

الشيخ: أولًا: بلا شك أن السير يحدث بالرؤية ويحدث بالخبر، فما قاله من قضية السير وهو سير العبر الذهني فلا بد من الخبر، وتفسير السعدي هو من أسهل التفاسير لكن لا ينفع طالب العلم المجدّ، على ما يعظّمونه به، ويكاد يكون تفسير السعدي شبه اختصار لتفسير الطبري. لكن ما قاله القدماء أجل مما قاله السعدي، وهو كلام صحيح في النظر والكلام العام، بأن السير يكون قراءة ويكون نظرًا، ولكنهم قالوا بعدها لما كانت

---

(٨٦) صحيح البخاري: (٦٣١).

العرب لا كتاب لهم يقرؤون فيه أخبار الأولين، فاحتاجوا إلى السير بدنًا. الأوائل قالوا: بحسب المخاطبين، والسعدي يقول: بحسب عموم الناس بعد المشركين بعد كفار قريش.

فهم انتبهوا لها قالوا: أُمروا بالسير بدنًا لأن كفار قريش لا كتاب عندهم يقرؤونه عن أخبار السلف، {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ}، فلذلك قال: سيروا أي اذهبوا لأنه لا كتاب لديكم، فأمروا بهذا، وهذا جائز لهم وجائز لغيرهم ممن عندهم كتاب أن يقرأ ويرى.

لكن في الحقيقة من أعظم؟ بعض المناطق المهولة لما تدخل عليها وتراها كما هي، في الصورة تراها تنظر إليها تستعجب، وتستعظم هذا الأمر، لكن إن حضرتها كان للحضور أثر أعظم وأبلغ، وحتى الأماكن لها عظمة ولها ثِقَل على النفوس وهكذا لا بأس.

الثاني: يجوز الترحم على الكافر بمعنى طلب الهداية له، أما بعد الوفاة فهذا من الاستغفار وطلب الرحمة فلا يجوز، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} فكيف يدعو له بالرحمة؟

السائل: من باب تخفيف العذاب يا شيخ هل يجوز؟

الشيخ: هذا يوم القيامة وليس في الدنيا، يجوز أن يُخفف عنه العذاب، والنبي ﷺ يشفع لبعض الكافرين بتخفيف العذاب، كما قال النبي ﷺ: (إن أهونَ أهلِ النارِ عذابًا يومَ القيامةِ ، لرجلٌ تُوضعُ في أخمصِ قدَميه جمرتانِ ، يغلي منهما دماغُه)[٨٧]، وهذا على قاعدة ما قلناه: أخوهم إبراهيم، أخوهم هود، فنخاف أن الناس اليوم بسبب الأخوّة الزائدة مع الكفار وبسبب أن الناس الآن يريدون أن يُسقطوا عقيدة الولاء والبراء، وبسبب

---

[٨٧] صحيح البخاري: (٦٥٦٢)، صحيح مسلم: (٢١٣).

أن اليهود الآن صاروا أصحابنا والمسلمين أعداؤنا، وصارت القسمة الآن قسمة شيطانية تقوم على الوطن والقومية، وتقوم على حسابات سياسية لا دين فيها، فالآن صار اليهود والنصارى إخواننا، وصار المشركون إخواننا، فتنتهي عقيدة الولاء والبراء.

ولذلك لما يقع مثل هذا الشرّ ينبغي قطعه، لكن لو أنّ رجلًا من الصالحين يعرف دين الله وليس علنًا على المنبر يفتن الناس والعوام الذين لا يعرفون وجه ما يقول، فلو أنه بينه وبين نفسه رأى كافرًا أعان المسلمين وصرف الشر عنهم فطلب من الله أن يرحمه بأن يُهوّن عليه العذاب هذا لا يمنعه أحد، لكن نحن نتكلم أن الفتوى لا يجوز إغفال واقعها، اليوم الهجوم الشرس اليوم على عقيدة الولاء والبراء، على المفاصلة بين المؤمنين والكافرين، على إقامة العلاقات على وفق قاعدة تخالف قاعدة الإيمان.

انظر إلى قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} (إنما) هذه يقول أهل اللغة: تفيد الحصر والقصر يعني الأخوة لا تكون إلا بين المؤمنين، يقول ﷺ في الحديث الصحيح: (لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقيّ)[٨٨]، فمثل هذه الأمور يجب بيانها في وقت فيه الشراسة والهجوم على أعظم ما يتحقق به الإيمان. ما هو ركن الإيمان؟ أن تحب لله وأن تبغض لله، ولا يكتمل إيمان المرء ولا يكون مؤمنًا حتى يحب لله ويبغض لله، هو الحب في الله -عز وجل-؛ لأن المتحابين في الله يُحشرون يوم القيامة على منابر من نور، تصوّر يوم القيامة تختلّ أمور الفيزياء فيصير النور مادة تجلس عليها، علامة على أنك أنت الذي تتغير وليس النور، ليكون لك جسد قادر على رؤية نور وجه الله -عز وجل-.

فالقصد اليوم ينبغي أن تُصفّى مناهج التربية، تُزال منها عوائق محبة الكافرين وهي سبيل جهنم، قال -سبحانه وتعالى- في أول سورة وأنت ترددها في كل ركعة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، من المغضوب عليهم؟ اليهود، من الضالين؟ النصارى، هذا بتفسير النبي ﷺ، فأنت تدعو الله أن لا تمشي بطريقهم، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ

---

[٨٨] حسنهُ الألباني في صحيح الجامع: (٧٣٤١).

أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} هذا ينبغي أن نستحضره.

لكن في أمور المسلم يفعلها على جهة الإحسان، {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ}، اليهود قاتلونا وأخرجونا من ديارنا، والنصارى أخذوا ديارنا ودمروها وجعلوا منها قاعًا بلقعًا. فهذا على المنبر لا يجوز؛ لأن هذا من الفتنة والشر. لكن رجل يعلم من الكفار أنه أعان المسلمين، أزال الشر عنهم، عمل الخير معهم، فبينه وبين نفسه قال: "نسأل الله أن يرحمه" على معنى أن يخفف عنه العذاب لا أن يُدخله الجنة. لأنه لو قال أحد في الوجود أن اليهودي والنصراني بعد بعثة النبي ﷺ يدخل الجنة هذا كافر في جهنم مع أبي لهب وأبي جهل.

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ}، {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ}، {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، دين الحق هو دين النبي محمد، فيجب أن يُقاتل كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ. فهذا الاعتقاد اليوم الذي يجري في الناس من إماتة الولاء، وإحياء القومية وغيرها هذا كفر، فمن قال أن اليهود والنصارى لا يدخلون جهنم خالدين فيها هذا كافر ملعون. الذي يقول أن كافرًا عُلم عنه أنه مات على الكفر في الجنة هذا خالد في جهنم، احذروا على دينكم، لا تتابعوا الشيطان، لا تتابعوا الناس، لا تتابع كل من تكلّم باسم الدين، هؤلاء دعاة على أبواب جهنّم من أجابهم قذفوه فيها.

٣. سائل يسأل: سؤال غير واضح.

الشيخ: قلنا هذا كافر. أساس كل الشر نظريات الشر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقائدية التي أحدثها دارون، ومع ذلك يقولون: يدخل الجنة!؟ أنا أحبّ أن أنسب الفضل لأهله والأستاذ محمد قطب بلا شك إمام، يقول الأستاذ محمد قطب: أساس نظرية المتعة -دارون الإنسان أصله حيوان-، أساس نظرية سقوط القيم أن الإنسان حيوان، هذا سقوط القيم ورثته الرأسمالية وورثته الشيوعية ورثه علم النفس، علم النفس

بما فيه أن الإنسان دابّة يقرؤونه كما تُقرأ الدابّة، وما قاله علماء الاجتماع على أساس كفري كله أن الإنسان حيوان. والله –عز وجل– يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}.

فيأتي واحد ليجعل أساس الشر في الوجود المعاصر هو ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!، هذه لا أقولها عن شيخ إمام جامع، لا نجزم لأحد لا بجنة ولا بنار من المسلمين؛ لأنك لا تدري أيُعذّب ثم يُذهب به إلى الجنة أم أنه يُعفى وإلى الجنة مباشرة، أما الكافر نجزم له بجهنم. فإذا كان هذا القول يُمنع أن يُقال في مسلم يصلّي معك الخمس صلوات ويقرأ القرآن ويقوم الليل ويصوم رمضان، يمنعك الله والشرع أن تُزكّيه لقوله: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}، ثم تقال عن رجل هو أساس الكفر في هذا الوجود المعاصر! هؤلاء مشايخ كفار.

الشيخ محمد شاكر مات من زمن، وهو والد الإمام العلّامة المحدّث أحمد شاكر، ووالد العلّامة اللّغوي المحقّق المدقّق الأستاذ محمود شاكر، كان قاضيًا، فجاء طه حسين وحضر الجمعة عند خطيب وحضر الملك فاروق، فلما سلم الملك فاروق على طه حسين –أعمى البصر والبصيرة، ملعون من أُسس الشر في هذا الوجود–، فسلّم عليه، فالخطيب أخذه الوَجْد الكُفريّ، –في وجد إيماني وفي وجد كفري–، فقال الخطيب عن الملك لما سلّم على طه حسين: "لما جاءه الأعمى فما عبس ولا تولى"!! فصلى الناس والشيخ محمد شاكر وقف وأمسك الميكرفون، قال: كفر خطيبكم يا إخواني أعيدوا الصلاة. فالشيخ قد يكفر.

٤. سؤال غير واضح

الشيخ: الأمر يسير جدًا، أولًا تعرفون –وهذا من مبادئ العلم– أن التعارض في كلام الحكيم لا يكون، هل يمكن أن يقع التعارض؟ اقرؤوا كل الآيات التي تتحدَّث عن قوله: {لَيْسُوا سَوَاءً} بعد أن آمنوا، كل الذين تحدث القرآن عن إيمانهم من أهل الكتاب هم الذين أسلموا برسولنا، فلما يأتي شيخ –على رأسه طربوش– ويُنزِّل آيات الإيمان على كفار كفروا برسول الله من أهل الكتاب، هذا من الضلال والانحراف.

نراجع الآيات، لتروا أن القرآن لم يمدح أحدًا من أهل الكتاب بعد بعثة النبي ﷺ بالإيمان إلا وقد أن آمنوا بالنبي ﷺ، إلا بآية واحدة فقط لم يمدحهم للإيمان وإنما للعدل، وهي في سورة آل عمران، وهي قوله: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ} هذه لعدلهم وإنصافهم بقيت فيهم، ويُشبهها قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً} ومع ذلك في آخرها بيان مَن الذين يُمدَحون فيهم، انظر إلى قوله–سبحانه وتعالى– في سورة آل عمران صفحة (١٦٤) آية (١١٣): {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}

هذه تتنزَّل على واحد خوري؟ أين آيات الله التي يقرأها؟ القسيسون أين هي الآيات التي يقرأونها؟ أين يسجدون بالليل والنهار؟ هذه الآية واضحة، نزلت على من استجاب لرسولنا ﷺ، هؤلاء منهم امة أي الذين أسلموا واتبعوا رسولنا ﷺ.

يقول علماء التفسير: **لا يوجد آية في القرآن احتجَّ بها مُبطل إلا وفي الآية نفسها ما يُردّ عليه**. مرة شيخ وللأسف أستاذ تفسير كان من أحبّ الناس إليّ، والله على ما أقول شهيد، يريد أن يحتجّ على التّنوّع القدري بالتّنوّع الشرعي؛ يعني الله خلق المؤمن والكافر {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} فهل هذا إقرار بالكفر؟ هل معنى أن الله خلق رجلًا مسلمًا ورجلًا كافرًا أن هذا إقرار بأن الله رضي الكفر؟ في سورة الأنعام ردّ عليهم. اذهبوا إلى سورة هود، وقد أراد أن يحتجّ بها {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} فأراد أن يُكملها، هو يريد أن يحتجَّ أن الله نوَّع الخلق، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} والآية ماشية على لسانه فقال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} وقف عند {إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ}، علامة الذين رحمهم الله أنهم لم يختلفوا، واحد قال عن عيسى انه ابن الله، واحد قال عيسى هو رسول الله، فهؤلاء مختلفون، واحد منهم مرحوم وواحد غير مرحوم. فانظروا لمن يحتج بالآيات كذبًا، هذا فقط مفتاح للسؤال.

في سورة المائدة آية (٨٢) قال الله –عز وجل–: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا} علّل، فإذا وُجِد

قسّيسون ورهبان لا يستكبرون فهم أقل عداوة، فالآية أثبتت لهم ثمّ جرّدتهم من هذا، انظر: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} هل رأيت البابا النصراني حين تقرأ عليه آيات تفيض عيونه من الدمع؟ {تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}.

قلنا مرة: إن أعظم الفقه هو أن يُستخرج الحديث من القرآن، هذا فيه حديث وهو: (ثلاثةٌ لهم أجرانِ : رجلٌ من أهلِ الكتابِ، آمن بنبيهِ وآمن بمحمدٍ ﷺ .....)[٨٩] فهذا من هذه الآية.

{فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}، كيف يقع الإحسان؟ بالإتيان بالتقوى وزيادة عنه، أما التقوى إيمانه برسوله وأما الزيادة عنه فالإيمان بمحمد. أنا قرأت هذا في كتابي (صِبغة الله الصمد) وجئت إلى كل الآيات التي يُحتجّ بها، وكلها تُجرِّد هؤلاء المجرمين مِن دعواهم أن هناك مَن هو معذور مِن أهل الكتاب بعدم اتباعه لرسولنا ﷺ أو إقراره على كفره، {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثٍ}.

سؤال الأستاذ: كيف نجمع بين قوله: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ..}، وقوله: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ..}.

هذه الآية في سورة التوبة فيها فائدة {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً} أي فقرًا؛ فالناس الذين يأتون للحج هم مصدر للأموال، فإذا منعوا الكفار {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} فورًا فتح لهم الباب وأعطاهم الغنى، الآية التي وراءها هذه التي نحن فيها: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} هذا هو {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ

---

[٨٩] صحيح البخاري: (٩٧).

فَضْلِهِ}، ولذلك النبي ﷺ قال: (جُعل رزقي تحت ظل رمحي)[٩٠]، وقال الشيخ عبد الله عزام –رحمه الله-: "ما قال تحت سيفي لأن السيف صغير بينما الرمح طويل".

الواقع القدري للناس حالتان: **الحالة الأولى**: إما إنسان لوحده منفرد، مقدور عليه يعيش في الصحراء لوحده، أو يعيش بين المسلمين، مثل ما قال أبو بكر –رضي الله عنه-: "وتجدون أقوامًا قد اعتزلوا في الجبال، اتركوهم وما شغلوا أنفسهم به"، فهذه حالة بشرية اجتماعية وهي الانفراد وعدم وجوده داخل قوة مُمكّنة. **والحالة الثانية**: وهي وجود الإنسان داخل كيان ممكَّن وهو جزء منه.

فإذًا هذا كافر وهذا كافر، هذا كافر يعيش لوحده في حالة من الحالات، توجد كثير من الصور تعيش في حالتها. وهذه حالة اجتماعية أخرى الكافر يعيش فيها ضمن كيان مُمكَّن. فالآية الأولى للكيان الممكّن والآية الثانية للكيان غير الممكّن.

الآية التي يقول فيها: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، في سورة البقرة: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}، ولكن في سورة الأنفال وهي مع سورة التوبة حالة واحدة، قال في سورة الأنفال: {حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} ذلك أن الدين في سورة البقرة عن العقائد وأما في قوله (كله) على الشرائع. فهذه آية للقتال على العقائد حتى يكون الدين لله يعني التوحيد لله. والثانية يكون كله لله أي الشرائع فيُقاتل. وهذه الآية دليل على وجوب قتال من امتنع عن شريعة من الشرائع.

قال: {وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ} قاتلهم لاعتقادهم، فالنظر إلى أن هذه لها كيان، وهذه ليس لها كيان. وأما قوله –عز وجل-: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ..} في سورة الممتحنة، {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ} فهذه حالة فيمن هو ليس جزءًا

[٩٠] صححهُ الألباني في صحيح الجامع: (٢٨٣١).

من كيان مُمكَّن، فهذا يجوز أن يُعامل بنفسه ويُترك، مثل الكافر في بلادنا لا يُكره على الإسلام، من أهل الجزية، المعاهد، الإنسان المعتزل لوحده، فهذا يُعامل بما بدر منه من أعمال. وأما ما كان كيانًا ممكّنًا فالإسلام لا يُجيز بقاءه البتّة. ومن هنا قال العلماء بالإجماع وذكر هذا ابن قدامة: "أنه لو ترك الخليفة أو الإمام الجهاد – جهاد الطلب وليس جهاد الدفع– ثلاث سنوات عُزل".

هذا هو الجواب والله تعالى أعلم.

٥. سائل يسأل: لماذا في القرآن يستخدم التذكير للتأنيث، والتأنيث للتذكير، مثلًا كلمة (الأعراب) مذكر، لماذا قال في القرآن: {وقالت الأعراب}، وقال في سورة يوسف: {وقال نسوة}؟

الشيخ: افتح سورة النساء حتى أُعطيك هذه اللفتة المهمة، وهذا أمر موجود عند العرب، يقول الله –عز وجل–: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} ماذا قال بعدها؟ {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا}، ما دخل إناثًا وشياطينًا؟ ذلك لأن العرب تُنزِل المرتبة بتسميّة الشي أنثى، ولذلك قال جرير: "شاعري ذكر وشعراؤهم أنثى"، فإذا أراد أن يُصغِّر المرء شيئًا كان على صفة الذّكوريّة في الخِلقة فخاطبه خطاب الإناث فإنما هو إهانة له، الشياطين فيهم ذكور وفيهم إناث، لكن لما أراد الله —عز وجل– أن يُبطل فعلهم أنهم لا يُجيبون سائليهم وليس عندهم القدرة على الفعل سماهم إناثًا، فقال: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا} فسمى عجز الشياطين وضعفهم في إتيان الفعل إناثًا ذلك لم الذكر هو الذي يفعل. فهذه واحدة، والأجوبة كثيرة.

فإذا أراد تعظيم شيء خوطب مخاطبة الذكور حتى لو كانت أنثى تعظيمًا لها، وهذه لغة العرب. طبعًا اليوم في دعوى من دعوات إبليس والشيطان وهي إسقاط التأنيث والتذكير من لغتكم العربية، لأن لغتكم العربية لغة ذكورية، واليوم هو مجتمع المساواة، نحن والنساء واحد ما الفرق؟!

٦. سائل يسأل: هل الرسول استغفر لأبيه وأمه؟ وهل زار قبرهما؟

الشيخ: نعم استغفر، واستأذن فزار. الرسول استغفر ثم نُهي عن الاستغفار وهذا في خواتم سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} فكان النبي يستغفر، فقال النبي ﷺ: (استأذنت ربي أن أزور قبر أمي فأذن لي) لأن زيارة القبر فيها معانٍ، نزول الرحمة تُرحم بزيارته، (واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي)[٩١]. فيُستغفر للرجل قبل أن يُختم له بالكفر رجاء التوبة، يعني واحد عاصٍ تقول: اللهم اغفر له رجاء أن يُغفر له، فإذا مات على الكفر لا يجوز لك الاستغفار له، وكذلك في سورة التوبة قال -سبحانه وتعالى-: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا، والحمدلله رب العالمين.

---

[٩١] صحيح مسلم: (٩٧٦).

الدرس السابع عشر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

كنّا مع قوله –جلّ في علاه-: {**قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**}.

قلنا بأن هناك سِمة علامة في نَفَس السورة، سمّيناه **شخصية السورة** –وهذا لا بأس به- أو وجه السورة، أو كما يسميها بعضهم أجواء السورة، وليس المقصود فقط الموضوع الذي تطرقه السورة، مواضيعها وأركان علومها، ولكن المقصود كذلك حتى في ألفاظها. نرى في سورة الأنعام تكرّر قول: (قل)، نرى هنا في قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} ثم قال: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} الصفحة التي بعدها {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ}، {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا}، فنجد هذه الصيغة في هذه السورة علامة واضحة في سِمة هذه السورة.

والسبب أن هذه السورة مكيّة، وهذا الخطاب نستفيد منه أمرين، **الأمر الأول**: أنّ هذا التكرار لا يمكن أن يصدر من رسول الله ﷺ، بل هو صدور من أمر علويّ لرسولنا ﷺ؛ وذلك لبقاء السامع والقارئ لهذه السورة وللقرآن حاضرًا عقله وذهنه أنّ هناك ثمة خطاب علويّ لمن يُبلِّغك هذا القرآن، وهو ورسولنا ﷺ، هناك من هو مُستَعلٍ عليه يُنزله ويأمره: (قل). فيتكرر هذا الخطاب لبقاء هذا الحضور العلويّ أنّ هناك ربًّا –جلّ في علاه- يأمر وينهى: قل يا محمد، هذا واحد.

ثانيًا: نحن نعجب أنّنا قلَّما نرى من رسولنا ﷺ يقرأ هذه الألفاظ عَيْنَها عند التبليغ وعند الحديث، فقوله – سبحانه وتعالى-: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، هو يقرأ عليهم هذه السور، كما قرأ

رسول الله ﷺ سورة فُصّلت على الذي المغيرة الذي جاءه من المشركين وطلب منه أن يقرأ عليه من القرآن، فقرأ عليه سورة فُصّلت –عليه الصلاة والسلام–، لكن نحن لا نلاحظ في حديثه إلا خطابًا ذاتيًا؛ والسبب الذي نفهم منه حكمة هذا الأمر أنه **على الداعية أن يُراعي الـمُخاطَبين في لغتهم**، أولًا عليه أن يقرأ عليهم القرآن؛ لأن القرآن فيه سرّ، ولكن قد يرتقي مفهوم القرآن عن مفهوم سامعه، وعن مستوى مُتلقِّيه، فلا بد أن تُخرج هذا الخطاب من هذا الثوب العظيم إلى خطاب من تتكلّم معه، وهذا كالتُّرجمان ولذلك يُسمى ابن عباس: ترجمان القرآن، ما معنى الترجمة؟ الترجمة هي التفسير.

فرسولنا ﷺ يُترجم القرآن، فلما يقول له الله –عز وجل–: (قل) هو يأخذ هذا المعنى –عليه الصلاة والسلام– ويترجمه خطابًا لهم عند ضرورته. ولكنه في الأصل يقرأ عليهم القرآن. هذا من الفوائد التي ينبغي أن نهتم لها.

قوله:{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ}، هذه فيها أمران؛ الأمر الأول: إعادة إلى ما تقدّم قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ}، وقلنا: قد يخلق المرء ويبيع خِلقته، قد يصنع الصانع صِنعته وللحاجة يُهديها لغيره أو يبيعها، لكن ربنا –سبحانه وتعالى– خلق السماوات والأرض وما زالت هذا السماوات والأرض له وتحت ملكه، فهي خاضعة له –جل في علاه–، فهنا (له)؛ أي لملكه.

{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} هذا –كما قلنا– سؤال تقريري، بمعنى أنهم –كفار قريش– لا ينكرونه، ولذلك قال الله –عز وجل– كما في سورة لقمان: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} فهذه القضية هي محلّ إجماع ومُتَّفق عليها، فهم لا ينكرون ربوبية الله بخلاف بعض الملحدين، مع أنه لا يوجد على ظهر الأرض ينكر الخِلقة والإيجاد والابتداء، ولكن الناس على تفاوت في هذا الباب، وأما كفار قريش {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}. في سورة لقمان: {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، فهم على اتفاق يؤمنون بأن الله خلقها. طيب لمن هي؟ فهذا مُقرَّر عندهم أنها لله، فإذًا لماذا تعبدون غيره؟ كما قال النبي ﷺ لحُصين والد عمران بن حصين، قال له: (كم إلهًا تعبدُ؟) قال: "أعبد ستة في الأرض وواحدًا في السماء"، قال: (فأيُّهم تُعِدُّ لرغبتِكَ ورَهْبتِكَ؟) قال: "الذي في السماء"، قال: (إن احتجت شيئًا من تدعو؟) قال: الذي

في السماء، قال: (فيستجيبُ لك وحدَه وتشرِكُهم معه)[٩٢]، فهم عندما يُصيبهم البلاء لا يدعون إلا الله –سبحانه وتعالى–، ولكن هذه الآلهة الثانية شفعاء ويعتقدون أن الله بحاجة لهؤلاء الشفعاء لتنفيذ أوامره.

فقوله: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} جاء الجواب: {قُلْ لِلَّهِ}لأنهم اتفقوا عليه، إثبات هذا الملك لله –عز وجل– ما هي آلة وجوده ودوامه؟ وما هي الصفة التي تتجلَّى فيه ابتداءً وانتهاءً وأثناءً؟ هي **الرحمة**؛ ولذلك القرآن كله يُبتدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، **والصفات إذا اشتُقَّ منها أسماء فتنوّعت هذه الأسماء دلّ على عظم هذه الصفة**؛ فلما كانت الرحمة عظيمة تعدّد الاسم المشتقّ منها، وكما نرى في الحديث هي الـمُقدَّمة فلم يُشتقّ منها اسمٌ واحد بل اشتُق منها: الرحمن والرحيم، والرحمن كما قلنا أبلغ، لزيادة المبنى فدلّ على زيادة المعنى، الرحمن؛ (رحمن) خمسة أحرف و(رحيم) أربعة، فزيادة الحروف تدل على زيادة المعاني. وقلنا (ألف ونون) ما لم يكن مثنى فإنها تدلّ على المبالغة.

فإذًا صفة الرحمة مُقدَّمة، ولم يَشتَقَّ منها ربّنا اسمًا واحدًا له بل اشتق منها اسمان، وذلك لجلال هذه الصفة وعظمتها عند الله –عز وجل–.

هذه الرحمة أول شيء قامت بها السماوات، وبها تمّ إمداد ما في السماوات من عطاء، ما يعطيه الله –عز وجل– قلوب الآباء على الأبناء، ومن الأمهات، ومن المتصدّقين، من الدّابة، فهذه رحمة تغلغلت كل شيء. لولا الرحمة لما نبت الزرع، لولا الرحمة لما أشرقت الشمس، لولا الرحمة لما كان الليل والنهار، فعماد قوام الوجود على الرحمة. فلو أن هذه السنن غير ثابتة في الوجود كيف تكون حياة البشر؟ في الشقاء، مثلًا هذه الأرض التي تمشي عليها من السنة أن تكون صلبة، وهي رحمة، فتصوّر أنك اليوم خرجت إلى الأرض وهي صلبة، وبعد ساعة خرجت إليها وهي رخوة، وبعد ساعة خرجت إليها وهي ماء، كيف سيكون حال البشرية؟

فاستقرار السنن من الرحمة. الهواء سنة ثابتة أن يكون على هذه الصفة، فلو أن الهواء صار ضارًا بنفسه ليس بما يعلق به من أدواء وأمراض فكيف سيكون حال البشرية؟ ولذلك الحياة كلها قائمة على الرحمة.

---

[٩٢] رواه ابن خزيمة في كتاب (التوحيد) وأشار الى صحته، ورواه الألباني بلفظ قريب ولكن ضعفهُ في ضعيف الترمذي: (٣٤٨٣).

وبهذا أيها الإخوة الأحبة يُردُّ على المجرمين الذين يَنسِبون لربنا الشرّ. وهنا أقف نقطة وهي من الأمور المهمة؛ الله خلق الشر، لكن هل يُنسب إليه؟ ماذا قلنا عن الباطل؟ الباطل أمر سُلُوبي؛ بمعنى أنه يقع عند غياب الحق. فما هو الشر إذًا؟ الشر هو غياب الخير، والشر هو استخدام ما أراد الله من الخير في الشر، يعني القتل أنت تأخذ السكين فتذبح فيها الدّابة مُسمّيًا الله لتأكلها هذا خير،لكن أخذت السكين قتلت بها هذا شر؛ الله خلقه، لكن هذا الشر هل يُنسب إلى الله؟ لم يُنسب إليه لا على أصل جهة خِلقة السكين ولا على أصل خِلقة المقتول ولا على أمره بالقتل، ولذلك في الحديث قال: (والشر ليس إليك)[٩٣]؛ والشر لا يُنسب إليه مع أنه مخلوق، لكن الخير ينسب إليه لأنه في أصل الوضع خلقه من أجل الخير.

الآن ما هو أصل الخمر؟ الرحمة، وهو الماء والعنب، فهذا أصل خلقتها وهو على الرحمة والخير، ما الذي أحدثه الإنسان من الشر، الله خلق فِعله هذا، وهذه سنة موجودة في التخمير، ولكن هل الله أمر بها؟ هل أصل وضعها كذلك؟ هل الله خلق العنب هكذا؟ فالإنسان هو الذي فعلها بما خلق الله من هذه السنن، ولكن الشر لا يُنسب إليه. ولذلك لا يجوز أن تقول عن الله –سبحانه وتعالى– أنه يفعل الشر، وإن كان قد خلق الخير والشرّ، لكن الشرّ لا يُنسب إليه، لا على جهة أمره، هل الله أمر بالشر؟ هل الله وضع الأشياء على أصل خِلقة الشر أم على أصل خِلقة الشر؟ من الذي بعد ذلك حولها للشر؟ الإنسان، مفهوم؟ فالشر ليس إليه –سبحانه وتعالى–.

فقال –سبحانه وتعالى–: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، العلماء والمفسّرون يَفصِلون هذه الكلمات في الآية الواحدة، يقولون: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ} فهذا إثبات الملكية لله، {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} أي في العمل والجزاء فيهما. والصواب –ولم أر من تكلّم فيها من أهل التفسير لكني أعتقد أن هذا هو الحق–، أنّ ربط الرحمة في الملكية ليس خطابًا جديدًا، قوله –سبحانه وتعالى–: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} هو لما ملك من السماوات والأرض؛ لأن المالك فيما يُعلم من البشر فيه صفة الظلم، هو مالك ولا يُسأل.

---

[٩٣] صححهُ الألباني في صحيح الترمذي: (٣٤٢٢).

ولذلك بعضهم يأتي إلى قوله تعالى:{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} ويذهبون مذاهب باطلة، -لا أريد أن أخوض فيها موجودة في كتب الكلام-، مثل قولهم: "يجوز لله -عز وجل- أن يُعذّب الطائع وأن يُثيب العاصي"، هذا باطل؛ لأن الله يقول في آية أخرى:{إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فأنت تُجوِّز ما لم يأذن به الله -عز وجل- في نفسه. فقوله -سبحانه وتعالى- في الآية التي يحتجُّون بها: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}؛ أي: مما يفعله من الخير: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

فقوله -سبحانه وتعالى-: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ}، هل هذا الملك فيه عسف؟ فيه ظلم؟ فيه تجبّر؟ هذا الملك فيه رحمة.

وفيها معنى آخر أجلّ، الصِّلة بين إثبات الملك {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ} وقوله سبحانه: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} وهو أن هذه مخلوقة لغيره، لأنه هو لا يحتاج الرحمة. فلما يقول: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ}كأنه يقول: هذه خلقتها لغيري، وأجلُّ من هذا المعنى أنها خُلقت لغيره على معنى الرحمة.

يعني أولًا هي خُلقت بالرحمة، ما من شيء إلا وفيه الرحمة. الشيء الثاني أنها خُلقت لغيره، ولما خُلقت لغيره كان بهذه الأشياء الرحمة للعبيد. وبهذا أنتم تتفتّح لكم مفاتيح هذا القرآن الخفيّ العظيم في قوله -سبحانه وتعالى-: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} كأنه يقول: أنا خلقتها لكم فكيف تُنكرون نعمتي عليكم؟ وخلقتها لكم على سبيل الرحمة بكم، فما الجزاء لهذا؟ هو أن لا تعدلوا.

وأنا أعجب من الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- كيف بقي مُردِّدًا كلمة (يعدلون) في تفسير كل الآيات التي جاءت بعدها إلى هذه الآية وما وراءها، هذا لطلبة العلم حتى يتأملوا كيف أن العلماء في قراءتهم للسورة لا يفصلون الآيات كما يزعم بعض الجَهَلة أنها غير مربوطة، فالعالِم في ذهنه هذا الربط.

فإنه أتى إلى قوله: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون} أي يتّخذون غيره آلهة يعبدونها من الأصنام والأوثان، هذه العبارة بقيت تتردّد في كلام ابن جرير الطبري إلى هذه الآية وما بعدها، فيقول: (قل) لمن؟ قل لمن عدل، {قُلْ

لِلَّهِ} لمن عدل وأشرك، {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} انتبهوا، وهكذا، فيعود في كل جملة قرآنية إلى هذا اللفظ حتى يبقى هذا المعنى مُطَّردًا.

قوله تعالى :{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، الحديث فسّر هذا في قوله ﷺ: (إنَّ اللهَ كتب كتابًا قبل أن يخلُقَ الخلقَ: إنَّ رحمتي سبَقَتْ غضبي)[٩٤] هنا معنى جليل، يحضر في العلم معانٍ عند التعليم ما لا تحضر في التأمل الذاتي.

انتبهوا لهذا الحديث العظيم، أنا أحاول أن أعطيكم من المعاني ما لا يوجد في الكتب قطّ. متى يكون الخيار بين الرحمة والغضب؟ هل عند فعل الطاعة أم فعل المعصية؟ لا يكون الخيار بين شيئين يتسابقان على شيء إلا وهذا الشيء يحتملهما، وإلا لو كان لا يحتملهما لا ينبغي السباق بينهما؛ فلو كان هذا الحديث معمولًا به لمن أطاع لما صحّ أن يُقال: "سبقت غضبي" لأن الغضب ليس ملائمًا لما يُسبق إليه وهو الطاعة، هل الغضب يسبق من أجل أن يصيب الطائع؟ بل يقول: إن رحمتي سبقت غضبي، إذًا هذا الحديث ليس لمن استحقّ الرحمة بعمله، ولكن لمن استحقّ الغضب بعمله، ومع ذلك فرحمته سبقت غضبه.

الله يقول: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} العلماء تكلموا كثيرًا فيها، وأُعطيكم ما لم يُعطوه. يقول: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} من معانيها أنه عند وقوع العسر قد بدأ اليسر، أنت يا مسكين الآن في اليُسر تنتظر العُسر؛ لأن الله يقول: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} فأنت الآن في الخير فانتظر الشر. هذه خفيّة في الآية. {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} طيب ما الذي قبلها؟ قبل أن يأتي العسر كان اليسر، فاليسر هو الذي جاء، إذًا عند وقوع اليسر يكون بعده العسر لأنه زمن ينقضي، اليسر زمن يقتضي فما ويأتي معه العسر، يتشكّل العسر من أجل أن يُذهب اليسر، فإذا جاء العسر وحلّ بدأ اليسر.

أحد العلماء أرسل رسالة لأحد ملوك عصره وقد ظلمه، قال له: "والله في كل يوم في سجني أنتظر اليسر وأنت في ملكك تنتظر العسر"، أنا أنتظر الرحمة وأنت تنتظر العذاب!.

---

[٩٤] صحيح البخاري: (٧٥٥٤).

ومعنى آخر لم يذكروه في هذه الآية: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، هم قالوا نُكِّر اليُسر فدلّ على تعدُّده، وعُرّف العسر فدلّ على أنه واحد، العسر معهود في الأولى والثانية فهو شيء واحد. ولكن اليسر منكَّر، وكذلك من معاني التَّنكير، أن اليُسر يأتي من غير سبيل معهود، يعني أنت لما تكون في عسر، تنظر إلى هذا الباب، تنتظر أن يأتيك اليُسر منه. وهو مختبئ لك في باب آخر؛ لأنه ليس مُنكَّرًا في كونه يُسران يغلبان عسرًا، لكنه كذلك منكّرٌ في حقيقته فلا تعرف كيف يأتي.

وكل هذا من أجل أن تعلم أن الرحمة تغلب الغضب، (إنَّ رحمتي سبَقَتْ غضبي)؛ فهذه الرحمة تسبق الغضب على من يستحق الغضب.

بعض الناس يتعجّب كيف وهو يريد أن يعذبه؟! أنتم نسيتم في السورة متى وقع البلاء؟ بعد الكفر إعراض وبعد الإعراض كفر وتكذيب وبعد التكذيب استهزاء، هذا كله من الرحمة، فالله –عز وجل– {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}؛ لو استعجلوا الخير يُعطيهم، ومع ذلك اليهود الملاعين يقولون: يد الله مغلولة. والقرآن لا يرد عليهم بإطلاق، القرآن عظيم حتى وهو يُطلق الوعد يُعطيه مقيدًا {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} يُقيد.

الإنسان يأتي إلى الوعد دون أن ينظر الشروط الموافقة له، لما قال الله –عز وجل–: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} ماذا قال بعدها؟ يعني واحد يقول: توكلت على الله أين الفرج؟ {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} الناس لا ينظرون إلى هذا، يقول: توكلت ودعوت أين الفرج؟ {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} كما شرحنا في الدعاء، .

لما اليهود تعنّتوا وقالوا: {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} ماذا قال لهم القرآن؟ قال لهم هكذا: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} فقط أم قال: {يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}، انظر في سورة الشورى وهي بيان تقلّب الأحوال من أجل إصابة الحق الواحد، سورة الشورى اقرأوها بهذا المعنى؛ مقصد سورة الشورى بيان تقلّب الأحوال لتوافق الحق الواحد. انظر للآيات: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ}، الناس يقولون: أعطِنا لنشكرك، والله يعلمهم، يعلم أن الناس

كذابون. افتحوا سورة الأنعام حتى تعرفوا لأي درجة الإنسان كذاب، قال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} وُقِفوا على النار ورأوها وأحسُّوها وسمعوا لها تغيُّظًا وزفيرًا، قالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، ماذا قال القرآن؟ قال هم كاذبون؛ {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ} القرآن يقول: هذا اليقين الذي أصابهم برؤية النار كان موجودًا معهم في الدنيا، المثل الهندي يقول: "بعد الموت في جنة ونار وإذا كنت لا تصدق موت وانظر"!.

قلت لكم: أعظم ما في القرآن لنا نحن أنه يكشف لنا أعداءنا، ونحن لا نتعلم!.

قال: {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} هذه الآية دائمًا كنت أتمثّل بها لما أرى علي عبدالله صالح وهو محروق، والباقي عندكم.

القصد {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} سبحان الله!، فلا تقل: "هو فقط جاهل"، أعظم حجّة على الأعداء –قبل القرآن– هي فطرتهم في قلوبهم، وإنما القرآن مزيد حجة، وإلا فهم يعرفون الحق قبل القرآن.

من هذا كذلك أن القرآن يُقيِّد، قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}، وقلنا في سورة الشورى: تقلُّب أحوال البشر يوافق الحق، الناس يظنون أن النعمة والعطيَّة بها تُفرِّغُهم للطاعة وتؤدي للشكر، كذابون!.

ولذلك كانوا يقولون بداية غلبة الغرب علينا وهجوم الاستشراق وأعوانهم على الأمة، كانوا يقولون: أن المجتمع المسلم مغلق، عندهم حريم وممنوع ترى المرأة، هكذا كان يقول سلامة موسى، طه حسين، وهؤلاء الزنادقة، كانوا يقولون: سبب وجود هذه النظرة الشهوانية للمرأة هو الإغلاق، فالحل: افتحوا، عادي يجلس الرجل مع المرأة زملاء. الله –عز وجل– يقول: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ} قال لهم الشيطان: هيا، حتى إنه يمنعهم من شرب اليمين، كل شيء خلاف السنة. إذا أردت أن تعرف أن رسول الله حقًا فاعرف أعداءه ماذا يفعلون، كل شيء خلاف الفطرة يعملونه.

فجاء الشيطان وقال لهم: افتحوا الأبواب يا جماعة، فتحوها أخذوا من النساء حتى انتهوا، ملُّوا من النساء، فذهبوا للرجال ثم للدواب والآن على الأطفال، عندهم مشكلة الآن ومصيبة. {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ} ولذلك لا أريد أن أتحدّث في هذا وإلا فقصص هذا الباب لا تنتهي.

المال؛ الآن الشركات العابرة القارات تتحدث عن ماذا؟ مليارات! يعني أنا متعجب رجل عنده مليار لماذا يريد الثاني؟! عندك بيت جيد وسيارة جيدة وبنت حلال والأولاد، وتأكل وتشرب. والغريب أنه فوق الحاجة يُصبح كسبه أكثر عدوانية ووحشية وحيوانية، هذا من أغرب الأمور، يعني لما الإنسان يريد أن يأكل خبزًا يذهب يعمل ويكدح حتى يُعيل نفسه، لكن لما يريد ألفًا مرة واحدة؟ يبحث عن ضربة فيها انحراف قليلًا، لكن لو يريد ضربة بمائة ألف؟ أو بمليون مرة واحدة؟ فلا بد للزيادة أن تُحدث المعصية.

قال سبحانه: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} انظر التقلّب في الشورى، قال بعدها: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} هذا التَّحول من أجل الحق الواحد في التعامل مع أمر الله، هذه حكمة الخلق. فلذلك لما الناس يقولون أين الرحمة؟ هذه الرحمة؛ لأنه لو أعطاكم المال كانت مشكلة، لو أعطاكم وفتح لكم العطاء كاملًا مشكلة، **الرحمة هو وجودك على ما أنت عليه**، تُصارع خلال سُنَّة الوجود لأن تكتسب ما يكفيك، (اللهم اجعل رزق آل محمد كفافًا)[٩٥].

{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} نحن نعلم أن الرحمة هي صفة نفس وهي صفة فعل، هذا رد على جماعات يقولون: "الرحمة فيها الضعف فالله أجلّ من أن يوصف بالرحمة، ولكن الرحمة معناها إرادة الإحسان إلى المحسن" وهذا خطأ؛ الرحمة هي صفة حقيقية في نَفْس الرَّب، وهي فِعل منه –جل في علاه– على كل خلقه، وقلنا أن هذه الآية فيها الدليل على أن الرحمة عامة، وفي السورة نفسها الرحمة الخاصة لأهل الإيمان: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}.

---

(٩٥) صحيح مسلم: (١٠٥٥).

إذًا هي صفة، وبهذا التقرير نفهم أن الله لا يكتب إلا ما كان صفة له بخلاف، ما يُكتب على الخلق، فالله يكتب على نفسه مما هو مقدور عليه وهو محبوب لديه. من الذي كتب؟ الله، ولماذا يقول (كتب)؟ لماذا هذا التعبير {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}؟ لوجود الصراع، كما شرحنا قوله: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ} ما منعه؟ كقوله ﷺ في الحديث القدسي: (ما ترددت في شيء) لوجود الصراع؛ يكون في نفس الرب الغضب على فاعله ولكنه لا يفعل، يكون في نفس ربنا إرادة العذاب فيمنعها. وهذا فعله فيمن يستحق العذاب فكيف فعله فيمن يستحق الرحمة؟!

هذا فعل الله بأن يسوق إلى من يستحق العذاب الرحمة، يُمهله، يُعطيه، يؤذنه، ويقيم له من الشواهد إلخ، فهذا فعله فيمن عصاه فكيف فعله فيمن أطاعه؟!

لكن لماذا يمنع عنه؟ ولماذا يبتلي الصالح، كما ابتلى أنبياءه؟ **لأن هناك من المراتب القدسية في الجنة ما لا يبلغها العبد إلا بالعناء**، قال -سبحانه وتعالى-: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}، البشر عند الله قسمان، والبقية الثالثة ليس لهم أي قيمة. هذا خطاب لمجتمع مؤمن، فقط أبلوكم من أجل أن أُدخلكم في هذين القسمين، والباقي ما زال لم يُبتلى أو لا يستحق العطاء والمنع ولا غيره، قال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ}، المجاهدين هذا أولًا، قال: {وَالصَّابِرِينَ} الذين ابتلاهم الله {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} فقط.

فإذًا عندما يبتلي الله -عز وجل- عبده ونبيه ويبتلي الصالح، ما الذي يريده؟ يريده في مقامات لا يبلغها إلا بهذه المرتبة، هل هذا من الرحمة؟ لما الطبيب يمنع المريض الماء، يقول له: اليوم لا تشرب الماء، هل هو غاضب عليه أم رحيم به؟ فالأنبياء لما يُبلون في الدنيا رحمة بهم؛ لأن الله -عز وجل- لا يُعطي عطاءً كما يعطي على الصبر، قال سبحانه: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، الله وهو الذي أحصى كل شيء عددًا يقول: {بِغَيْرِ حِسَابٍ} الله الذي لا يفوته شيء بلا عدد ولا حساب يقول -جل في علاه-: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}!.

انظر إلى قوله: (كتب) وتأمل.

قوله: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} الله له نفس، فيصح أن تكون نفسه بمعنى ذاته.

في الحديث: (إنَّ اللهَ خلق الرَّحمةَ يومَ خلقها مائةَ رحمةٍ، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمةً، وأرسل في خلقِه كلِّهم رحمةً واحدةً)[٩٦] الدابة، الإنسان، الحيوان، كل شيء يتراحم بهذا القِسم من رحمة الله، ويوم القيامة أُجّلت بقية رحمته، فتضاف الرحمة إلى ما أُجّل تسعة وتسعين رحمة، فيرحم الله بها الخلائق يوم القيامة، هذا هو الله.

هذا هو الله، الرحمن الرحيم، هذا هو الله الذي إذا خوَّف الناس يخوّفهم رحمة بهم حتى لا يقع هذا الشرّ، وإذا هداهم رحمة منهم، وإذا أعطاهم رحمة منه، وإذا منعهم رحمة منه، هذا الإله ألا يستحق الحب؟ ألا يستحق ما تقدمَّت به السورة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ}؟ ولذلك الصحابة كانوا يقرؤون القرآن قراءة المُهتدين المُحبين لربهم، وقراءة المحبّ غير قراءة الوَجِل الخائف، وبالحمد –الذي هو الحب– تبلغ من المقامات ما لا يبلغه أي مقام آخر، ولا يمكن أن تحبّه حتى تعرفه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "أنت لا تسأل أحدًا إلا وأنت ذليل عنده، وصغير مقامك لديه، إلا أن تسأل الله، فإذا سألت الله كنت عزيزًا عظيمًا عنده"؛ إذا سألت إنسانًا تسقط مهما كان، (اليد العليا خير من اليد السفلى)[٩٧]، لكن إذا سألت الله!، فلذلك التعامل مع الله له سر، يجب أن تُدركه، إذا لم تدخل من هذا الباب جهلت.

الحب يمنع المعصية، الحب يصنع الطاعة والرضا. ترون الواحد إذا أحب واحدة يقول لها ماذا تريدين؟ ماذا ألبس؟ كيف أنام؟ كيف أمر عليكِ؟ ما هو العطر الذي تحبينه؟! فالإنسان عندما يحب ربنا فإنما يُطيعه ويجتنب ما يؤذيه، و{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}؟

---

(٩٦) صحيح البخاري: (٦٤٦٩).

(٩٧) صحيح البخاري: (١٤٣٩)، صحيح مسلم: (١٠٣٣).

كما قلنا أن كل الوجود قائم على الحمد، وكل الوجود قائم على الرحمة، وكل الوجود قائم على الحب. الله عظيم، الله متكبر، الله جبار، الله -عز وجل- ليس فوقه أحد، هو الأول فليس قبله شيء، هو الآخر فليس بعده شيء، ومع ذلك يقول: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، تأملوا، هناك أشياء لا يستطيع الإنسان الإبانة عنها!.

انظر لماذا يختار الله -عز وجل-: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} وكأن الرحمة تستحقّ هذا اللفظ بقوله (كتب)، وليس في القرآن "كتب على نفسه العذاب"، "كتب على نفسه الغضب"، فتأمل كيف أن الرحمة جاءت في موطن كأنّ هناك كتابة على الله، لأن هذا الذي يوافق الرحمة، هي سرُّها، لا تُفسَّر إلا بأن تُقرأ، هناك من الآيات لها معانٍ وذوق في القلوب لا تُحسُّه ولا تشعر به إلا أن تتلوه، {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}؛ لأن الرحمة لا يعادلها إلا هذا المعنى.

جزاكم الله خيرًا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة:

١. أحد الإخوة يسأل: هناك من الناس من يشتري بنية التجارة أراضٍ، وواحد يشتري أرضًا مثلًا بعشرة آلاف دينار، ومع ارتفاع الأسعار يبيعها بمليون، أو أقل أو أكثر، فقيمة ٢,٥% على الأرض هل تجب الزكاة سنويًا أم مرة واحدة (...)؟

الشيخ: أولًا زكاة عروض التجارة على شبه إجماع بين العلماء، ومن خالف فقد شذَّ كابن حزم ومن تابعه. ما معنى عروض التجارة؟ أيُّ بضاعة رصَدَها المرء من أجل أن يبيعها ويشتريها، مثل الذهب إذا رصده للبيع، أو أخذه من أجل أن يبيعه أو يتاجر فيه من مكان لمكان، أو انتظار ارتفاع السعر، اشترى أراضٍ أو عقارات أو ملابس، مثل أصحاب المحلات يرصدون بعض المواد للبيع والتجارة، إلى غير ذلك. فهذه يجب عليها الزكاة، **وسبب الزكاة هو النِّصاب وشرطه الحَوْل،** فرق بين السبب والشرط؛ فالذي يُنشئ حكم الزكاة هو النِّصاب، وقبل النصاب لا تجب الزكاة، وبعد أن يبلغ النصاب يبدأ شرط حلول الحول.

عروض التجارة شرطها أن يكون هذا الذي تتاجر فيه قد بلغ النصاب. وهل تُجمع الأنواع؟ الجواب: نعم تُجمع؛ يعني لو أن رجلًا يبيع موادًا صحية ويبيع قمحًا وشعيرًا، ويبيع أراضٍ، فهل هذه تُجمع لتكوِّن النصاب الواحد؟ الجواب: نعم، هذه مسألة ثانية.

ثالثًا: هل تؤدَّى زكاة عروض التجارة مِن جِنس ما يُتاجر به؟ كما في الذهب والفضة، كما في الزرع، يعني لو أن رجلًا زرع قمحًا وبلغ خمسة أوسق فما فوق، فهذا يجب عليه أن يُخرج الزكاة من القمح ومن التمر ومن الشعير ومن الملح إلخ. الأصناف وما يجري معناها ممن يقول بالقياس.

ولكن عروض التجارة لا يجب، وهناك شبه إجماع -إن لم يكن إجماعًا- على أنه لا يجب في عروض التجارة في نوعها، يعني لا يجب على بائع الأراضي كلما أراد أن يُزكّي أن يقتطع أرض ويزكيها، ولا صاحب العمارة التي أقامها للتجارة كلما أراد الزكاة اقتطع منها مقدار الزكاة، أو كذلك صاحب الدكان وهكذا. فإذًا عروض التجارة بماذا يُخرج؟ بالقيمة وليس بالعين، تُقدَّر القيمة.

أنا أعتقد -لوقت قريب درستها دراسة متأنية- أن حُليَّ النساء أي ما اتخذته المرأة للحلي وللزينة لا للإدخار ليس عليه زكاة، لكن بعض النساء يتَّخذن الذهب وسيلة للادخار، كلما جمعت ألف دينار أو ألفين تقول لنفسها اذهب واشتري بهم ذهبًا. رأيتم الفرق؟ الفرق بين الصورتين واضح، امرأة اشترت ذهبًا من أجل أن تتحلّى به هذا مقصدها، لكن امرأة كلما صار معها مال اشترت ذهبًا هذا ليس من الحلي، هذا الادخار، فالادخار عليه زكاة. فهذا فرق بينهما مهم جدًا.

فأما الذي اتخذته للحِلية فهو من أموال القُنية، وأموال القُنية لا زكاة عليها، مثل سيارتك، بيتك الذي تسكن فيه، مثل حمار الكِراء. واحد عنده سيارة يعمل عليها سواء كانت سيارة كبيرة أو صغيرة أو تكسي، ثيابك، خاتمك الذي في يدك، هذه ليس عليها زكاة، أموال القُنية ليس عليها زكاة.

وأما الأحاديث التي يحتجّ بها المحتجون على وجوب زكاة الحلي فكلها ضعيفة لا يصح منها شيء.

الآن نأتي إلى السؤال الثاني، ذكرتُ الذهب لنطبقها على العقارات؛ رجل اشترى أرضًا، ما يتكلَّم به بلسانه هذا لا قيمة له، لكن رجل قال هذه أرض اقتنيتها لي ولأولادي حتى يأتي من يحتاج منهم فيبنيها، فهذه ليس عليها زكاة، هذه من أموال القُنية. وكما أن المرأة في حليها قد تقع في الحاجة فتبيعها، فحين بيعها يصير المال مال ادِّخار عليه زكاة، وكذلك هذه الأرض قد يقع به حاجة فيبيعها، وقد يقع الارتفاع فيبيعها ويشتري ثانية ليقع فيها نفس المعنى.

لكن واحد اشتراها وقال: أنا أقتنيها لأولادي، لكن هو كل يوم يشتري أرضًا، ويبيع ويشتري، فحاله يدل عليه، عليه أن يراقب نيته.

المسألة الأخيرة التي سأل عنها: أن هناك من يجعل عنده مالًا للتجارة لكن ليس عنده ما يُخرج قيمته، فهذا ينتظر حتى يُصبح له القيمة حتى يُخرج الزكاة، الزكاة دَيْن في رقبته حتى إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول ينتظر حتى يأتيه المال. الزكاة عليه بكل وقت لا تسقط، بخلاف الدَّيْن، فهي في كل مرة دين يتراكم، إذا كان

عنده عمارة مثلًا وهو ينتظر أن يبيعها وما بِيعت، هذه عليها زكاة، وهذا دين في رقبته، وهكذا وفي السنة الثانية والثالثة عليه زكاة.

بخلاف الدَّيْن، بعض العلماء قال: الدين يؤدى زكاة جميع السنوات، وهذا غير صحيح، الدين الميؤوس منه ليس عليه زكاة إلا عندما تقبضه فيحول عليه الحول، هذا هو الصحيح. وإذا أخرجت قبضه فحسن، وإلا فليس عليه زكاة إلا عند القبض، لأن الميؤوس منها كالمفقود.

٢. سؤال غير مفهوم.

الشيخ: هي حال عليها الحول، لكن تحوَّلت من عروض التجارة لمال مُدَّخر. أنت عندك أرض لماذا؟

السائل: كنت تركتها لأولادي، ثم بعتها، وصار معي مال، أنتظر الحول عليه أم بمجرد قبض المال أُخرج الزكاة؟

الشيخ: لما كانت معك على معنى القُنية ليس عليها زكاة، فلما تحولت إلى مال صار مالًا مُدَّخرًا عليه زكاة، فيبدأ الحول من وقت قبضك للمال.

أما في حالة أن رجلًا رصد أرضًا للبيع وليس عنده مال، فبِيعَت بعد سنتين أو ثلاث، كل سنة عليه زكاة.

٣. إذا أخذت قرضًا بقيمة عشرة آلاف مثلًا، هل عليه زكاة؟

الزكاة على القرض العلماء على أقوال مختلفة فيه، الشافعية يرى أن من يُخرج الزكاة من بيده المال، الذي يُؤخذ منه الزكاة المَدين، والدائن ليس عليه. فيُخرج منه الزكاة لأنه هو المنتفع به، ففيه شُبهة الملكية، هذا قوله.

الآخرون قالوا: لا، الملكية ضعيفة هنا، والملكية الحقيقية للدائن فهو الذي يُخرج الزكاة. والصواب: الثاني، هذا في الزكاة الـمُتيقَّن عودتها وليس الميؤوس منها. مثل زكاة التجار وغيرها، فهذا الذي يخرج الزكاة هو صاحب الملكية لقوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ}، فمن سُمِّي المال له على الحقيقة أخرج الزكاة.

وبارك الله فيكم.